

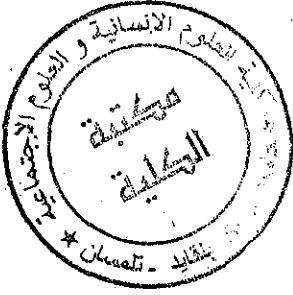
MA 6 - 426 - 05 / 04

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

3839 / 13 م (دع)

تاريخ علمي	وزارة التعليم العالي والبحث جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان
---------------	--

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم الثقافة الشعبية



رسالة لنيل شهادة الماجستير

بعنوان:

العلاقة بين النسيج العمراني والفضاء الاجتماعي - الثقافي
في المدينة العربية الإسلامية
مدينة تلمسان العتيقة نموذجا

إشراف الدكتور: عبد الحميد حاجيات

إعداد الطالب: حسين رحوي

جوان 2001

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

إلى سلفي الصالح،
خلف ابن احمد ابن خلف ابو بكر الرحوي
من فقهاء طليطلة

وإلى جدّي، الولي الصالح،
سيدي الأخضر رحوي

وإلى والدي الكريم موسى ،
الذي فاقرني مبكرا، وأنا صبي، ألعب على صدره

إلى من أحببني، فتولى تربيتي وأحسنها،
محمد ملوك

رحمهم الله

إلى والدتي، التي كانت دائما ورائي
إلى أخي، شقيقي الوحيد
إلى الزوجة الكريمة التي أتعبتها طوال سنوات الكدّ..
إلى البنّتين اللطيفتين فوزية وفاطمة الزهراء
إلى الأبناء المشاغبين مصطفى، علي ومحمد الأمين

حفظهم الله

أهدي ثمرة هذا العمل المتواضع

تشكرات

بسم الله الرحمن الرحيم،
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد،
أما بعد :

أتقدم بخالص تشكراتي القلبية

إلى أستاذي ومؤطري المحترم الدكتور " عبد الحميد حاجيات " الذي كان لي عوناً وسنداً متيناً في دربي هذا، حيث قوم أخطائي المنهجية والتاريخية، وسهل لي صياغة أفكارى وتصوراتى،

وإلى أخي الكبير محمد مروان شايب الذرع، مدير عام بالنيابة بمركز الدراسات والإنجازات في التعمير بتلمسان،

الذي لم يدخر يوماً جهداً في مساعدتي، في شتّ الميادين

وإلى صديقي " عبد الحق بن عامر " الذي أمدني

بالمساعدة في رسالتي هاته،

دون أن أنسى فضل الأستاذ الكريم " الحبيب دحماني "

الذي ساهم في التنقيح اللغوي لهذه الرسالة

وإلى من سهر معي ليالي التنقيب والترتيب

وإلى كافة زملائي في العمل

وإلى كل من بذل جهداً من أجل تقدّم سير هذا العمل المتواضع والوصول به إلى

نقطة القبول والمناقشة

مع أطيب تمنياتي بالتوفيق لطلاب معهد الثقافة الشعبية بتلمسان،

وإلى كل من كان بين يديه عمل صالح ينجزه ...

الفصل الأول :

مدخل عام

❖ مقّمة

❖ طرح الإشكالية وتحديد إطار البحث

❖ الخطة المنهجية المتّبعة

❖ أقسام البحث

الفصل الأول : مدخل عام

1 مقدمة

إنّ الضرورة الموضوعية لدراسة المدينة تقتضي أن ندرس ارتقاءها من نواة إلى بروز المدينة عبر المراحل التاريخية والإضافات التي أضافتها مختلف الأجيال عبر العصور.

ويتطلب منا هذا معرفة الظروف و الملابسات التي تمت فيها عملية البناء (الظروف الاقتصادية والاجتماعية و الثقافية والسياسية) وأهمية كل عامل من هذه العوامل في بلورة معالم المدينة و تجسيد مختلف الأفكار والطموحات.

ومن الأهمية بمكان ، الإشارة بادئ ذي بدء إلى أنّ إشكالية المدن القديمة تطرح تساؤلات فيما يتعلق بنمط العمران الذي أدى إلى تحقيق الانسجام الكامل مع المقومات الثقافية والحضارية للمجتمع.

وإذا كانت الإشكالية تطرح بالنسبة لدول العالم الثالث عامة فإنها تطرح بإلحاح بالنسبة للدول العربية والإسلامية ، خاصة أنّ النمط العمراني الذي ساد في هذه المدن تاريخيا والذي يعد نتاجا للقيم السائدة آنذاك خضع بدوره لعوامل أخرى ساهمت في توجيهه أنماط مختلفة ، استطاعت أن توجد الانسجام الكامل بين تصورات المجتمع ومعتقداته وبين الإنتاج العمراني.

ولا شك أن هذه الأنماط قد تأثرت بفعل مؤثرات الغزوات ، والحروب والرحلات التي تعاقبت على هذه المدن والتي أدت إلى زعزعة الانسجام الموجود آنذاك ، بل تجاوزت ذلك إلى قطيعة (إن صح التعبير) بين القديم والحديث ، حيث أصبح

الكثير من المدن تخشى فقدان هويتها بفعل الأنماط المستوردة التي تبدو غريبة عن سكان المدينة وقيمهم.

وفي رأينا فإن مدينة تلمسان لا تشذ عن هذا الإشكال ، مما دفعنا إلى محاولة دراسة جزء من هذه المدينة الذي نعتبره جوهريا ألا وهو : *المدينة العتيقة* .

وذلك أن هذه الأخيرة تعتبر نواة للمدينة الحالية ، وينحصر موقعها داخل الأسوار القديمة التي لازال البعض من جدرانها بارزا . وخصوصية وأهمية هذه الدراسة تبرز من حيث أن المدينة العتيقة تجسد ثمرة نضج الحضارة العربية الإسلامية في المغرب الأوسط.

وفي هذا الإطار سينصب اهتمامنا على دراسة تطور العلاقة بين الإطار المشيد والبيئة الثقافية والاجتماعية التي عرفت انسجاما تاما ، نتيجة لعوامل متعددة سنحاول التطرق إليها من خلال دراستنا لهذه العلاقة.

وإذا اعتبرنا أن كل نشاط إنساني هو ممارسة اجتماعية ناتجة عن ثقافة معينة، فإن هذا ينطبق على المدن وما لها من إنتاج، بحيث يكون الإطار المشيد مرآة عاكسة لهذه الممارسات الاجتماعية-الثقافية .

ومن هذا المنظور تتدرج هذه الدراسة في إطار ما يسمى بـ: "*الثقافة العمرانية* " .

2 طرح الإشكالية وتحديد إطار البحث

1-2 طرح الإشكالية :

في جميع كتابات الجامعيين ، والباحثين ، ومسيري وممارسي العمران والتعمير، نجد نفس الرسالة ونفس الخطاب : *المدينة العتيقة هيكل مريض* وذلك نظرا لازدياد كثافة سكانها ، وعدم مطابقتها لقواعد النظافة الناتجة عن غياب أو سوء إيصال قنوات تصريف المياه والشبكات العمرانية ، وحالة اهتراء متقدمة للإطار المشيد وتشويه ناتج لبروز عمارات فوضوية جديدة ، وأخيرا إلى سوء اندماج المدينة العتيقة مع المدينة الحالية ، الشيء الذي أدى لا محالة إلى تحولها إلى شكل حي قصديري ، وتهميشها.

وبموازاة هذا الخطاب ، هناك خطاب آخر ، وإن كان أقل انتشارا إلا أنه يبين أن المدينة العتيقة لازالت تحتفظ بجميع قواها ، رغم صرف الدهر والتدخلات المختلفة التي تمت داخلها .

أن قواتها تكمن أساسا في مراجعها التاريخية والثقافية ، والدور الاقتصادي الذي تلعبه ، والمد والنشاط الذي تعرفه من خلال أهمية معدل التوافد الذي تستقبله يوميا، والدور الاجتماعي الذي تلعبه عن طريق كبح وامتصاص عدد لا يستهان به من الطلبات الملحة للسكن ، وعددا من النقط التي سنتطرق إليها فيما بعد.

وإذا كان الخطاب الأول يقترن *بالفضاء الفيزيقي* ، بتحديد البعد العمراني المادي ، فإن الخطاب الثاني يقترن *بالفضاء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي* ويبرز البعد الإنساني.

وإذا كان العديد من الحلول المقترحة باءت بالفشل ، فإنّ هذا يرجع في أغلب الأحيان ، حسب نظرنا ، إلى أنّ جميع الدراسات والأبحاث تساءلت عن الجدران أكثر من تسأولها عن الناس الذين شيبواها .

وللإحاطة بالإشكالية التي تطرحها حاليا المدينة العتيقة يتوجب علينا أن نضع العلاقة بين جسد و روح هذه الأخيرة .

من هنا يظهر هدفنا عن طريق وضع العلاقة بين الفضاء الفيزيقي (الإطار المشيد) والفضاء الاجتماعي - الثقافي في تحليلنا ، من أجل الإجابة على السؤال التالي :
من ينتج ماذا وكيف ؟

إنّ عملية تشييد المدينة العتيقة، لم تصدر بصورة اعتباطية، تبعا لقرار سياسي كما هو الشأن حاليا في العديد من البلدان (المدن الجديدة ، المناطق العمرانية السكنية الجديدة ، الأحياء السكنية الفردية والجماعية، مناطق النشاطات الاقتصادية ... الخ) وإنما حدث ذلك وفق عملية بطيئة مرتبطة ارتباطا وثيقا بانشغالاتهم وحاجاتهم وثقافتهم ، وبعبارة أخرى: "وفق نمطهم المعيشي". الشيء الذي يدفعنا إلى القول بأنّ المدينة العتيقة كشكل من أشكال التنظيم الفضائي ، كانت التعبير المجسد لنوع من التنظيم الاجتماعي يظهر فيه الانسجام الكامل بين الإطار المشيد ، الفيزيقي والبيئة الاجتماعية الثقافية بما أفزته الحضارة العربية الإسلامية من أفكار وقيم ونمط معيشي كان له أثر كبير في تخطيط و إنجاز المدينة.

والظاهر أنّ التركيبة السكانية التي شيبت المدينة وعاشت فيها لم يبق لها أثر، وأنها قد تغيرت بصفة جذرية، وتحولت انشغالاتها وحاجاتها، إلا أنه لا زالت هناك رواسب ثقافية من الماضي يحملها السكان الحاليين في أذهانهم وممارساتهم اليومية.

ومن أجل الإحاطة بهذا التناسق بين الإطار المشيد والفضاء الاجتماعي-الثقافي والعوامل الأساسية التي أدت إليه ، نحاول أن ندرس مدينة تلمسان العتيقة عبر مرحلتين تاريخيتين محددتين :

1. **العصر القديم** حيث تبرز معالم مدينة "بوماريا" ضمن الشبكة العمرانية الرومانية، والذي نذكر ملامحه بإيجاز لمعرفة مميزات العمران بالجزائر عامة، وتلمسان خاصة، قبل العصر الإسلامي.

2. **العصر الوسيط** الذي عرف انبعاث مدينة "أغادير" ثانية على أنقاض المدينة الرومانية ، ثم بجانبها مدينة "تاغرارت" مشكلة معها مدينة "تلمسان" التي وصلت إلى أوج عظمتها في العصر الوسيط .

لا بأس أن نشير هنا ، على الهامش، بأن هناك بعض الأطروحات " ترجح الفكرة القائلة بأن اسم **أغادير** سابق للإسم اللاتيني **بوماريا** [Pomaria] ، لكن ما دامت اللغة اللاتينية هي اللغة الوحيدة المستعملة آنذاك بالمنطقة ، تجاهلت السلطات الرومانية اللفظ المحلي الأصلي الذي بقي على مستوى الاستعمال الشفوي" (1) . ومن هنا يمكننا أن نفترض بأن أغادير " كمركز تجمع بشري" كان قائما قبل مجيء الرومان إلى المنطقة. كما يؤكد ج. مارسي على تأهيل المكان للتعمير قائلا : " تحفل تلمسان إحدى المواقع العجيبة التي يمكن مشيد المدن أن يختارها ... تقع المدينة في ناحية زراعية غنية متصلة بالتل والسهوب وفي ملتقى طرق كبيرة عديدة... " (2) .

(1) سيدي محمد نقادي : التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية

(رسالة ماجستير) - معهد الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان ، 1991م - ص: 11

(2) أندري برنيان - أندري نوشي - إيف لاکوست : الجزائر بين الماضي والحاضر

ترجمة: اطنبولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م - ص: 114

استدلال مقطوف من كتاب : Georges MARCAIS: les villes d'art célèbres : Tlemcen,

Librairie Renouar, Paris, 1950

ومهما كان من أمر، فإن ما يهمنا - في المرحلتين التي ندرسها - هو **أغادير** التي قامت في العهد الإسلامي على أنقاض **بوماريا** الرومانية. فكل إشارة في هذه الدراسة إلى **أغادير**، تعني "**أغادير العهد الإسلامي**".

إن اختيار هذه الحقبة التاريخية التي تتوافق مع فترات أوجدت تغييرات عميقة وجذرية في مجتمعنا ، يساعدنا على الإحاطة منهجيا بموضوع دراستنا.

2-2 تحديد إطار البحث :

1-2-2 المكان :

تمسّ دراستنا مدينة تلمسان العتيقة الواقعة داخل الجدران التي شيدها المستعمر الفرنسي (لأسباب أمنية) أثناء دخوله المدينة . حتى وإن كان هذا المحيط لا يحوي إلا ثلثي مساحة المدينة القديمة ، إلا أنه يمثل جميع خصائص هذه الأخيرة ، حسب ما اتفق عليه المتخصصين في علم العمران والآثار.

هذا لا يمنعنا من الخروج عن هذا المحيط العمراني- المحدد منهجيا- عندما تتطلب ضرورة الدراسة ذلك ؛ خاصة وأنّ **أغادير** و**سيدي الحلوي** و**العباد** يشكلون محطات عمرانية وأثرية فريدة من نوعها في المغرب العربي ، والتي لا يمكننا الاستغناء عنها في مثل هذه الدراسة .

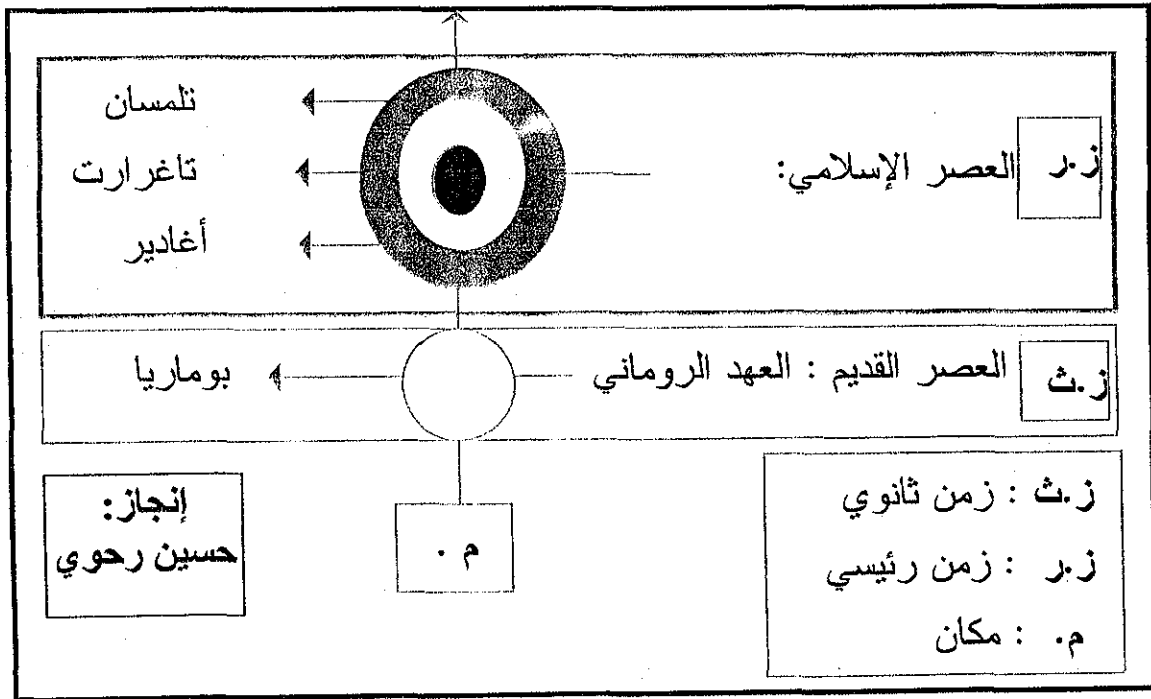
2-2-2 الزمان :

إنّ **الزمن المرجعي** الذي اخترناه لدراسة مدينة تلمسان العتيقة هو **المرحلة المرجعية** في تاريخها ، أي عندما ارتقت الى درجة عاصمة المملكة **الزيانية** (مملكة بني عبد الواد). كما تُعتبر هذه المرحلة حوصلة ما أنجز ماديا وفكريا من بداية الفتوحات الإسلامية (**بوماريا-أغادير**) إلى غاية التواجد العثماني (**تاغرارت-تلمسان**).

لهذا ، سنتم دراسة مدينة تلمسان في مقطعين زمنيين محددتين:

1. **مقطع زمني ثانوي:** حيث نقدّم بإيجاز خصوصيات العمران الماقبل إسلامي بالمدينة الرومانية " بوماريا " التي برزت على أنقاضها مدينة " أغادير " الإسلامية.

2. **مقطع زمني رئيسي:** حيث ننكبّ كلية في دراسة الخصوصيات العمرانية والمعمارية لمدينة تلمسان العتيقة ومختلف العلاقات القائمة بين المجال الاجتماعي-الثقافي والمجال العمراني .



3 الخطة المنهجية المتبعة (المنهجية)

1-3 الإطار المنهجي العام المعتمد في هذه الرسالة

إنّ المنهجية ، كأداة تحديد وتنظيم خطوات وأهداف البحث العلمي، في ميادين العلوم الإجتماعية والإنسانية ، تختلف في الزمن وفي المكان حسب المستويين العلمي والتكنولوجي والتصورات العامة المتمثلة في الضمير الجماعي (1) (أو الجمعي) للمجتمع الذي ينتج فيه هذا البحث .

زيادة عن هذه القيود ، إن صح القول ، والتي تتحكم إلي حد ما ، في سير البحث ونتائجه (أو استنتاجاته) ، هناك نوعية الموضوع وطبيعته الذان يمليان بعض الفروض والأدوات المنهجية وبعض التقنيات.

ومن جهة أخرى ، ليست هناك نظريات جاهزة ، في العلوم الإجتماعية ، للقيام ببحث ما، وفق مخطط وتقنيات مسطرة مسبقا ، كما هو الحال في ميادين العلوم التجريبية والعلوم الدقيقة ، على وجه الخصوص (2) . فإذا كانت إعادة إنتاج الظواهر الفيزيقية ممكنة في المخابر العلمية ، فإن تكرار الظواهر الإجتماعية والثقافية غير ممكن أصلا ، حتى وإن تشابهت بعض ملامح هذه الظواهر (3) .

(1) الضمير الجماعي = *Conscience Collective* : مصطلح استخدمه الباحث الاجتماعي الفرنسي " إميل دوركهايم" ليعبر به عن الشعور الجماعي بالانتماء الحضاري والمصير المشترك لمجتمع ما ، تجمعهم روابط مثل اللغة والدين والوحدة الترابية والتاريخ المشترك... إلخ .
أنظر:

Emile DURKHEIM, Morphologie Sociale, l'Année Sociologique, 2° Année, Alcan, Paris, 1899

(2) مناهج العلوم الدقيقة والتجريبية تضبطها قوانين ثابتة ، أي كل ما اجتمعت نفس الشروط ، تكررت النتيجة المرجوة.

(3) الظاهرة الاجتماعية تعتبر " شيء في ذاته = *Chose en So i* (3)

Emile Durkheim : the ruler of Sociological Method, the Free Press of Glencoe, 1895, 1962, p :14

هذا يعني شيئين :

1. ليست هناك حيادية تامة في البحث الاجتماعي ، نظرا للانتماء الحضاري للباحث ،

كعضو من المجتمع البشري

2. ليست هناك وصفة جاهزة يتحتم اتباعها لإنجاز بحث اجتماعي

لهذا ، بناء على ما تقدم ، وبعد قراءات عديدة حول موضوع بحثنا ،

اخترنا (أو انتخبنا) الخطة الأقرب صوابا ، حسب رأينا ، لمعالجة موضوع البحث

الذي نحن في صدد إنجازه .

2-3 طرح الخطة :

ينتم البحث العلمي ، على غرار الإنتاجان الفكرية الأخرى ، بضوابط منهجية وتقنيات عملية يتحكم فيها المنطق لانتخاب الظواهر وكشف خصوصياتها وتحليل عناصرها من أجل الخروج بنتائج جزئية أو كلية .
وبلوغ هذه الغاية يتطلب استخدام مجموعة من النظريات والتقنيات الملائمة لكل مرحلة من مراحل البحث . كما يكون **التمفصل النظري الأنجع** ⁽¹⁾ ضروريًا في تركيب المفاهيم والمصطلحات وتشغيلها.

1-2-3 مكونات البحث :

إنّ البحث لا يكتسي طابعه العلمي إلا إذا اكتملت فيه شروط الدلالة والمنطق والبرهنة والانتماء إلى ميدان معارفي معيّن والإعتماد على نظريات ومفاهيم وتقنيات ، تخدم جميعا - ومعا - هدف البحث العلمي .
ولذا ، فإن الملاحظة والفحص بالتأني لأي بحث علمي تُبرز (أو تبين) أربعة أقطاب متداخلة ومتفاعلة، وهي حسب العالم الإجتماعي **جاك هرمان** ⁽²⁾ Jacques HERMAN

Le Pôle Epistémologique	• القطب المعارفي
Le Pôle Théorique	• القطب النظري
Le Pôle Morphologique	• القطب المورفولوجي
Le Pôle Technique	• القطب التقني

(1) التمفصل النظري = l'Articulation Théorique ، أي الانصهار المتجانس والمتكامل لمفاهيم ومصطلحات، داخل إطار نظري موحد

(2) Jacques HERMAN : Les Langages de la Sociologie
Coll. Que Sais-Je ? - Presses Universitaires de France - Vendôme France ; p:5

• القطب المعارفي :

هو الإطار المرجعي الذي يتحدد فيه انتماء البحث إلى ميدان معارفي معين، أي الانتماء إلى علم العمران ، أو علم الآثار، أو علم الاجتماع ، أو علم الأنثروبولوجيا ... إلخ ؛ بخلفياته الفلسفية والحضارية .

هو كذلك القطب الذي يتكوّن فيه موضوع البحث ، وتحدد فيه الإشكالية العامة (Problématique Générale) شكلا ومضمونا.

• القطب النظري :

هو القطب الذي تنتظم فيه الفرضيات وتحدد فيه المصطلحات والمفاهيم التي تمكن من القيام بالبحث .
وتكون هذه المصطلحات مستقاة من نظريات متلائمة مع طبيعة البحث .

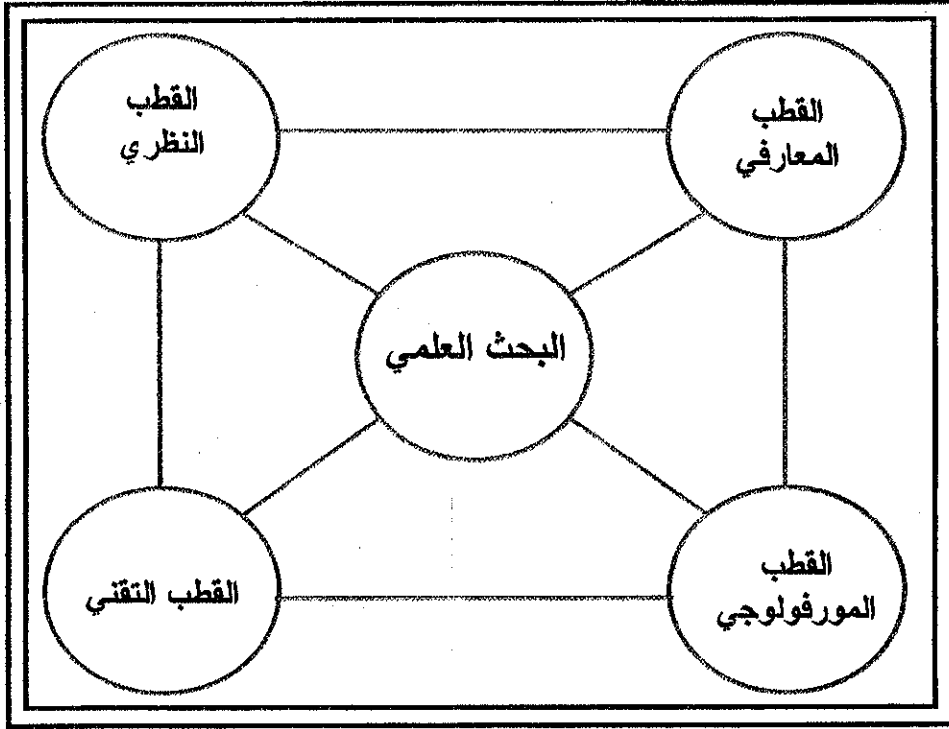
• القطب المورفولوجي :

هو القطب الذي تتمفصل فيه مختلف النظريات و مختلف مستويات شرح الظواهر . كما يتم فيه التنظيم والتركيب المنطقي لأجزاء البحث بمختلف عناصره .

• القطب التقني :

هو القطب الذي تتم فيه التحريات ووضع وسائل وتدابير الملاحظة وجمع المعطيات ومعالجتها.

رسم بياني للخطة المنهجية المتبعة



2-2-3 النظريات المعتمدة في هذه الرسالة :

إن طبيعة الموضوع - التي تتطلب عدة تخصصات علمية كـ: علم الآثار ، والإثنولوجيا ، والإثنوغغرافيا ، والأنثروبولوجيا ، وعلم التاريخ ، وعلم الاجتماع ، والهندسة المعمارية ، وعلم العمران ، والثقافة العمرانية على وجه الخصوص - تستدعي الإعتماد على نظريات مختلفة لكشف الظواهر وتحليلها تحليلًا علميًا سليمًا .

يقول العالم الاجتماعي ماكس فيبر⁽¹⁾ أنه يمكن للباحث أن يصل إلى الحقيقة ، أو بالأحرى إلى نتائج علمية ، من أية زاوية يتناول منها موضوع بحثه ، أي يمكن للباحث أن ينطلق من منطلق "أيدولوجي" وينتهي بنتائج علمية ، كما فعل ، لما وضع العلاقة بين معطاة عقائدية ، "المذهب البروتستنتي" في الديانة المسيحية ، ونمط

(1) Max WEBER : l'Éthique du Protestantisme et le Capitalisme

Essais sur la Théorie de la Science (1922), Paris, Plon, 1965, 537 p.

اقتصادي " الرأسمالية " قصد البرهنة على أن " المذهب البروتستنتي " يتماشى مع القوانين الاقتصادية التي تسيطر الرأسمالية كنمط إنتاج ناجح في المجتمع الغربي .

لهذا نظرا لتعدد الزوايا التي سوف ننطلق منها لتبيين أوجه العلاقة بين الإطار المشيد والفضاء الاجتماعي-الثقافي بمدينة تلمسان العتيقة سوف نعتمد على النظريات التي أنتجت واستعملت في دراسات وبحوث أقيمت حول المجتمعات البشرية من حيث علاقاتها الاجتماعية وممارساتها الثقافية (Anthropologie - Sociologie...) والآثار المادية التي تركتها هذه المجتمعات (Ethnologie - Ethnographie - Archéologie - Architecture...) .

ومن بين هذه النظريات نذكر :

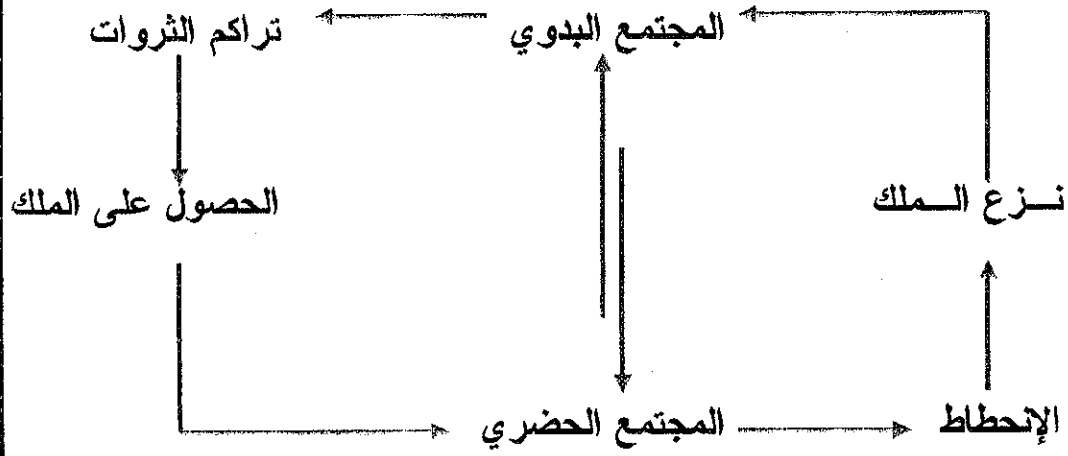
- نظرية التطور الدوري للمجتمع عند ابن خلدون (l'Evolution Cyclique de la Société)
- النظرية البنوية-الوظيفية (Le Structuro-Fonctionnalisme) .
- النظرية العامة للنظم (La Théorie Générale des Systèmes) .⁽¹⁾

1. نظرية التطور الدوري للمجتمع :

إن العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي درس المجتمعات العربية والبربرية وغيرها من الأجناس يبرز من خلال مؤلفاته القيمة نظرية عامة لتطور المجتمع فهو يرى أن هناك صراع غير منقطع في المجتمع ، يشتغل تحت الثنائية الباطنية بدو//حضر من أجل الحصول على الملك والوصول إلى السلطة بالإنقال من حالة البداوة إلى التمدن .

(1) W.BUCKLEY : Sociology and Modern Systems Théory , 1967

التطور الدوري للمجتمعات البشرية
عند ع. ابن خلدون



رقم :

إنجاز : حسين رحوي

2. النظرية البنوية الوظيفية

النظرية البنوية :

إن النظرية البنوية تركز على وضع العلاقة بين العناصر المكونة لظاهرة أو مجتمع ما قصد استخراج البنية الكلية لهذا المجتمع أو البنيات الجزئية للفئات التي يتكون منها هذا الأخير .

ومن رواد هذه النظرية التي ظهرت وتبلورت مناهجها ومصطلحاتها في علم الأنثروبولوجيا خاصة ، نذكر : ك. ليفي ستروس (1) ، رونالد فلاتشر (2) ، مارغريت ميد ، رادكليف براون ، وغيرهم (3) .

النظرية الوظيفية :

إن النظرية الوظيفية في نفس الوقت الذي تأخذ فيه بعين الاعتبار البنى الاجتماعية فإنها تجتهد في فهم وظيفة كل عنصر من العناصر المكونة لكل بنية من هذه البنى ، ومدى فاعليتها .

لهذا تكون النظرية البنوية الوظيفية نتيجة الإمتزاج المتجانس والمتكامل لهاتين النظريتين السالفتي الذكر .

ومن رواد هذه النظرية نذكر : مالينوفسكي 1942 (4) ، ت. بارسنس (5) ، إلخ...

(1) C. LEVY-STRAUSS : Structural Analysis = Analyse Structurale = التحليل البنوي

La Pensée Sauvage , 1962

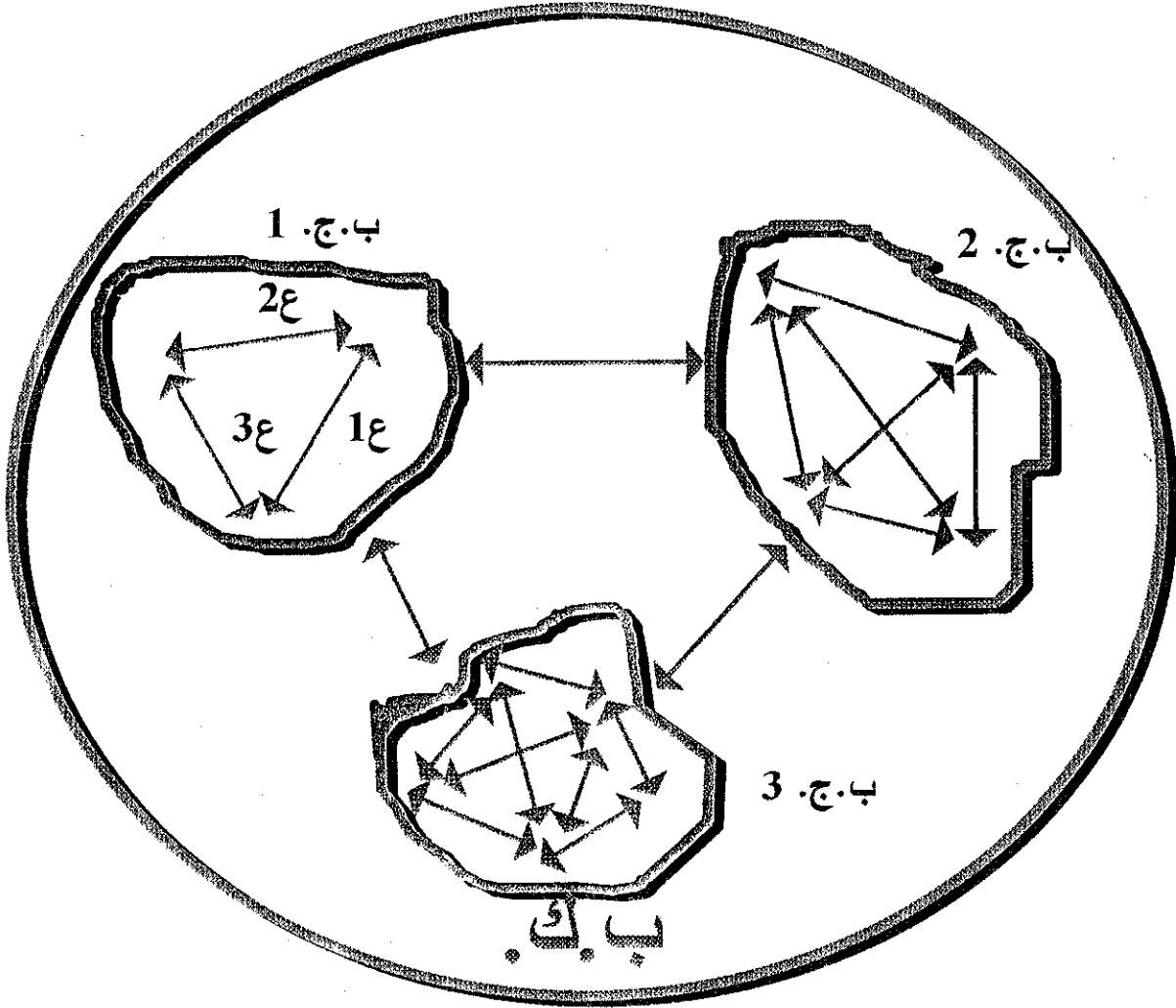
(2) Ronald FLETCHER : The making of Sociologie , London ,Nelson , 2 t , 1554 p.

(3) Margaret MEAD , Radcliff BROWN et autres .

(4) B. MALINOVSKI : Freedom and Civilization , 1942

(5) Talcotti PARSONS : Le Système des Sociétés Modernes (1971), Paris , Dunod , 1975 .

رسم بياني لتصور البنى والعناصر المكونة لها عند البنيويين الوظيفيين
إنجاز: حسين رحوي
رسم رقم:



• ع = عنصر (مكون لبنية جزئية)

• ب.ج. = بنية جزئية

• ب.ك. = بنية كلية

= عناصر مترابطة ومتفاعلة



لهذا ،

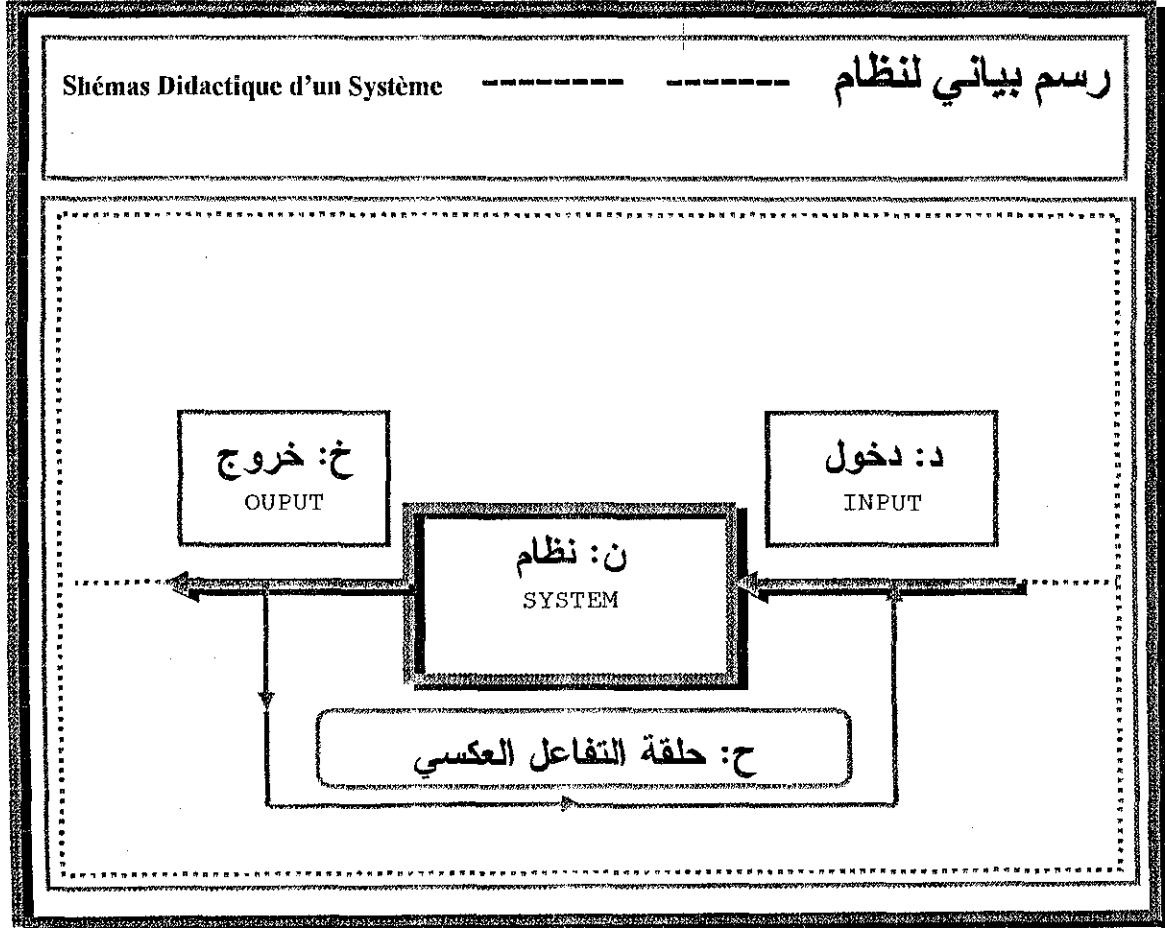
• بنية جزئية \Leftarrow 1.ج.ب = 3ع + 2ع + 1ع

• بنية كلية \Leftarrow ب.ك. = 3.ج.ب + 2.ج.ب + 1.ج.ب

3. النظرية العامة للنظم :

تعتبر المجتمع كمجموعة من الأنظمة (الأجهزة) ولكل جهاز ضوابط خاصة به وهناك أنظمة جزئية والنظام الكلي للمجتمع ، والذي تتطوي تحته هذه الأنظمة الجزئية.

يتكون النظام من: مدخل ومركز تفاعلات ومخرج .



مثل تطبيقي:

- د : صياغة قوانين ← إدخالها قصد تطبيقها
- ن: نظام إجتماعي ← تفاعله مع هذه القوانين ومدى تقبلها
- خ: تصرفات ← التصرفات الناتجة عن إدخال هذه القوانين
- ح: حلقة التفاعل العكسي ← إعادة صياغة القوانين وإدخالها الى النظام

3-3 الخطة العملية وتقنيات البحث المعتمدة في هذه الرسالة :

في هذا الإطار العام الذي تطرحه إشكالية المدن العتيقة و الذي يستدعي عدة اختصاصات من أجل اقتراب شامل : كعلم العمران، الفن المعماري، علم الاجتماع، علم الآثار، التاريخ، الجغرافيا، الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا ... الخ فإننا سوف نحاول في حدود كفاءتنا أن نعالج الموضوع بطريقة تركيبية و ذلك بإبراز العوامل الأساسية التي كانت وراء نشوء و تطور مدينة تلمسان العتيقة و التي نوزعها حسب الفئات التالية :

1. العوامل الطبيعية و الفيزيائية :

البيئة و الموقع الجغرافي، خصوصيات موقع تشييد المدينة، المناخ ... الخ

2. العوامل الاجتماعية الثقافية :

الحضارة العربية الإسلامية و أنواع المواقف التي توحى بها في الفكر والنمط المعيشي.
الأجناس الرئيسية التي تعايشت و العلاقات التي انبثقت عنها.

3. العوامل التاريخية :

الأحداث الكبرى التي طبعت الجزائر و مدينة تلمسان في نفس الوقت؛ إن هذا يعني خاصة التواجد الروماني والفتح الإسلامي في المغرب و الأندلس، و مدى التأثير الذي مارساه على العقول و على الإطار المشيد.

4.العوامل السياسية و الاقتصادية :

الناجئة عن أوضاع سياسية واقتصادية وإجتماعية أدت إلى أخذ بعض القرارات التي أثرت على المحيط العمراني (منشآت إدارية مؤسسات اقتصادية، مدن جديدة... الخ).

5. العوامل العلمية و التقنية :

إن التطور العام للعلوم والتكنولوجيا والتأثير القوي الذي يمارسه على أنماط إنتاج الإطار المشيد (التطور في التصورات المعمارية والعمرانية وظهور تيارات ونظريات ، والتطور في تقنيات و مواد البناء ...إلخ) .

• صياغة الفرضيات :

من خلال هذه العوامل و عوامل أخرى ستبرز أثناء سير الدراسة ، والتي نضعها في علاقة فيما بينها ، وبارتكازنا على البحث الميداني ، سنحاول التحقق من الفرضيات التالية :

1- الفرضية الأولى :

يعتبر العصر القديم عامة ، والتواجد الروماني بالجزائر خاصة ، مرحلة حاسمة في اختيار الموقع المرموق الذي سوف تظهر وتتمو فيه - لاحقا - مدينة تلمسان (كنموذج) على أنقاض بوماريا ، والذي سوف يحدد علاقاتها مع أقاليم شاسعة والعديد من البلدان ، علما بأن الرومان تركوا شبكة عمرانية (1) هائلة ، لا زال نظامها العام قائما الى يومنا هذا .

2- الفرضية الثانية :

لقد أدى دخول الإسلام الى المغرب ، الى قلب الهياكل السابقة . وحتى إن وُجدت (بقيت) هناك بعض الممارسات الماقبل الإسلامية ، فإنها ادمجت وانصهرت في قالب الإسلام الذي أصبح الإطار المرجعي لكل النشاطات .

(1) شبكة عمرانية = Réseau de Villes, Réseau Inter-Urbain de la Maurétanie Césarienne

ويعتبر العصر الإسلامي هو المرحلة الجوهرية (بأتم معنى الكلمة) التي عرفت فيها مدينة تلمسان أوج ازدهارها ، سواء على المستوى الثقافي أو على مستوى إنجاز المجموعات العمرانية والمعمارية الكبرى (1).

كما عرفت تلمسان التنقلات الكبرى للسكان الذين زحفوا إليها خاصة من دول المغرب العربي ، والمشرق العربي ، والأندلس ابتداء من القرن 15م (2).

لذا ، يعدّ الإطار المشيد بتلمسان نتاج الإنصهار الإجتماعي والثقافي للسكان المحليين ، وعرب ما سمي فيما بعد بالشرق الأوسط ، والأندلس وأهالي الشام وفارس وغيرهم من جنس غير عربي.

وهذا ما يجعله نموذجا للعمارة العربية الإسلامية الذي أوجد تناسقا تاما بينه وبين البيئة الثقافية - الاجتماعية التي كانت وراء تجسيده ماديا . ومن تم سنحاول إبراز أوجه العلاقة بين الإطار المشيد والفضاء الإجتماعي - الثقافي بمدينة تلمسان العتيقة ، ومدى تناسقها في هذه المرحلة التاريخية .

• التقنيات المستخدمة في التحريات الميدانية :

ومن التقنيات ، التي تساعدنا على إبراز خصوصيات المدينة العتيقة الملاحظة الدقيقة للعناصر المكونة للإطار المشيد وهيكلته والمقارنة بين ما أنجز قديما وحديثا.

(1) إنجاز مدن : أغادير، تاغرارت ، تلمسان - قرى وأحياء : العباد - مباني كبرى : قصور، مساجد ، مدارس ... إلخ

(2) سقوط غرناطة آخر معقل للعرب بالأندلس، في 1492م.

لذا سوف نتطرق إلى فحص :

1- مورفولوجية النسيج العمراني :

الشوارع ، الطرقات ، الدروب ، الساحات ، المفردات ، تموضع التجهيزات ، والتوزيع السكني.

2- التصور المعماري :

الشكل، الحجم، النمط، الطراز، الوظيفة.

3- تقنيات و مواد البناء :

4- التزيين، التشكيلات الهندسية والرموز.

وعناصر أخرى ستحدد أثناء التعمق في الدراسة

وبناء على ما تقدم ، إختارنا لدراستنا العنوان التالي :

العلاقة بين النسيج العمراني والفضاء الإجتماعي-الثقافي

في المدينة العربية الإسلامية

" مدينة تلمسان العتيقة نموذجا "

4 أقسام البحث

يتكون البحث من قسمين متداخلين :

1-القسم النظري :

فيه يتبلور ويتحدد موضوع البحث والمفاهيم التي يتوجب استعمالها الشيء الذي يساعد على طرح الفرضيات استنادا إلى البحوث والدراسات التي تمت حول موضوع البحث وكذا التيارات الفكرية والنظريات التي صاحبت علم العمران والثقافة العمرانية .

2-القسم الميداني :

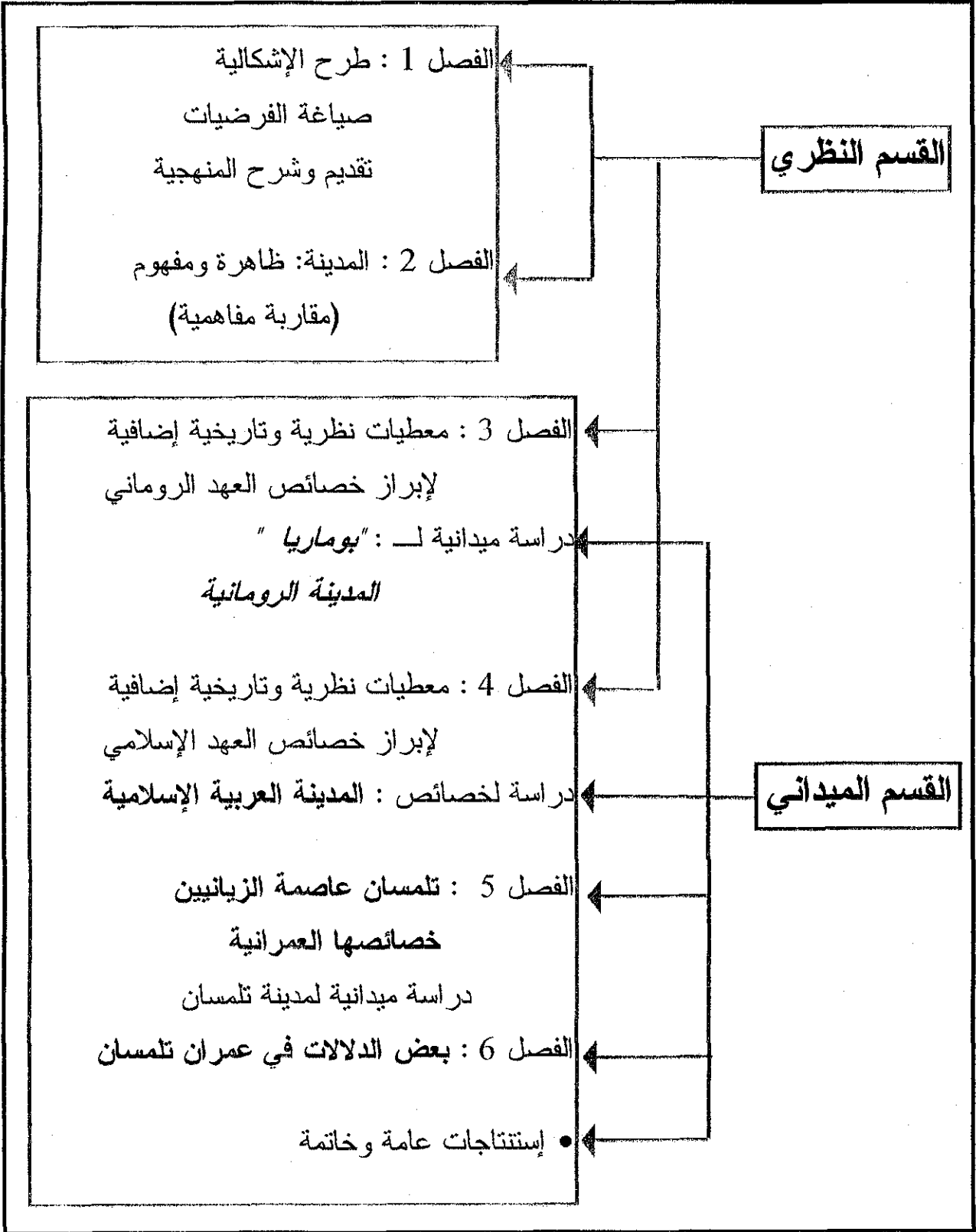
يعتمد بحثنا الميداني فيه على الدراسات التقنية العملية التي تمت حول المدينة العتيقة (دراسات إعادة الهيكلة ، الترميم ، إعادة البناءات التاريخية إلى أصلها) وكذا الدراسات الأثرية والمعمارية ، و دراسة بعض الخلايا النموذجية من مساكن ومتاجر ومنجزات اجتماعية وثقافية ، وبعض العمارات ذات الطابع الأثري.

ونستعمل تقنيات البحث الاجتماعي كالمقابلة المباشرة للمختصين وممارسي العمران ، والسكان الحاليين للمدينة العتيقة ، قصد استقاء ذكرتهم الجماعية وآرائهم وتصوراتهم.

• ملاحظة هامة :

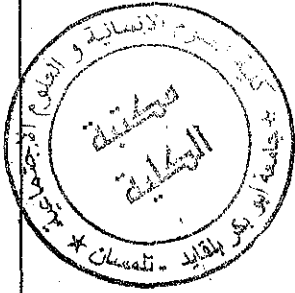
نظرا لطبيعة الموضوع والمنهجية التي سنسلكها في دراستنا هذه ، سوف نلجأ في القسم الميداني- خاصة في الفصلين الثالث والرابع- إلى إدراج معطيات نظرية وتاريخية إضافية من أجل فهم أدق للظواهر التي تكون قصد الدراسة والتحليل .

تصميم عام لمحتوى البحث



الفصل الثاني:

المدينة : ظاهرة ومفهوم
" مقارنة مفاهيمية "



- ❖ التجمّع السكاني للمجتمع البشري
- ❖ تصوّر المدينة عند العرب
- ❖ تكوين المدن وتطورها

الفصل الثاني:

المدينة : ظاهرة ومفهوم (مقاربة مفاهيمية)

1 التجمع السكاني للمجتمع البشري

إن النظرة التأملية لنشأة الكون والحياة على وجه الأرض تبين لنا أن كل شيء فيهما يخضع لقوانين مضبوطة.

إن دوران القمر على نفسه وحول الأرض ودوران الأرض حول الشمس كأخواتها من المجموعة الشمسية ، واختلاف الليل و النهار والفصول ' وترجمتها وفق حلقات منتظمة ، وأشياء أخرى يتحدر ذكرها هنا ، تبين أن "النظام"(المفهوم) هو الكلمة المفتاح التي يمكننا من خلالها تعريف وفهم العالم المحيط بنا ، بمختلف مكوناته ، والإنجازات البشرية ، المادية منها والروحية.

يظهر جليا هذا النظام في العالم الحيواني ، كذلك ، عند مستوطنات الطيور المهاجرة ، والقردة ، وعند النحل حيث نلاحظ مستوى عال من التنظيم ، لأن جل الحركات والأفعال تبدو وكأنها مسيرة بيد خفية وموجهة نحو أهداف معينة. كما نلاحظ عند هذه الأخيرة تدرجا طبيعيا (أو توزيعا طبيعيا) في المراتب ، والأدوار، والوظائف : الملكة وحراسها ، والعاملات ، والباحثات عن الطعام ، والكاشفات ... إلخ ، لها جميعا وظائف معينة في هذا النوع من المجتمعات.

إلا أن هذا التنظيم الوراثي العجيب عند النحل ما هو إلا مجرد " نقل وراثتي" (1) منقولا جيلا عن جيل في نفس الرمز ، بدون أي تغيير أو ابتكار ؛ ولهذا فهو برنامج جامد لا يتحول ولا يتبدل ، منفذ غريزيا . كل الحركات تتكرر آليا ، لا يتحكم فيها "العقل" . لذا ، لا يمكن أن نقول أن الفعل الثقافي موجود هنا.

الإنسان الذي هو جزء لا يتجزأ من هذا الكون ، والذي يتأثر به ويؤثر فيه لا يمكن له أن يكون بجانب هذا النظام ويعيش خارجا عنه . مزودا بالإحساس والذكاء والخبرة ، لا يمكنه أن يتبنى - أو يتصور - عيشة غير منظمة (أي فوضوية).

وإذا اختلف العديد من أنواع الحيوانات عن سطح الأرض ، فذلك يرجع في غالب الأحيان إلى عدم تكيفها مع تغيرات المناخ والمحيط و وتيرة التطور بصفة عامة (2).

وعلى عكس الحيوان ، أدرك الإنسان منذ البداية ، أنه محتوم عليه ، إذا أراد البقاء أن يتكيف مع أوضاع الحياة وتطورها بخلق شروط البقاء (الظروف الملائمة). ويتكيفه مع الأوضاع الطبيعية والتراكمات الثقافية ، بدأ الإنسان يفهم ميكانزمات الحياة وإخضاع المحيط (البيئة) تدريجيا حسب حاجاته وإمكاناته .

وانتقل من طور جني الفاكهة إلى طور الصيد ، ومن تم إلى الزراعة التي تعتبر المرحلة الحاسمة التي كانت وراء توطنه (Sédentarisation) (3) واستقلاله السكني النسبي .

وانتقل الإنسان بفضل التجارب والممارسة اليومية من الحالة الطبيعية إلى الحالة الثقافية ؛ وتطابق كل مرحلة من تطوره مستوى معين من التطور التكنولوجي وكذلك نمط معيشي معين .

(1) نقل وراثتي = Transmission Génétique

(2) J. LAMARCK : Théorie Générale de l'Evolution, France, 1809

Charles DARWIN : Théorie de la Sélection Naturelle et Origine des Espèces, G.B., 1859

In : Mémo Larousse Encyclopédique, 1304 pages, Librairie Larousse, Paris, 1990, pp : 67-882-889

(3) حسب ترجمة " منجد الجيب" : فرنسي-عربي . دار المشرق ، بيروت، لبنان، 1989 - ص:354

هذا التطور الشامل والحتمي يظهر على جميع المستويات وفي جميع ميادين الحياة.

فالزواج الذي كان في البداية عبارة عن فعل طبيعي الغاية منه إعادة إنتاج الجنس البشري ، صار فعلا ثقافيا ناتجا وخاضعا لعلاقة الزوجين وتفاعلها مع المجتمع. واللباس الذي كان الهدف منه الوقاية من البرد ، والمطر ، وحرارة الشمس ، خضع بدوره لمتطلبات إجتماعية وأخلاقية . إن الفرق بين بدلة النوم ، وبدلة العمل ، والسهر ، والرياضة ، يعبر في نفس الوقت على البحث عن الرفاهية والأناقة وعن محاولة التكيف مع أوضاع متجددة باستمرار.

ومن البديهي أن يتغير المسكن كذلك ، بحيث كان في البداية عبارة عن ملجئ ومخبئ ومكان يوفر الحماية من تقلبات الجو، والحيوانات ، والغزاة (1) ، وصار المجال الحيوي للعائلة (أو الأسرة) التي هي مجتمع مصغر يستقبل ويبث القيم الثقافية وغيرها.

وتعتبر الدواوير والأحياء ، والجماعات القروية وغيرها ، أشكالا لتجمع هذه العائلات والأسر والقبائل في جماعات كبيرة ومتجانسة إلى حد ما ، تربط بعضها البعض عناصر عرقية ، واجتماعية ، وانشغالات مشتركة ونظرة واضحة للمستقبل.

2 تصور المدينة عند القدماء وعند العرب

لقد اهتم الفلاسفة والمفكرون والباحثون من ميادين مختلفة بـ: المدينة ، ليس كظاهرة مادية ملموسة فقط ، بل، كذلك كمفهوم وتصور عام لأنواع اجتماع الجنس البشري ، وماهية هذا الاجتماع ، و أهدافه والغاية منه ، على وجه الخصوص.

(1) Ildefonso CERDA () : La Théorie Générale de l'Urbanisation

Coll. Espacements -Editions du Seuil, Paris , 1979 ; pp : 84 et 85

لذا ، فإنّ المدينة ظاهرة اجتماعية-ثقافية خاصة بالمجتمع البشري . شيدها الإنسان ليعيش فيها ويسكن إليها ، باحثاً عن الأمن والأمان ، والألفة ، والسلم والسلام ؛ عن السعادة باختصار...

ولبلوغ هذه الغاية الصعبة المنال ، تصوّر الإنسان (المفكر) المدينة المثالية والمدينة الفاضلة ، لأنّ هناك مدن ضالّة ، ومدن فاسقة ، إلخ... فأنت أفكار وآراء ، وتصورات كثيرة حول هذه الظاهرة ، البعض منها يتشابه والبعض يختلف .

1-2 المدينة عند الفارابي

يعتبر الفارابي من أبرز فلاسفة ومفكري العصر الوسيط ، حيث اهتم بعلوم الدنيا والدين ، إذ صنف المعارف إلى ثمانية "8" أصناف وهي :
علوم اللسان - والمنطقيات - والرياضيات - والطبيعيات - والإلهيات - والسياسيات ،
- والفقه - والكلام .⁽¹⁾

فغاص في العلوم القديمة كالرياضيات والمنطق عند أرسطو ، وجمع بين رأيي أفلاطون وأرسطو طاليس⁽²⁾ ، واهتم بالموسيقى فتفتح فكره إلى فهم أوسع للطبيعة وما وراء الطبيعة وسائر المخلوقات والخالق وسرّ الوجود ومكانة الأخلاق والسعادة فيه.

ونقول الدكتورة نجوة قصاب حسن عن فلسفة الفارابي ما يلي : « إنّ التجديد الفكري والإبداع الذي قدمه الفيلسوف الفارابي يتجلّى في التصور الذي قدمه عن المدينة الفاضلة التي تتحقق في إطارها العدالة والحرية ، كما يتجلّى في تصديده لمعالجة مشكلات فلسفية معقدة تبحث في قضايا المعرفة والوجود وفيما يتعلّق بمسألة خلق العالم »⁽³⁾ .

(1) الدكتورة نجوة قصاب حسن : التفكير الاجتماعي عند العرب

مطبوعات جامعة دمشق ، سوريا ، 1989 - ص: 15

(2) الفارابي : كتاب الجمع بين آراء الحكيمين

دار المشرق ، بيروت ، لبنان - ص : 100

(3) د. نجوى قصاب حسن : نفس المصدر : ص: 16 و17

وفيما يخص الاجتماع البشري ، فقد قرأ " المدينة المثالية " (1) عند أفلاطون وتجاوز أبعادها وأهدافها . وبناءا عن تكوينه العلمي الخاص وتصورات عصره ومقومات مجتمعه (2) ، كتب في هذا المجال كتاب " آراء أهل المدينة الفاضلة " وكتاب " السياسات المدنية " .

أما المجتمعات الإنسانية فيصنفها الفارابي صنفين : المجتمعات الكاملة والمجتمعات الغير كاملة :

❖ أما المجتمعات الكاملة فهي تنقسم الى ثلاث فئات : العظمى والوسطى والصغرى

- الفئة العظمى تعني المجتمع الإنساني في المعمورة (سكان العالم)

- الفئة الوسطى تعني اجتماع أمة في جزء من المعمورة

- الفئة الصغرى تعني اجتماع أهل المدينة (المدينة جزء من الأمة)

❖ أما المجتمعات الغير كاملة فهي مجتمع القرية والحلة والاجتماع في المنزل ، وهم جميعا لأهل المدينة ، أي أنها كلها تابعة لها.

وقد حقق في هذا الموضوع الدكتور ألبير نصري نادر³

La Cité Idéale (1) أفلاطون : المدينة المثالية = ترجمت الى اللغة الفرنسية بـ :

كتاب يصف فيه الحكيم (الفيلسوف) اليوناني أصول مدينة نموذجية من حيث عمرانها وسكانها

ونظامها وكذلك الأخلاق التي يجب أن يتحلّى بها سكانها.

(2) C.WRIGHT MILLS : L'Imagination Sociologique

Petite Collection Maspéro -Editions François MASPERO -Paris, 1977 - page: 16 §2

« Chaque siècle possède une manière de penser qui constitue la raison commune de sa vie intellectuelle ».

(3) الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة

تحقيق: د. ألبير نصري نادر، الطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ص 96 :

ونستخلص من هذا ، أن رؤية الفارابي للمجال ، رؤية تراتبية :

<u>المجتمعات الكاملة</u>	
1	العظمى
2	والوسطى
3	والصغرى
<u>المجتمعات الغير كاملة</u>	
4	مجتمع القرية والحلة
5	والاجتماع في المنزل

هذا التراتب ، بمعنى التدرج ، الموجود في الكون والمعمورة ولدى الكائنات الحية ، يطابقه ويُماثله تراتب اجتماعي ، يتحدد فيه موقع ووظيفة كل عضو من هذا المجتمع حسب إرادته وملكاته (تصورَ بنية المجتمع عند أصحاب التيار العضوي).⁽¹⁾

ومن هنا تبرز رؤية الفارابي للمدينة كمركز اجتماع بشري مميز . فبعد الملاحظة الدقيقة والقراءة المعمقة لظاهرة التمدن ، راح الفارابي يقترح علينا المدينة الفاضلة التي هي في نظره الاجتماع البشري المميز الذي تتحقق فيه السعادة بالعدالة والحرية والرفاهية .

وبهذا تكون ، « المدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تتناول بها السعادة في الحقيقة هي المدينة الفاضلة ، والاجتماع الذي به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل »⁽²⁾ .

(1) الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة - ص: 100

تحقيق : ألبير نصري نادر - المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان

(2) الفارابي : نفس المصدر - ص : 96

ويخبرنا الفارابي أخيراً، أن هذه المدينة الفاضلة لها مضادات ويعدها⁽¹⁾:

- مدينة الجاهلية - والمدينة الفاسقة - والمدينة الضالة .

❖ أما مدينة الجاهلية ، فأصحابها لا يعرفون السعادة على الإطلاق ، وإنما عرفوا من

الخيرات سلامة الأبدان واليسار والتمتع باللذات ، فقط .

❖ أما المدينة الفاسقة : فهي التي آراؤها مثل آراء المدينة الفاضلة لكن أفعالها أفعال

أهل مدينة الجاهلية .

❖ أما المدينة الضالة : فتصور أهلها في الخالق عز وجل خاطئاً ويعتقد رؤساؤهم

أنه يوحى لهم (أهل فرعون مثلاً لذلك) ، فيعيشون ويموتون في ضلال

2-2 المدينة عند ابن سينا

يعد ابن سينا من عمالقة الإبداع الفكري الفلسفي والعلمي في العصر الوسيط .

وقد أمتد آثار إنجازاته إلى العصر الحديث نظراً للميادين المختلفة التي اقتحمتها والتي

استوعب ما قيل فيها وأضاف إليها إضافات جوهرية من حيث التصور الفلسفي للكون

والفقه ، ومن حيث التطبيقات التي قام بها في ميادين الرياضيات والطبيعيات وغيرها

، وكذلك الطب الذي تعمق فيه دراسة وممارسة .

أما عن تصوره للمدينة ، فقد تجاوز الفارابي في إيجاز الطرح ودقة وصف

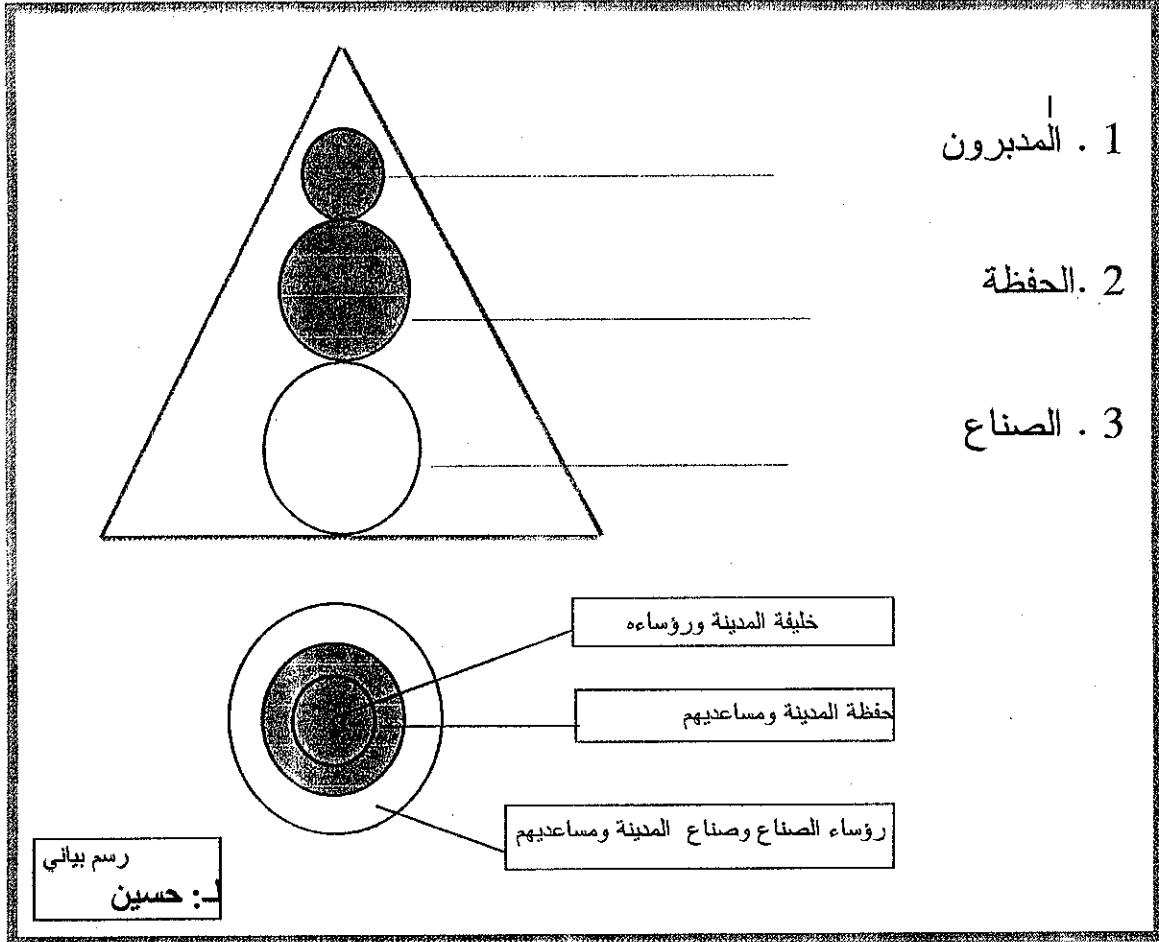
خصائص المدينة التي يجب أن تكون ، والتي يسميها تارة المدينة الفاضلة وتارة

المدينة العادلة ، والتي يفرزها عن المدن الأخرى التي تكلم عنها الفارابي بصفة

خاصة .

(1) الفارابي : نفس المصدر - ص : 110

لهذا ، يرتب ابن سينا المدينة من حيث سكانها ووظائفها إلى ثلاث مراتب وهي: - المدبرون - والحفظة - والصناع .



أما المدبرون الذين هم في قمة الهرم ، فيتكوّنون من الخليفة حاكم المدينة ورؤسائه من كبار المسؤولين ومسيري شؤون المدينة العادلة . ويلهم حفظة المدينة أي المسؤولون أصحاب الدرجة الثانية ، وأخيرا رؤساء الصناع وصناع المدينة الذين يشكلون العامة .

وهذا التدرج في الرتب يطابق تفاوت الناس في قدراتهم العقلية وكفاءاتهم وقواتهم الجسدية وأموالهم (1).

(ابن سينا : كتاب السياسة - ص: 17)

ومن مقومات المدينة العادلة :

○ الأسرة : التي تشكل النواة الأساسية لمجتمع المدينة ، بحيث تضمن النمو السكاني واستمرار المدينة . كما تشكل الأسرة المجتمع المصغر الذي يتسنى للفرد أن يعيش ضمنه ، علماً بأن الإنسان بفطرته لا يمكنه العيش منعزلاً .

○ الزواج : الذي منه تتكون الأسرة وتبنى على أسسه صلة القرابة والتعاقد والتعاون وتتنظم فيه أمور العمل والميراث .

○ العمل : أي النشاط الذي يعود بالفائدة على العمال أنفسهم وعلى سائر سكان المدينة . ولهذا ، لا يسمح في رأي ابن سينا بالبطالة والتعطّل (1) .

○ التعاون : والذي يجب أن تُسن له سنن حتى لا يقهر الضعيف ولا المسكين .

كما يحبذ ابن سينا الاحتفال بالأعياد لأنها في رأيه : « يمكن الانتفاع فيها بدعوة الناس إلى التمسك بالجماعة والتماسك الذي يؤدي إلى إدراك الفضائل » (2) .

2-3 المدينة عند ابن خلدون

يقول العلامة عبد الرحمان ابن خلدون : « إن الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع ، أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم ، وهو معنى العمران ، وبيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ، وهداه إلى التماسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله ، إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته ...

(1) د. نجوى قصاب حسن : نفس المصدر : ص: 44

(2) ابن سينا : الشفاء - تقديم ومراجعة: إبراهيم مذكور

الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة ، 1960 - ص: 451

فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم ، فيحصل بالتعاون قدرة الكفاية من الحاجة الأكثر منهم بأضعاف ، وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه إلى الاستعانة بأبناء جنسه... ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قررناه وتم عمران العالم بهم ، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم ... فيكون ذلك الوازع واحدا منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان و اليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان .» (1).

نستخلص من هذه الفقرة الوجيزة " أن الاجتماع الإنساني ضروري ، لأن الإنسان مدني بالطبع من جهة ، ومن جهة أخرى قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته المادية والمعنوية وعن الدفاع عن نفسه ضد شتى أنواع العدوان والأخطار .

وكلمة الاجتماع بمعنى المدينة عند ابن خلدون هي العمران ؛ ونشير هنا إلى أنه كان رائدا في استعمال مصطلح العمران بمعنى التعمير ، وقد بين أن الاجتماع الإنساني يؤدي وظائف شتى ، نذكر منها خمسة :

- ❖ الوظيفة الاجتماعية : التي تكمن في التجمع البشري المكون للمجتمع المدني .
- ❖ الوظيفة الاقتصادية : بالتعاون لتحصيل القوت وتلبية الحاجات
- ❖ الوظيفة العمرانية : بتشديد المساكن والتجهيزات وطرق المواصلات التي تتطلبها المدينة كجمال حيوي للمجتمع الإنساني .
- ❖ الوظيفة العسكرية : بالتعاون (الاستعانة بأبناء جنسه) للدفاع عن النفس وعن العشيرة (العصبية) (2) . { ... وفصيلته التي تحميه ... } ق.ك. آية: ...
- ❖ الوظيفة الإدارية : المتمثلة في انتخاب وازع (3) (حاكم) ينظم شؤون هذا الاجتماع ويديره.

(1) عبد الرحمان ابن خلدون : مقامة ابن خلدون

دار إحياء التراث العربي - بيروت ، لبنان - ص : 42-43

(2) العصبية : عبد الرحمان ابن خلدون، نفس المصدر، ص: 202

(3) الوازع : نفس المصدر، ص: 151

وقد ميّز بين العمران البدوي والعمران الحضري وانتهى إلى أن :
« الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته والسبب في ذلك أن الناس ما
لم يستوف العمران الحضري وتتمدّن المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش
... فإذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف
الزائد حينئذ إلى الكمالات من المعاش ثم إن الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من
حيث فكره الذي يمتاز به عن الحيوانات » . (1)

ونلمس من هنا أن أهداف الاجتماع ليست ثابتة أو جامدة بل تتطور مع انتشار
وتطور العمران الحضري ، حيث تكثر الصنائع والمهن وتتنقل حاجات المدينة من
الضروري إلى طور الكماليات .

وما زالت المدينة إلى يومنا هذا تشغل عقول المفكرين، من فلاسفة ومهندسين،
من شتى الآفاق والأوطان والانتماءات العرقية والعقائدية وغيرها. (2)
لذا، نجد العيد من البحوث والدراسات الجادة - ودراسات "فلكلورية" تتبنى
أفكاراً، دائماً متجددة، حول ظاهرة المدينة كأساس الاجتماع البشري. تلك الأفكار التي
تتطور وتتجدد مع التطور الشامل للمجتمع الإنساني في جميع مجالاته.
فمنهم من خطط لها برسومات تتحدى الخيال، ومنهم من سن لها مقاييس
ووظائف وهوية، ومنهم من حدد عمرنها ونشاطها وعدد سكانها.
ومن الملاحظين من رأى في ذلك البحث عن السعادة، بتشبيد جنة الفردوس
على سطح الأرض، ومنهم من رأى المدينة، بقوانينها وأنظمتها، عبارة عن سجن
جماعي يقيم فيه الإنسان إلى حين.

(1) عبد الرحمان ابن خلدون : نفس المصدر - الفصل السابع عشر - ص: 400
(2) هناك مؤلفات لا يحصى عددها حول المدينة، سنعطي بعض المراجع الأساسية في الفصل المخصص للمراجع،
لمن أراد التعمق في زاوية معينة من الموضوع. أما، فيما يخصنا، فلقد اقتصرنا في هذه المرحلة من بحثنا على
تقديم ثلاثة مفكرين وعلماء أجلاء أحاطوا " معارفاً " بموضوع المدينة في العصر الوسيط، العصر الذي حددناه
إطاراً زمنياً لدراسة المدينة العربية الإسلامية عامة، ومدينة تلمسان العتيقة (نموذجاً) خاصة. أما التصورات
والآراء الأخرى، فسوف نقدمها في حينها أثناء سير البحث.

3 عن تكوين المدن وتطورها

• تمهيد :

لمعرفة تاريخ مدينة ما ، ومختلف المراحل التي أملت تطورها وحددت مصيرها، يبدو لنا ضروريا معرفة أهم العوامل التي كانت وراء بروزها ومختلف المراحل المورفولوجية التي مرت بها من جهة ، وطرق احتلال واشتغال مجالاتها ، وكذا علاقاتها بمختلف الحضارات التي تعاقبت على هذه المجالات ، من جهة أخرى.

3-1 عن تكوين المدن وتطورها

ليس من السهل التكلم عن تكوين المدن وتطورها كحقيقة معاشة من الداخل وكظاهرة اجتماعية خاضعة للملاحظة والدراسة من الخارج ، لأن هذه الرؤية الثنائية تستدعي آنيا الإحساس الشخصي للباحث والصرامة العلمية التي يجب أن ينطوي تحتها، والتي غالبا ما تقوده حتما إلى نتائج خارجة عن تصوراته المألوفة.

ومن جهة أخرى ، فإن العناصر التي كوّنت المدينة في الماضي ، ليست من الضروري أن تكون نفس العناصر التي تكوّن المدينة اليوم ، والذي كونها هنا ليس من الضروري أن يكونها هناك .

لذا ، يكون الثنائي " زمن - مكان ¹) حاضرا دائما في جميع التحليلات التي تقام على هذا النوع من الدراسات .

وهذا يؤدي بنا للقول أن لكل مدينة تاريخها الخاص وأن الإطار المشيد الذي يشكلها مرتبط بظروف وشروط خاصة به .

(¹) ANUCHIN V.A. : Theory of Geography, in Richard J. CHORLEY Editions- Directions in Geography, Methuen, London, 1973; pp:43-63

SANTOS Milton: Pour une Géographie Nouvelle, OPU-Alger/Publisud -Paris, 1984 ; p :116

الثنائي زمن مكان : Couple Espace-Temps

أما فيما يخصنا ، في هذه المرحلة من الدراسة، فسننتظر، فيما يلي، إلى ذكر وجيز للعوامل الأساسية التي كانت ولا زالت وراء نشأة المدن وكيفية تطورها عبر الزمن والمراحل المورفولوجية التي مرت بها .

3-1-1 عوامل ظهور المدن

يلاحظ أن دراسة وتحليل الظاهرة العمرانية وتاريخ المدن تبين أن وراء ظهور أي مدينة ، هناك عوامل سهلت وأدت إلى نشأة وتطور المدن¹ ، نذكر من بينها :

❖ العوامل الطبيعية والفيزيائية

❖ العوامل التاريخية

❖ العوامل السياسية والاقتصادية

❖ العوامل الاجتماعية والثقافية

❖ العوامل العلمية والتقنية

إذا أخذنا العوامل الطبيعية على سبيل المثال نعلم أن تدفق الثروة المائية ، وخصوبة الأراضي ، والمناخ الملائم تلعب دورا أساسيا في اختيار المنطقة لأجل تأسيس المجمع السكني الذي يتطور إلى بلدة أو مدينة .

أما العوامل السياسية والاقتصادية بإمكانها تحديد حجمها وهويتها . ومن بين العوامل الاجتماعية والثقافية ، يمكن للعامل الديني أن يهيكل المجال الحيوي للمدينة حيث تحتل المنجزات ذات الطابع الديني المجالات المركزية والإستراتيجية في المدينة⁽²⁾ .

أما العوامل العلمية والتقنية ، فإنها سوف تحدد مناهج البناء والأساليب والمواد الواجب استعمالها ؛ وبهذا ستكون المدينة مرآة عاكسة للمستوى التكنولوجي للمجتمع

⁽¹⁾ (Jean PELLETIER et Charles DELFANTE : « Villes et Urbanisme dans le Monde »

Collection I.E.G., Editions Masson, Paris, p : 119 .

⁽²⁾ même source, page : 121 - الخ- والفاتكان ... الخ- 121

الذي أنجز هذه الأخيرة (جزئيا أو كليا) ، كما تدلنا على نمط معيشة أعضاء هذا المجتمع (1).

للإشارة ، إن هذه العوامل لا تعمل منعزلة عن بعضها البعض ، بل هي متفاعلة في مختلف مستويات إشتغالها.

ومن الممكن جدا أن تنقرض العوامل التي كانت وراء نشأة مدينة ما ، أو تنقص من حدتها ، تاركة المجال لعوامل أخرى ، جديدة .

فعلى سبيل المثال ، من الممكن أن نتعرف مدينة ذات الطابع الفلاحي الى مدينة صناعية ؛ وهنا ، تظهر عوامل جديدة بجانب - أو على أنقاض - العوامل القديمة .

3-1-2 مراحل تطور المدن

فيما يخص تطور المدن ، كل مدينة تبني تاريخها الخاص وتتبع مسارها الخاص ؛ لكن القاسم المشترك بينها هو أن كل واحدة منها تمر بمرحلة الإزدياد والكهولة والشيخوخة قبل أن تنقرض وتصبح ذكرى أو أسطورة ككل شيء ومخلوق على سطح الأرض.

لهذا ، غالبا ما يتحول ويتطور حي أو قلعة إلى قرية ، ثم بلدة (2) وأخيرا إلى مدينة ، التي تتميز بمستوى عال من الكفاءة ، وباستقلالية نسبية أو كلية (3) كما تفرض نفسها على المستويات الاقتصادية والسياسية والثقافية وتنتشر إشعاعها وسلطانها على أقاليم شاسعة.

وحتى في مراحل الأزمات تبقى المدينة المركز الرئيسي الذي يحاول التغلب على هذه الأزمات ، أو على الأقل الحد من تأثيراتها السلبية.

(1) Paul VIEILLE : l'Espace Global du Capitalisme d'Organisation, in revue « Espaces et Sociétés », n°12 , Mai 1974, Editions Anthropos, Paris V, pp : 3-32

(2) حي = Bourg - قرية = Village - بلدة = Petite Ville - مدينة = Ville, Cité

(3) تكون المدينة مستقلة كالمدين الفينيقية ، أو كالمدين-العواصم ، مثل مدينة قرطاجة في العصر القديم، كما سوف نراه لاحقا.

يفيدنا الدكتور **خالص الأشعب** ⁽¹⁾ بأن لا بد لكل مجمع سكني ريفي أو حضري ، قبل أن يصبح " مدينة " ، أن يمرَ بمراحل تدعى " المراحل المرفولوجية "؛ عددها والوقت الذي تستغرقه كل منها يختلف من مدينة إلى أخرى حسب الظروف الخاصة لكل منها . لكن يمكننا ، بصفة خاصة ، تقسيمها إلى أربعة مراحل :

• مرحلة التكوين (النشأة)

• مرحلة النمو

• مرحلة النضج (أو الكهولة)

• المرحلة النهائية

❖ مرحلة التكوين (النشأة) :

نظرا للعوامل المذكورة أعلاه ، غالبا ما يظهر ويتطور مجمع سكني حول إنجاز معماري أو عنصر عمراني مميز : قلعة ، قصر ، رباط ، معبد ، مسجد... إلخ ؛ العنصر الذي يشكل النواة الأساسية في تشييد المجمع الريفي أو الحضري.

التوسع العمراني لهذا المجمع السكاني بوظائفه الاجتماعية والإدارية البسيطة ، يوصله إلى مرتبة " المجال المركزي " بمعنى النقطة المركزية ⁽²⁾ تخدم إقليما صغيرا بحجم بلدية صغيرة من شمال الجزائر .

(1) الدكتور خالص الأشعب [] : المدينة العربية

معهد البحوث والدراسات العربية ، بغداد - مؤسسة الخليج للطبع والتوزيع ، الكويت.

(2) النقطة المركزية مترجمة من المصطلح الإنجليزي : Central Place ، والذي استعمله الباحث الأمريكي

Lewis MUMFORD : la Cité à travers l'Histoire, Editions du Seuil, Paris, 1961 لويس ممفورد

❖ مرحلة النمو:

النمو السكاني وتعدد الحاجات وتنوع الطلب الاجتماعي يملون توسيعاً فيزيقياً للقرية ، بكثافة سكانية أكبر، وانتشار أكبر للمحيط العمراني كذلك ، وبهذا تنتقل من مرتبة قرية صغيرة إلى قرية كبيرة.

ومن هنا ، تبدأ المدينة في جذب العديد من سكان المناطق المجاورة لها والذين يصلون إليها وفوداً ، بحثاً عن العمل وكذلك عن المستوى الترفيهي للمعيشة والأمن الذي توفره المدينة بتطور وتقوية وسائلها الدفاعية.

وموازاة لهذا ، عندما تصل المؤسسات الإدارية والاقتصادية وغيرها إلى مستوى يسمح بتنظيم وتنسيق النشاطات الاقتصادية والحياة الاجتماعية والثقافية ، يمكننا أن نعتبر أن هذا المجمع السكاني قد وصل إلى رتبة "مدينة صغيرة" (Town).

❖ مرحلة النضج:

في هذا المستوى من تطورها ، تنتقل المدينة الصغيرة إلى مرتبة "مدينة متوسطة" باستقلالية نسبية عن المدن الأخرى المجاورة.

ثم إن الانتشار العمراني وطول المسافات بين أجزاء المدينة والنمو الشامل للسكان (الازدياد السكاني + النزوح الريفي...) الذي يعود - نتيجة التشكيلة العرقية والجغرافية - غير متجانس ، ستؤدي إلى تغيير علاقات "الجورة" والقرابة إلى علاقات غير شخصية ، مادية وفعلية.

العلاقات بين الجماعات والمؤسسات تزيد (تزداد) تعقداً ، ولكن كذلك تزيد فعالية ونجاعة.

وهذا يمكن المدينة من نشر سلطانها على الأقاليم المجاورة بكفاءة فائقة في تسييرها ، كما سوف تخصص في نشاطات ثقافية واقتصادية متنوعة ترتبط باسمها .

ويمكننا القول أن عند هذا المستوى من التطور الذي تتملك فيه المدينة بمختلف وسائلها المالية والاقتصادية والثقافية تصبح تعدد من كبريات المدن .

❖ المرحلة النهائية:

المدينة الكبرى « Mégalopolis » تصل في هذه المرحلة إلى أوج سلطانها باحتلال فاحش للأرض ، وتعدد الوظائف ، ومراقبة إدارية ومالية محكمة على أقاليم شاسعة.

في غالب الأحيان تكون هذه المدينة مركزا للسلطة السياسية (عاصمة سياسية للبلاد) أو مركزا ماليا واقتصاديا (عاصمة اقتصادية). كما تكون المكان المرموق لاستقطاب وإنتاج وانتشار الثقافة.

ونضيف أخيرا أن كل مرحلة لا تمر دون أن تتطور وتتغير مورفولوجية المدينة كـ مجال فيزيقي بصورة ووجه يتغيران بدون انقطاع ؛ وهذا يظهر خاصة على مستوى الطرقات ، وتمركز وحجم الإنجازات ، وتوزيع الأحياء السكنية وأنماطها العمرانية.

هذا، والغرض من الإشارة إلى هذه المراحل، يكمن في التعرف على التطورات المحتملة لمدينة مثالية . وقد تحدث حالات استثنائية مخالفة لهذا النمط حيث أن بعض المدن أسست، أحيانا، لتكون من الأول عواصم سياسية لمملكات أو إمارات ناتجة عن إرادة الحاكم ، مثل مدينة " روما " في العصر القديم ، " وبرازيليا " في العصر الحديث .

وفي هذه الحالة لا فائدة من فحص المدينة بهذه المراحل لأنها تنشأ وتترعرع بجميع وظائفها.

• الخاتمة:

المرحلة النهائية ليست هي الحالة النهائية في تكوين وتطور المدن بل هي حالة النضج الذي يمكن أن تتجر عنه تغيرات أخرى حسب معطيات الزمان والمكان ، ونذكر على سبيل المثال الالتصاق العمراني « la Conurbation » المتمثل في ترابط المدن والمراكز العمرانية فيما بينها، مشكلة بهذا شبكة متصلة من المدن .

وتدعى كذلك هذه الشبكة العمرانية في أوج انتشارها بـ: الميغالوبوليس « Mégalopolis » التي تتميز بتأدية الوظائف المركبة ذات الكفاءة العالية.

أما المنطقة العمرانية « la Région Urbaine » فهي تتكون من مجموعة من المدن الثانوية ومدينة رئيسية ، مشكلة نظاما أو جهازا عمرانيا « le Système Urbain » متجانس العناصر ومميزا بتوازن الوظائف العمرانية وغيرها. وتلعب المنطقة العمرانية الدور الإستراتيجي في توجيه وتنمية اقتصاد بلدها.

الفصل الثالث :

عن نشأة مدينة تلمسان " بوماريا"
ومكانتها ضمن الشبكة العمرانية الجزائرية قديما

❖ المرحلة الفينيقية

❖ المرحلة الرومانية

❖ بعض مميزات العمران الروماني ودلالاته

❖ بوماريا " المدينة الرومانية"

الفصل الثالث : العصر القديم

عن نشأة مدينة تلمسان ومكانتها ضمن الشبكة العمرانية الجزائرية قديما

إذا كان مفهوم " المدينة " في الجزائر مرتبطا، في ظهوره، بالمرحلة الفينيقية، فإن ترابط المراكز الحضرية فيما بينها ضمن شبكة إقليمية مكتملة العناصر، يعود إلى العهد الروماني {1}.

1. المرحلة الفينيقية

السؤال الذي يمكن طرحه في هذه الفترة هو كالتالي :

هل المدن الساحلية الفينيقية أو "المنشآت التجارية الفينيقية" (2) كانت مستقلة ذاتيا و غير مرتبطة بعضها البعض، أم أنها كانت على العكس من هذا مرتبطة فيما بينها، مشكلة مجموعة مدن عاملة و موظفة تحت تأثير "مدينة- أم" تلعب دور مدينة - عاصمة ؟ (3)

لمحاولة الإجابة عن هذا السؤال، إنعكفنا على دراسة و تحليل كتابات بعض

المؤلفين المختصين {4}

وقد تبين لنا من خلال قراءتنا أن الفينيقيين أسسوا دوما اقتصادهم،

(1) P. SALAMA : Les voies romaines en Afrique du Nord, Alger, 1951 ; pp : 42-43

محمد البشير شنيبي : التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني

المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984 - ص: 60-61

(2) متاجر، أو محلات، وساطة تنوب عن مؤسسها في العلاقات التجارية مع الزبائن. هذه المحلات تتمركز في المناطق

كما هي نقاط للراحة وإصلاح السفن. الساحلية الإستراتيجية.

Cf : Charles André JUILEN : Histoire de l'Afrique du Nord, 2° Edition, Paris, 1951.

(3) نشير هنا إلى مدينة قرطاجة

(4) Mhamed FANTAR et François DECRET : l'Histoire de l'Afrique du Nord, des Origines au 6° Siècle, Editions Payot, Paris

❖ Charles André JULIEN : Histoire de l'Afrique du Nord, 2° Edition, Paris, 1951

❖ Yves LACOSTE, André Nouschi, André PRENANT : Algérie, Passé et Présent, OPU-Alger (trad : Moncef ACHOUR et Rabah STAMBOULI).

❖ مبارك بن محمد المليي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث - الجزء الأول

المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989،

وبالتالي حضارتهم اعتمادا على التجارة (بيع، شراء و مقايضة). هذه التجارة المزدهرة نمت وترعرعت بفضل وجود عوامة (أسطول) قوية كانت متواجدة آنذاك في البحر الأبيض المتوسط ، خصوصا الجهة الغربية منها {1}.

هذه التجارة ذات العلاقة الوطيدة بالبحر، أوجبت تواجد منشآت تجارية ساحلية من أجل التكامل مع الأهالي الأصليين، و معالجة أمورهم اليومية بعين المكان.

كرم وحفاوة سكان سواحل إفريقيا الشمالية عامة، والجزائر خاصة، ساعدت على مضاعفة وتنمية حجم ونوعية المبادلات التجارية والتفاعل الثقافي .
ويلاحظ أن التعرف التدريجي على سكان إفريقيا الشمالية و تطوير شبكة تبادل جد قوية ساعدا على المرور من إقامة مؤقتة إلى إقامة دائمة، تمت بتأسيس مدن.
بصفة عامة، مر التواجد الفينيقي بالجزائر بثلاث مراحل (هذا ينطبق على جل دول إفريقيا الشمالية) .

1.1 المنشآت الفينيقية:

تعتبر المنشآت التجارية الفينيقية نقطة الانطلاق التي مكنت من الاتصال مع سكان الجزائر. هذا الاتصال التجاري ذو الفائدة المتبادلة و المسالمة كانت بمثابة امتحان خصّ به الفينيقيون أهالي الجزائر و الذي دام بين ثلاثة أو أربعة قرون، هذا الامتحان الذي انتهى بنسج علاقات وطيده مع الأهالي (2) .

هذا التأسيس البشري الذي سبق القرن الثامن قبل الميلاد والذي تميز بانتشار مباني خفيفة بالخشب والقصب يبرهن على النظرة المؤقتة لشغل الفضاءات الاقتصادية. المكفون بالمهام و المسيرون الفينيقيون، حافظوا على منازلهم الفخمة في بلدهم الأمّ، بينما كانوا يتمركزون مؤقتا، حسب التدفق التجاري، في هذه المساكن الخفيفة ومخازن السلع. و لا نظنّ أنه من الدّاعي إذ كانت هناك قاعدة حياة وقوة مسلحة للمحافظة و حماية الأشخاص و الأملاك ضدّ أيّ غزو طارئ.

{1} مبارك بن محمد الملي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث.. الجزء الأول

المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، طبع بدار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص: 128

(2) Mhamed FANTAR et François DECRET : l'Histoire de l'Afrique du Nord, des Origines au 6° Siècle, Editions PAYOT, Paris – page 45.

سجلت نهاية القرن الثامن قبل الميلاد مرحلة ثانية في تطور المنشآت التجارية حيث أن الفينيقيين المضطهدين من طرف جيرانهم الآشوريين، نزحوا بأعداد هائلة نحو سواحل شمال إفريقيا حيث تتوفر شروط العيش الكريم والأمان، و قد ساعد هذا على ظهور نمط استيطان جديد ، بمعنى الكلمة ، للمنشآت التجارية. فهاجرت بذلك عائلات بأملها ومعارفها وأقاموا مدنا ب مواد صلبة كالحجارة، تواجدت بها المنازل العائلية و البنايات العامة، كالتجهيزات و المنشآت، وما يشهد على مدى تميز هذا التواجد الفينيقي هو المقابر الكبيرة والأضرحة المأتمية و أساليبهم المعمارية المميزة، وبقايا بعض مخطوطاتهم المعمارية. ومن المدن الفينيقية بالساحل الجزائري " هبون (بونة، عنابة)، روسفاد(سكيكدة)، تسولو(القل)، إججلي(جيجل)، صلداي(بجاية)...إقوسيوم(الجزائر)، تباسا بول(شرشال)، صيغة(أرشقول)، ومن المدن الداخلية الشرقية: تاغست(سوق اهراس)... تيفست(تبسة) {¹}.

وقد تطورت هذه المدن بطريقة تطفلية على شكل جزيرة مكونة مدينة- دولة (Ville-état) بدون إقليم معين جغرافيا. كان سلطانها نادرا ما يتجاوز أسوار المدينة إلى الأحواز المجاورة. وللإحاطة أكثر بهذه المدينة-الدولة (Ville-état)، سنأخذ على سبيل المثال مدينة قرطاجة.

1.3 المدن الأعضاء التابعة لقرطاجة:

أصلح مثال يمكن الاعتماد عليه لتبيين مدى تنظيم هذه المدن هي مدينة قرطاجة التي كانت تملك أسطولا تجاريا بالتوازي، مع تأليف جيش قوي مسلح للدفاع عن السكان وأملاكهم سواء داخل المدينة أو خارجها.

{¹} مبارك بن محمد الميلي، نفس المصدر - ص: 134

على غرار قرطاجة ، لكن بإمكانيات محدودة ، تطورت مدن أخرى ؛ هذا التطور يعود أساسا إلى ترحيل محتشد لسكان السواحل السورية - الفلسطينية في اتجاه السواحل الإفريقية الشمالية.

هجرة هؤلاء السكان وإقامة مستوطناتهم ، سجلت مرحلة جديدة للوجود الفينيقي بالجزائر. بعد الحصول على بقعة أرض ، فإن كل مدينة اهتمت بتأسيس منظمات سياسية و إدارية و التزويد بإمكانيات دفاعية وحرية.

من خلال قراءتنا (1) لقد تبين لنا أن هذه المدن (Ville- Etat) ، كانت نقيم فيما بينها علاقات وطيدة ، وطبيعة هذه الأخيرة كانت تتأثر بأجواء ظرفية (أزمة أو ازدهار) . لكن من المؤكد أنّ هذه المدن الفينيقية ، لم تكن تربطها فقط علاقات اقتصادية وتجارية ، بل الأهم من هذا كله أنها كانت تشعر بانتمائها التاريخي والجغرافي و الاثنولوجي إلى فينقيا (Phénicie).

وعلى هذا الأساس ، مهما تأزمت العلاقات ، فإنها كانت دائمة الحضور. هذا ما أدّى إلى تكوين دويلات تابعة لقرطاجة (تونس).

وبالتالي ، فإن هذه المدن كانت تابعة لقرطاجة في علاقاتها الخارجية مع دول أو أمم مختلفة ، حيث أنّ قرطاجة هي التي كانت تبرم المعاهدات؛ هذا لا يمنع من أن تكون لهذه المدن حرية التصرف في شؤونها الداخلية. فمثلا حين تدهور الوضع الداخلي لمدينة ما من هذه المدن أو وقوع غارة عدوّ، فإن المدينة وحدها كانت تتحمل مسؤولية الدفاع و الحماية و إعادة الأمن (2).

هذا الاتجاه الدولي (اتحاد المدن) لم يكن مملكة بمعنى الكلمة، أي إقليما واسعا معلوم الحدود الجغرافية ، بل كان مجرد أجزاء بسيطة حيث أقيمت المدن. (3)

(1) : المراجع التي سلف ذكرها

² Mhamed FANTAR et François DECRET : même source ; p : 51 et suivantes

(3) : نفس المصدر

لكن في الحقيقة هذا التبعض الإقليمي لم يؤثر كثيرا في بادئ الأمر على حكم الفينيقيين لأنهم يسيرون الشعوب (ذا الأصل الفينيقي بالأخص) دون الاهتمام البالغ بالجغرافية المتحركة ، الزائفة ، حسب مصالحهم الراهنة ضمن الإقليم الأم والأقاليم التي يقطنون بها. ومما سبق ذكره ، يمكننا طرح فرضية ، أنه من وجهة نظر المردودية والفعالية الاقتصادية، كان من الأفضل إنشاء مدينة مزدهرة تجاريا تلعب دور النواة أو دور التبادل الاقتصادي؛ بدلا من تسيير إقليم حيث تتواجد المشاكل المتعددة و المختلفة. ومن المنطقي أن حماية مدينة أسهل بكثير من حماية مملكة ، بكل تناقضاتها الداخلية والخارجية. من جهة أخرى، عندما تتدهور مدينة ما ، يمكن بسهولة التخلي عنها وإنشاء مدينة أخرى في مكان آخر.

لا ننسى أيضا أن كل تبادل مثمر يستلزم و يقتضي وضعية سلام مع الجيران من جانب، ومن جانب آخر فإنه يملئ أسلوبا أو نموذج عيش حضري ومدني ، يتسم بإقامة دائمة وثابتة (Sédentaire et citadin) ⁽¹⁾.

هذا يؤدي بنا إلى صياغة مفهوم " إشغال المجال النافع إقتصاديا " . يمكننا هذا المفهوم من تفسير طريقة أو شكل إشغال المجال الفيزيائي عند الفينيقيين ونظرتهم الشاملة نحوه.

يفيدنا في هذا الموضوع، مبارك بن محمد الميلي بما يلي : " ... ولذلك لم تملك منه(المغرب) غير السواحل اللازمة لحياة بحريتها. وأسست بها مدنا لترويج بضائعها مع الأهالي. وأقامت حيناً من الدهر جارة للبربر تستخدمهم في مدنها بأجور يرضونها. وتسنأف أمراءهم بالأموال خوفا من غاراتهم " ⁽²⁾.

وقد حاولت أبحاث السنوات الأخيرة التي قامت بها جامعات أمريكية وكندية خاصة، دراسة المجتمعات الإنسانية ليس فقط اعتمادا على مستوياتهم التكنولوجية والاقتصادية التي

(1) : أقصد أسلوب عيش مدني يتميز بثبات السكن و المنشآت و الخدمات

(2) مبارك بن محمد الميلي: نفس المصدر، ص:133و 134

توصلوا إليها والنشاطات التي يمارسونها، بل اهتموا على وجه الخصوص بعلاقة المجتمعات بأرضهم (1) يعني صلتهم بإقليمهم الجغرافي المحدد.

أخيرا ، للإجابة عن سؤال شبكة المدن الفينيقية نستطيع الآن اعتمادا على العناصر التي قدمناها سابقا، تأكيد وجود علاقات بين هذه المدن وقرطاجة ، لكن هذه الشبكة لم تكن مجسدة ، لأنها لم تحتو على شبكة طرق ولا على حدود إقليمية ، بل اعتمدت على تدفق المبادلات التجارية والثقافية والمعلومات والصلات الروحية بقرطاجة ، هاته الأخيرة التي شرّعت كعاصمة للفينيقيين.

هذه العلاقة كانت جدّ متأثرة بظروف زمنية ، فقد نجدها في بعض الأحيان في أوجّ ازدهارها ، بينما في أوقات أخرى ، تكون عكس ذلك وتصل إلى درجة شبه انعدامها. أما بالنسبة لتلمسان، كنموذج لدراستنا، فإن المنطقة التي تشغلها تلمسان حاليا يلمح إلى وجودها قبل فترة الفينيقيين (2) لكن افتقدنا آثار مادية و معطيات كافية (مكتوبات، مخطوطات مدنية، آثار...الخ) لا يؤهلنا للقول أن مدينة تلمسان كانت من ضمن المدن الفينيقية. لكن ملاحظة شبكة مواصلات (سيقا- بوماريا) والواقع الجغرافي الإستراتيجي لتلمسان يؤدي بنا إلى أن نفترض أنها كانت على الأقل محتكة بالمدن الفينيقية (3). وما مغارات لالة ستي وبني بوبلان ووجود آثار الإنسان البدائي بالمنطقة إلا أدلة إضافية تدعم اقوالنا.

يصرّ المؤرخ محمد بن عمرو التمار(4) على القول بأنه من غير الممكن أن تكون مدينة تلمسان منعدمة الوجود في هذه المرحلة التاريخية ، التي عرفت تحركات وإقامات بشرية كثيرة ، نظرا لأهمية هذا الموقع إستراتيجيا ومناخيا وطبيعيًا .

(1) Milton SANTOS : Pour une Géographie Nouvelle,
OPU-Alger/Publisud-France, 1984, 188 pages ; p :152

(2) Louis ABADIE : Tlemcen au "Passé retrouvé"
Editions jacques GANDINI, CALVISSON, 1994 ; p :7

(3)P.U.D.- M.H.T. Tlemcen.- Phase I - Tlemcen, 1972

(4) :محمد بن عمرو التمار : تلمسن عبر العصور - ص :8-9

2. المرحلة الرومانية

إن الوجود الروماني بإفريقيا الشمالية يسجل ضمن منطق التوسع الإقليمي للإمبراطورية الرومانية.

2.1 الرؤية الهندسية للمجال (1)

لقد تجاوز الرومان رؤية احتلال "المجال النافع اقتصاديا" التي تكلمنا عنها أثناء تواجد الفينيقيين بشمال إفريقيا , لأنّ التدخل الروماني كان عسكريا , تعسفا يرمي إلى ضم الأقاليم تحت لواء روما , عاصمة الإمبراطورية الرومانية , قصد مراقبتها وإخضاعها و نهب خيرتها لصالح السلطة المركزية .

ولهذا كانت الرؤية للأقاليم المكتسبة أو المغتصبة، رؤية هندسية، نتج عنها تحديد مجالات معينة وتربيعها (2) من أجل إنجاز شبكة عمرانية (armature Urbaine) متمسكة العناصر وربطها بنقاط العبور والمواصلات المؤدية إلى المراكز الرئيسية للإمبراطورية.

والهدف من هذه العملية كان يرمي إلى تأسيس نقاط عسكرية ومدنية إستراتيجية تؤدي الوظائف العسكرية والاقتصادية المتمثلة في مراقبة الأقاليم عسكريا من جهة، وتأمين وتسهيل طرق المواصلات ونقل البضائع المختلفة من جهة أخرى.

ويروي الدكتور عبد القادر جغلون أن إقامة بروج المراقبة في الأماكن الإستراتيجية والدفاعية وفي ملتقى المسارات الحيوية، وتأسيس المدن والمراكز الحضرية والريفية بمقربة

1975 عالج 122، معهد علم الاجتماع، جامعة وهران، - (1) محمد رمعون: تاريخ الجزائر السوسولوجي

La Vision géométrique de l'espace الرؤية الهندسية للمجال :

محمد البشير شنياتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني (2)
59 المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص:

Délimitation et Quadrillage de l'espace considéré = تحديد و تربيع =

من المناطق الآهلة بالسكان والأراضي الخصبة ونقاط المياه, هي التي قادت إلى انتخاب وشق الطرقات لربط هذه الوحدات العمرانية فيما بينها (يظهر هذا جليا في خريطة موريطانيا القيصرية).

وقد اعتمد الرومان على أسرى الحرب و العبيد وعلى الضرائب من سكان الريف و المدن , لإنجاز هذه الشبكة الهامة, التي لا زالت رواسبها قائمة إلى يومنا هذا, خاصة في الشطر الشمالي للجزائر (1) .

و بهذا, خلافا عن الرؤية الإنتفاعية, المبنية على التبادل التجاري الحر والمقايضة التي لوحظت عند الفينيقيين, بتعاملهم الإيجابي و السلمي مع سكان شمال إفريقيا عامة, و سكان المغرب الأوسط خاصة فإن الرومان كرسوا الجهود في الاستيلاء على أرض المغرب بالعنف والتعاشيش المفروض بالقوة المتمثلة في قمع الانتفاضات الشعبية و المراقبة الصارمة و فرض الضرائب الثقيلة(2).

إذن, لتحقيق الهيمنة على الأقاليم ' فإنه كان ' لا بد للرومان من اتخاذ رؤية هندسية للمجال.

وهذه الرؤية على مستوى الأقاليم الشاسعة نجدها مجسدة كذلك في تخطيط المدن كما سوف نراه عند تطرقنا إلى مميزات العمران الروماني.

(1) الدكتور عبد القادر جغلول: مقياس علم الاجتماع العام (علاج 101)

-معهد علم الاجتماع جامعة وهران

سنة 1974 -

(2) Charles André JULIEN : Histoire de l'Afrique du Nord

- 2° Edition, tome 1 ; pp : 220 à 232

3.1 المدينة الرومانية بنية ووظيفة :

تقوم المدينة الرومانية على رؤية جاهزة للمجال العمراني و لهذا لم تكن المدينة عبارة عن مجموعة من مساكن و عمارات ملتصقة ببعضها البعض حسب أهواء التوطن البشري (Implantation humaine) ولكن وحدة عمرانية مسطرة حسب مخطط نموذجي ومبادئ عامة ثابتة (1) .

ومن المؤكد أن هذا التفكير العمراني مستوحى من نظريات سبق إسقاطها ميدانيا عند اليونان (2) .

وقد أدى التقارب المكاني والزمني بين الحضارتين اليونانية والرومانية بفعل الانتشار و الاحتكاك وعمليات التأثير والتأثر إلى إفراس تشابه مورفولوجي و تكامل في الأنماط المعمارية بين المدينة اليونانية و المدينة الرومانية.

تتجلى المدينة الرومانية على شكل مربع كامل بقسمة نهجان محوران (Voies Axiales) : الكاردوا (Le CARDO) و الديكومانيس (Le DECUMANUS) والمشكلان عند تلاقيها حرف "T" اللاتيني في مركز المربع حيث تهيء ساحة شاسعة مستطيلة الشكل (LE FORUM) . ' محاطة بالمسبح أو المدرج (Amphitheatre) والمعبد (LE TEMPLE) و مركز السلطة. كما نلاحظ أنهج ثانوية مسطرة بالتوازي مع النهجين الرئيسيين تقسم النسيج العمراني إلى جزر مربعة منتظمة مخصصة للسكن و بعض المنشآت الثانوية (3) .

و بهذا تكون المدينة الرومانية وحدة عمرانية مبنية على أساس "نظام تراتبي"

(1) Houcine RAHOUI : quelques caractéristiques de l'urbanisme romain

in : Revue Forum 95, n°1, Janv.95, CERU-URBAT, Tlemcen ; pp : 3 à 7.

❖ v طالع كذلك المدينة الفضلة عند أفلاطون

(2) Gilbert PICARD : Empire Romain, Coll : Architecture Universelle, Paris-Rome ; p : 11

(3) مبارك بن محمد المليي: نفس المصدر، ص: 276-277.

(Ordre Hiérarchique) يمليه تمركز وحجم وتوزيع المنشآت والطرق الرئيسية والمباني والأنهج الثانوية المحاطة بالسور الواقية من العالم الخارجي. وتشكل هذه العناصر المكونة (Eléments Composants) بتمفصلها بنية مستقلة بالنسبة للعالم الخارجي - تؤدي مختلف الوظائف المناطة بها (سياسية - اقتصادية - اجتماعية - ثقافية...).

و ننتقل الآن إلى تقديم العناصر الأساسية المكونة للمجال العمراني للمدينة.

العناصر المكونة للمدينة

1- الطرق الرئيسية وعددها اثنان :

❖ الديكومانيس : (LE DECUMANUS) : البالغ من العرض اثني عشر مترا (

12م) والموجه على محور شرق - غرب.

إن اختيار هذا الاتجاه لم يأت بالصدفة بل هو مدروس بدقة إذ يسمح بالاستبشار بالأشعة الشمسية عند الشروق وبتوديعها عند الغروب.

زيادة عن هذا الامتياز فإن هذا الطريق يعتبر المنفذ الرئيسي والرسمي⁽¹⁾ للمدينة لكونه يشهد توافد المواكب الرسمية من حكام البلاد والوفود الأجنبية. كما هو مخصص للاستعراضات العسكرية والأحداث الهامة. وهو كذلك أحد الطرق المحورية النشيطة للمدينة.

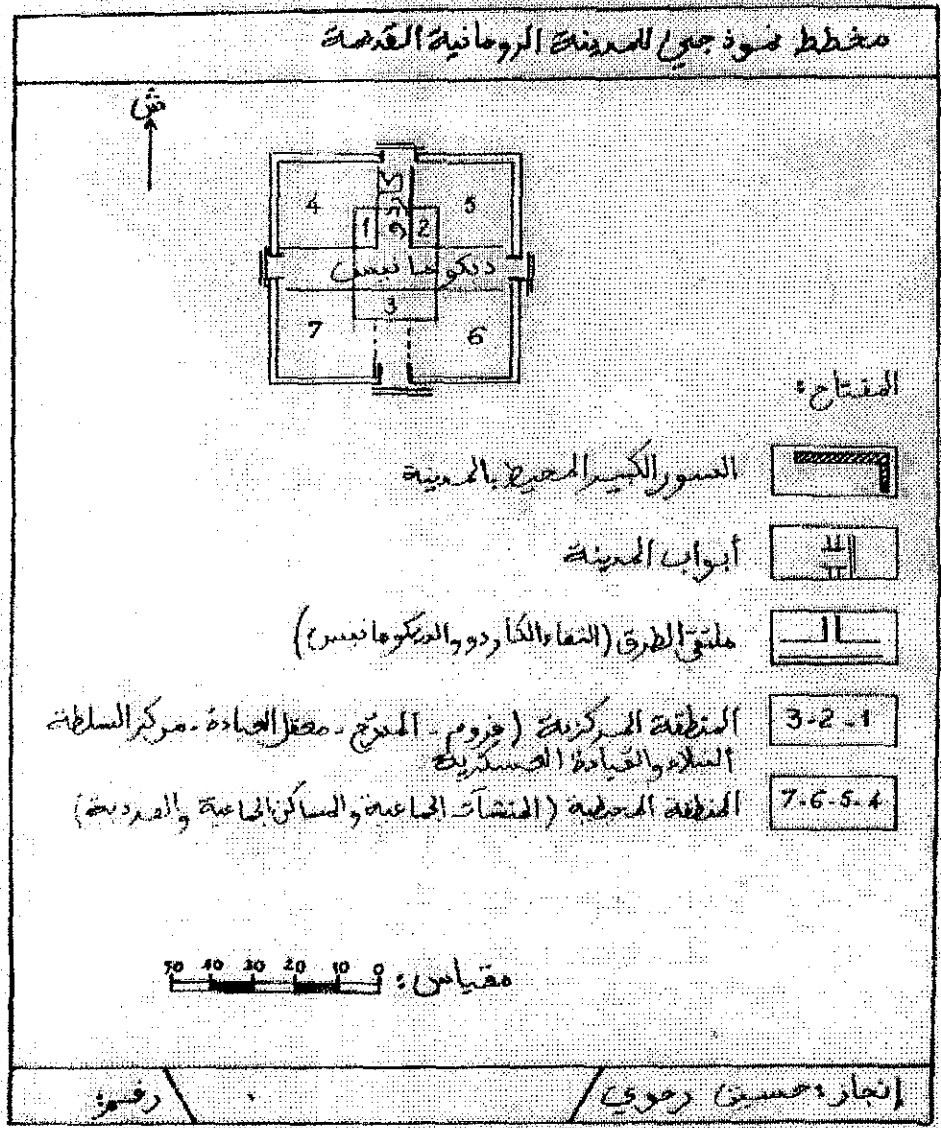
❖ الكاردو (Le CARDO) : البالغ من العرض ستة أمتار (6م)، و الموجه على محور

"شمال - جنوب"، يستقبل الشمس مباشرة عند الظهيرة، مناوبا بذلك الطريق السالف الذكر.

فهو يبدأ مساره من سور المدينة الشمالي - حيث يوجد منفذ ثانوي - و ينتهي في مركز المدينة عند التقائه بالديكومانيس، مؤديا مباشرة إلى الساحة العمومية الرئيسية (Le FORUM). و يعرف هذا الطريق - هو كذلك - توافدا كبيرا للمقيمين بالمدينة والأجانب (مسافرين - زوار - تجار... الخ).

⁽¹⁾ و يدعى كذلك " طريق الانتصار أو طريق الفتح La voie triomphale de la cité " :

إن هذين الطريقتين يكتسبان طابعا إستراتيجيا نظرا لموقعهما المرموق وللوظائف المناطة بها (توافد المارة - مرور الآلات الشاحنة و الحربية، و العربات، والحيوانات...الخ).



2- الطرق الثانوية : عددها غير محدد، لأنه مرتبط بحجم المدينة و وظيفتها الرئيسية، هذه الطرق مسطرة بتوازي مع بعضها البعض و مع الطريقتين الرئيسيتين و

متقاطعة عموديا و أفقيا مع بعضها، مفرزة جزيرات مربعة (أو مستطيلة) الشكل، في نظام يعطي للنسيج العمراني " بنية شطرنجية " (1) .

تحتوي هذه الجزيرات البناءات السكنية الفردية و الجماعية و باقي المنشآت الثانوية.

3- الساحة العمومية (Le FORUM) :

هي ساحة شاسعة المساحة، تحتل النقطة المركزية للمدينة و تستقطب التوافد الغير المنقطع للتجمعات البشرية و لمختلف النشاطات التجارية. و نظرا لموقعها المركزي في المدينة، فإنها تؤدي وظيفة المجال المنظم للنشاط البشري داخل المدينة.

4- المسرح (أو المدرج) (Théâtre (ou Amphithéâtre) :

إنه المجال المهيا للنشاطات الثقافية و الرياضية و المنبر الرئيسي لأخذ الآراء و بث التعاليم و الأخبار، كما يستعمل للمبارزة بين الخصوم.

5- المعبد (أو الكنيسة) (Temple (ou Eglise) :

هو مجال مخصص للممارسات الروحية و للعبادة، و مستعمل من طرف سكان المدينة و بهذا يحتل مكانة مركزية في المدينة. أما عن حجم و طراز هذه المنشأة، فهي مميزة و تمثالية (Monumentale).

6- الحمامات (Les Bains) :

تشكل الحمامات إحدى المميزات الخاصة بالمدن الرومانية. و هي عبارة عن بناية تؤدي وظيفة اجتماعية مفتوحة كخدمة عمومية لجميع سكان المدينة و السكان المجاورين لها.

(1) Structure en Damier

ونظرا لحجمها وطبيعة نشاطها فإننا نجدتها مشيدة بعيدة عن النسيج العمراني (منعزلة) داخل أو خارج أسوار المدينة.

7- المباني السكنية ، و هي نوعان :

❖ المساكن الفردية (DOMUS) :

هي منازل فردية، خاصة، يسكنها نوي المراكز الاجتماعية العليا وأصحاب الثروة و المال من النبلاء والأثرياء والطبقات الميسورة من صناع وتجار وحرفيين وملاك الأراضي. و يختلف حجمها و طرازها حسب قدرات و أنواق مالكيها.

❖ المساكن الجماعية (INSULAE) :

هي عبارة عن مساكن ضخمة الحجم و بسيطة الطراز يسكنها العامة من الفقراء والمستخدمين عند النبلاء و الأثرياء، شبيهة إلى حدّ ما بما يسمى حاليا " بالأحياء الشعبية " وهي تقع غالبا بين أسوار المدينة والمنشآت العسكرية (تكنات).

وهناك أخيرا، عنصران أساسيان يشاركان في تشكيل بنية المدينة :

8- أسوار المدينة :

وهي الجدران الضخمة المحيطة بالمدينة والتي تستجيب إلى :

❖ تحديد المجال العمراني للمدينة.

❖ حماية هذا المجال من العالم الخارجي.

9- أبواب المدينة :

تقع أبواب المدينة في النقاط الأصلية الأربعة (Points Cardinaux) وهي المنافذ الحتمية للخروج من المدينة والدخول إليها. وبهذا فإنها تمكن من مراقبة مرور الأشخاص والآليات المختلفة والبضائع.

ويعتبر المنفذ الشرقي هو المدخل الرئيسي والرسمي للمدينة، وبهذا يختلف عن الأبواب الأخرى بطرزه المميز وحجمه الضخم وطابعه التمثالي (Caractère monumental).

هذه العناصر المكونة للمدينة تفرز في تموضعها وتم فصلها مجالين أساسيين: مجال مركزي ومجال محيطي.

❖ المجال المركزي: (L'Esace Central)

وهو المجال الذي يقع فيه وسط المدينة، والمتكون من الساحة العمومية، والمعبد، و المدرج ومركز السلطات العسكرية والسياسية والدينية، وكذلك إقامات السلطة الرسمية (القصر) والنبلاء.

❖ المجال المحيطي: (L'Esace Périphérique)

وهو المجال المحيط بالمجال المركزي، المشكل حزاما واقيا لوسط المدينة، معززا بهذا الوظيفة الدفاعية لأسوار المدينة.

يتكون هذا المجال من باقي المنشآت الجماعية بما فيها المنشآت العسكرية والمسكن الجماعية والفردية ، ومختلف المحلات الحرفية وغيرها.

يمكننا، أخيرا، من خلال هذا التقديم الوجيز أن نستخلص أن المدينة الرومانية تقوم على:

- ❖ بنية منتظمة، مكتملة العناصر، ومخططة حسب رؤية هندسية دقيقة للمجال المهيأ.
- ❖ نظام ترابي يعطي لكل عنصر عمراني دال ، مكانته ضمن النسيج العمراني وظيفته الرئيسية والدور المناط به.

4. الدلالة الاجتماعية - الثقافية والسياسية للعمارة الرومانية

كل إنتاج بشري مهما كانت طبيعته ماديا كان أو معنويا، هو مرآة عاكسة للمجتمع الذي أنتجه. و لهذا فانه من المستحيل أن نجد إنتاجا بشريا خارجيا عن مقومات وتصورات المجتمع الذي أنتجه ضمن ثنائية الزمن والمكان¹.

فالعمارة الرومانية لا يحيد عن هذا الإشكال حيث يعتبر " إسقاطا ماديا " لأفكار، يرجع إلى عبقرية المهندسين المخططين، والصناعيين الفنانين، و كذلك إلى المستوى التكنولوجي الذي وصلت إليه الحضارة الرومانية آنذاك.

يقول **جيلبارت بيكار** (Gilbert PICARD) عن العمارة الرومانية ما يلي: " ليس هناك فن أقوى ارتباطا بالظروف السياسية والاجتماعية، وأكثر تعبيراً عن زمنه كفن البناء والتشييد عند الرومان... حيث تكون المدينة تعبيراً مجسداً للنظام الإمبراطوري في أفكاره و تصوراتهِ للمحيط الحيوي ورؤيته للكون " ².

وبهذا لم تكن المدينة " كإنتاج مادي وقيمة جمالية " ناتجة عن مبادئ نظرية فحسب، بل هي تخطيط أنجز طبقاً لمعطيات أيديولوجية-سياسية، واقتصادية، واجتماعية-ثقافية كانت سائدة آنذاك³.

ومن أهم الأفكار والتصورات التي كانت وراء التخطيط العمراني والإنجازات المعمارية، نذكر، التصور العام للكون و الرؤية التراتبية للمجال .

¹ Henri LEFEBVRE: la Production de l'Espace
Editions Anthropos, Paris, 1978 ; p : 75

² Gilbert PICARD : l'Empire Romain
Collection : Architecture Universelle, Paris-Rome ; p : 7

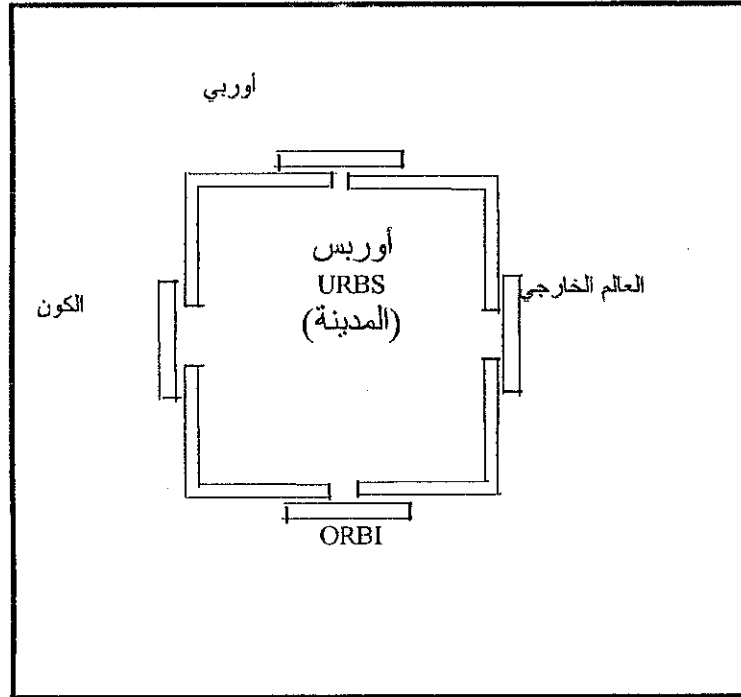
³ Roland BARTHES : l'Empire des Signes, Paris, 1970 ; p : 44

كان الرومان في تصورهم للعالم يقسمون المجال إلى قسمين:

❖ القسم الأول، وهو المجال العمراني المدعى " أوريس " URBS ، الكائن داخل الأسوار المحيطة بالمدينة.

❖ القسم الثاني، وهو المجال الواقع خارج أسوار المدينة والمدعى "أوربي" ORBI.

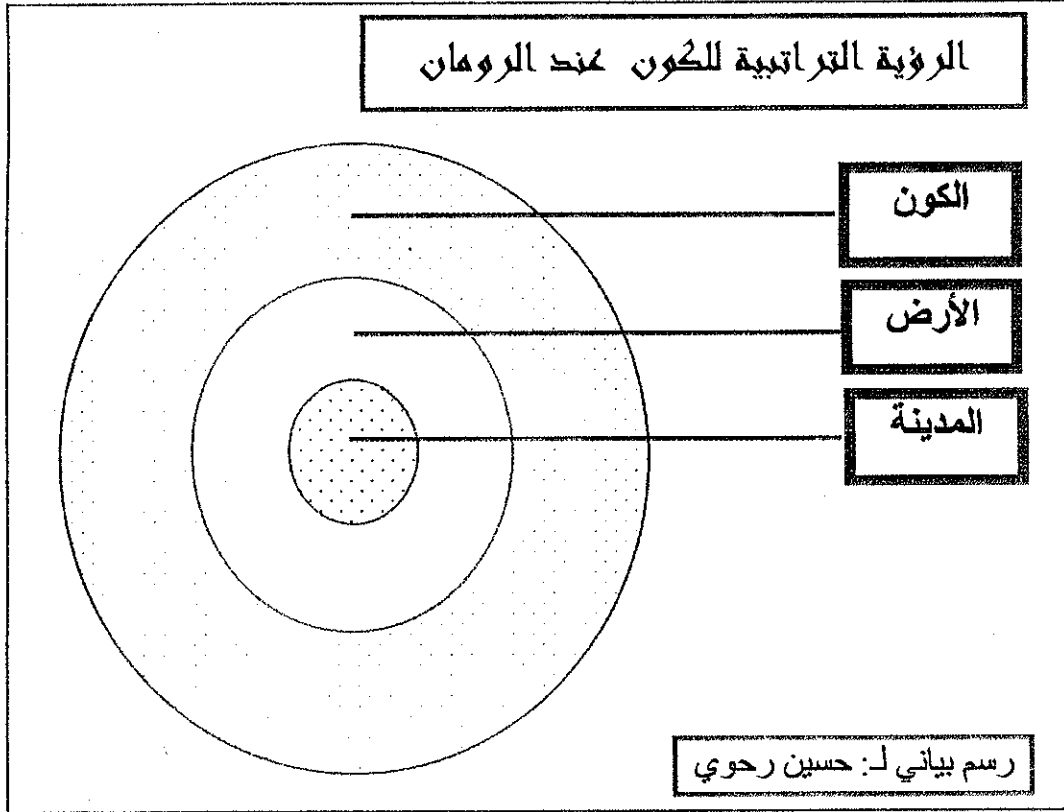
إذا كان القسم الثاني إنجازا بشريا يخضع لسلطان الإمبراطور ويسكنه البشر، فإن القسم الأول هو ملك الخالق، يسير وفق نظام إلهي ويتكون من السماوات والكواكب والنجوم، وباقي المخلوقات الأخرى.



ومن هذا المنظور، يعتبر تأسيس المدن وربطها مع بعضها البعض فتحا لصالح الإنسانية عامة، وتوسيعا لسلطة الإمبراطور خاصة.

2.4 الرؤية التراتبية للمجال:

إن النظام التراتبي للمدينة الرومانية الذي كان يقوم على ترتيب المباني وتوزيعها حسب وظائفها والأدوار المناطة بها ، ما هو إلا تطبيقا لرؤية تراتبية كونية أوسع للمجال الذي كان يتصوره الرومان (الفلاسفة ورجال الدين ، والحكام... الخ) كالتالي:



وبهذا تكون المدينة الرومانية إسقاطا ماديا لهذه التصورات والمعتقدات (أو الاعتقادات) ، من جهة ، و تعبيرا للنظام الإمبراطوري القائم ، من جهة أخرى.

انطلاقا من هنا، يمكننا القول بان تأسيس المدن عند الرومان لم يتم بطريقة عفوية، بل هي عملية مدروسة وفق مقاييس تراعي المعطيات الطبيعية (مناخ، تربة، موارد... الخ) والجوانب الاستراتيجية (مواقع دفاعية، طرق المواصلات... الخ)، كما سوف نراه عند

تطرقنا إلى " شبكة ما بين المدن " الرومانية بالجزائر (1) وتقديم خصوصيات " بوماريا " المدينة الرومانية (تلمسان).

(1) شبكة ما بين المدن = Réseau inter-Urbain ou Armature urbaine

5. " بوماريا " المدينة الرومانية

1.5 شبكة المدن الرومانية بالجزائر:

لم يكن المجال الروماني بالجزائر متكونا من وحدات عمرانية حضرية وريفية (مدن - قرى - دواوير - مزارع... الخ) منعزلة عن بعضها (مشتتة)، ولكن من شبكة منتظمة من المدن المرتبطة جيدا مع بعضها البعض، بحرا وبرا، وخاضعة في أغليبتها إلى وصاية السلطة المركزية بروما.

لهذا، اكتسى شق الطرق في هذه المرحلة التاريخية أهمية قصوى، إذ أشار الدكتور محمد البشير شنييتي إلى: "...المكانة الخاصة التي كانت تتبوؤها طرق المواصلات في تلك الحركة باعتبارها وسيلة سيطرة على الأرض اقتصاديا وعسكريا

1 "

هذه الشبكة نسجت، في رأينا، حسب مبدئين أساسيين:

- ❖ أولا: احتل الرومان، في مرحلة أولى، المدن والمجتمعات السكنية والعمرانية المتواجدة - عند مجيئهم - على الساحل. ونعني المنشآت التجارية التي أسسها الفينيقيون قبلهم والتي تحولت إلى مدن، بما فيها، طرق المواصلات.
- ❖ ثانيا: إن الرومان، الذين كانوا يتركون دائما بصماتهم المادية في المجال الذي يقيمون به، كانوا يؤسسون حتما مدنا ومراكز حماية و مراقبة، باختبار المواقع الاستراتيجية و اللاتقة للإقامة البشرية (مواقع دفاعية، طرق المواصلات، نقاط الماء، أراضي خصبة... الخ).

¹ محمد البشير شنييتي : التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص: 60 و61.

من تحليل المجال الروماني بالجزائر، نستخرج خطين رئيسيين متوجهين، في الاتجاه شرق-غرب⁽¹⁾ :

❖ **خط ساحلي** : كان محتلا سابقا من قبل الفينيقيين الذين أسسوا منشآت {أو مراكز} تجارية ومدنا.

هذه المدن، ستتطور مع مجيء الرومان، كما تشق طرق للموصلات البرية لربط هذه الأخيرة مع بعضها. سيشكل هذا الخط، السلسلة الأولى لشبكة المدن الرومانية.

❖ **خط داخلي**: يوصل بين المناطق الآهلة بالسكان المتواجدة بالسهوب الداخلية (سهوب التل)، كما سعى الرومان إلى تأسيس مدن جديدة في هذا المحور، ونشير هنا إلى مدينة " تمقاد " (THAMUGADI)، المدينة التي تعتبر من اجمل المدن التي شيّدت في هذه الحقبة من الزمن، وهي تعبير لعظمة الإمبراطورية ولعبقرية مهندسيها،² والتي اتخذت نموذجا للعمران الروماني³ ، وغيرها من المدن العديدة التي أنجزت في هذه المرحلة.

سوف يشكلان هذان الخطان النسيج المستقبلي للشبكة العمرانية للجزائر، إذ أن هذه الشبكة ستحدد نظام وتنظيم المجال الجزائري، في خطوته العريضة، خاصة في الشمال الجزائري⁴.

(1) هذا الاتجاه يتبع منطق الطبوغرافيا لتشكيلة التضاريس بشمال الجزائر، كما يمشي بالتوازي مع اتجاه الساحل (البحر الأبيض المتوسط)

² MEMO Larousse : (Encyclopédie), Paris, 1990 ; p : 217

« Timgad, Sentinelle de l'Empire »

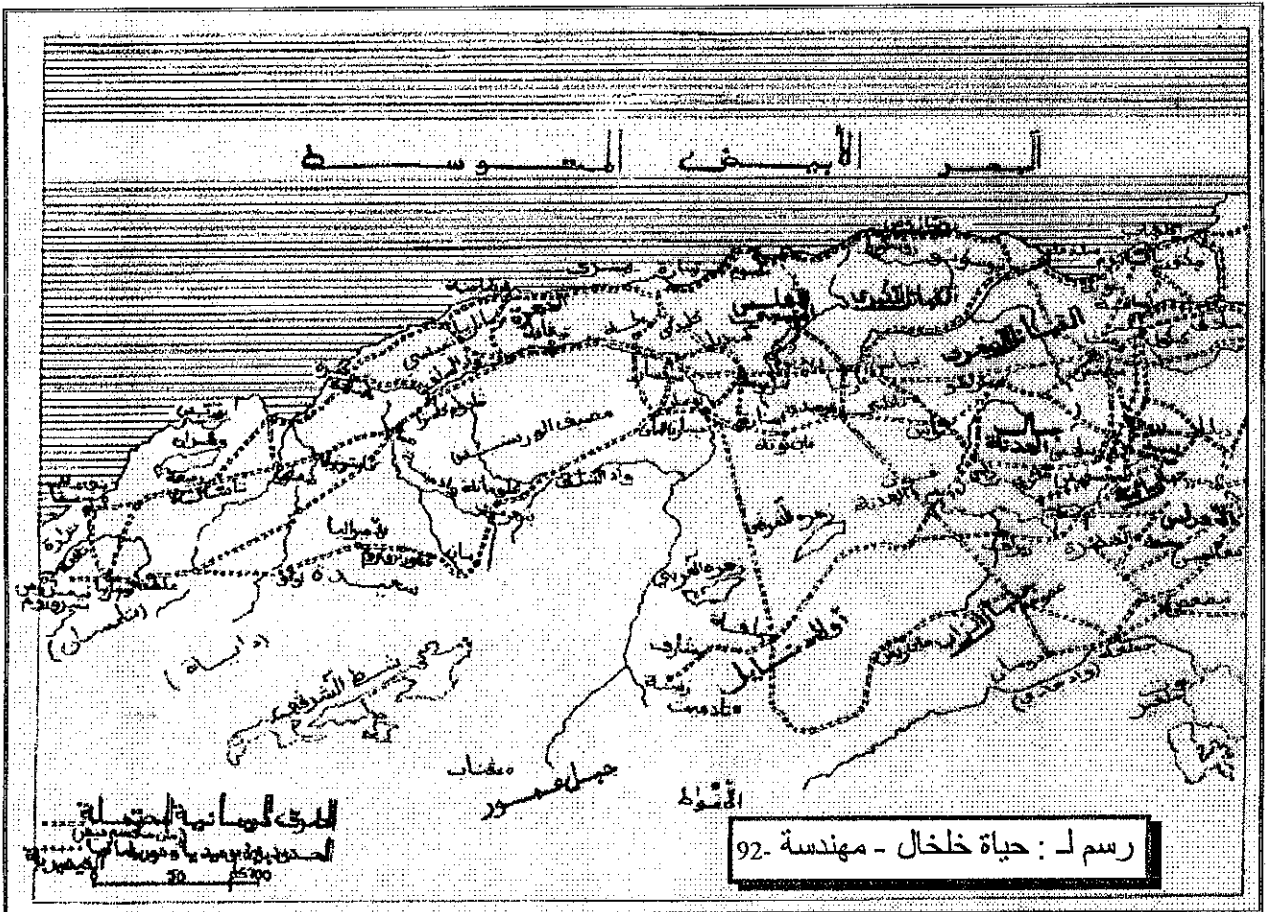
³ MEMO Larousse : même source ; p : 682

« Timgad représente le modèle de la ville romaine dans sa perfection »

⁴ cf Marc COTE : l'Espace Algérien, SNED, 1984, Alger, 1984

الملاحظة المتأنية لشبكة طرق "موريتانيا القبصرية" تبرز مدى تطابقها وتقاطعها مع الشبكة الحالية المورثة عن العهد الاستعماري الفرنسي.

هناك مدن أعيد إنتاجها { أو بناؤها } عبر جل المراحل الأساسية التي مر بها تاريخ الجزائر منذ القدم، مثل مدينة "قسنطينة"، "سیرتا" سابقا. ستكون "سیرتا الفينيقية": المدينة الرومانية، ثم المدينة العربية الإسلامية، فالمدينة العثمانية {مقر بايلك الشرق الجزائري}، ثم المدينة الفرنسية {مقر عمالة الشرق}، فالمدينة الجزائرية المهمة {مقر ولاية}.



2.5 عن تلمسان قديما

عرفت منطقة تلمسان تعميرا بشريا منذ الأزمنة الغابرة. وقد عاش فيها الإنسان البدائي في مراحل ما قبل التاريخ، وثبت هذا بالعثور على " آليات و أسلحة قرب الرمشي " ¹ كان يستعملها إنسان العصر الحجري الذي كان قليل التنقل والذي اتخذ الكهوف و بني منازل من مادة الحجارة الضخمة والخشب ².

أما لويس أبادي ³ ، فإنه يؤكد على تلمسان في عهود ما قبل التاريخ بالإشارة إلى مغارات وكهوف حي القلعة الواقعة على الواجهة الشمالية لهضبة لالة ستي وبني بوبلان كما يشير إلى وجود الأضرحة المأتمية بالقرب من المنصورة.

ومن فرضيات مكتب الهندسة لولاية تلمسان ⁴ أن تلمسان " كمجمع سكني حضري ، يعود إلى المرحلة الإيبيرية – الموريسية (Ibéro - Maurussienne) ما قبل المرحلة البربرية ، التي عرفت نزوح قبائل من تخوم الصحراء (عين الصفراء) وأوربا الجنوبية، باحثة عن سبل العيش، فوجدت الماء والخضرة والمراعي الشاسعة المغربية على الإقامة الدائمة وتشبيد مجمع سكني في ثلاث مراحل ⁵ :

أ- في الأول تم نصب مخيمات ومعسكرات مؤقتة حول نقاط المياه والأراضي الخصبة والطرق الموجودة آنذاك مع تدعيمها.



¹ مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر بين الحديث والقديم – الجزء الأول – المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص : 69-70.

² نفس المصدر والصفحة

³ Louis ABADIE : Tlemcen au passé retrouvé

Editions, Jacques GANDINI, Nice, France, 1994 ; p :7

⁴ Mekteb Hendasset Tilimcen (MHT) : Plan Directeur d'Urbanisme de Tlemcen Phase I, Tlemcen, 1977 ; p: 27

⁵ Idem : p 31.

ب- ثم مع ظهور مراحل الحروب والصراعات والغزوات، برزت أثناءها إلى الوجود بنايات دفاعية متينة ومحصنة (قلعة ...، Citadelle, Forteresses).

ج- وأخيراً، لما أستتب الأمن والاستقرار وتزايد عدد السكان والمباني، وتبلورت الثقافة العمرانية بمفعول الحياة الجماعية، تأسست المدينة بوظائفها الاجتماعية، الاقتصادية والسياسية وتحولت جذرياً مورفولوجياتها (من حصن دفاعي إلى مدينة متعددة الوظائف).

لهذا، نعتبر أن مدينة "بوماريا" الرومانية، حسب ما سلف ذكره وحسب ملاحظتنا لمخططها أنها كانت، على الأقل، مدينة ذات أهمية إقليمية.

ولقد ارتكز الأستاذ الباحث ندير معروف على الأسماء¹ التي طلقت على الأماكن لمحاولة تحديد وإبراز أهمية مدينة تلمسان في العصر القديم، إذ أن كلمة الحرتون (Hortus)، وكلمي الفيصرية والقصرين (caeseria) وبوماريا = البساتين (Pomaria) ... الخ، تمكن من إثبات صورة عن مساحة تلمسان قديماً².

لهذا، لم يجد الرومان أحسن من هذا المجال، المعمر والمهياً، والمميز طبيعياً ومناخياً، لتأسيس نقطة عبور ومراقبة، ثم مدينة بوماريا.

3.5 عوامل بروز مدينة بوماريا

كل مجتمع له رؤيته الخاصة نحو المجال الذي يقطن أو ينوي الإقامة فيه، وذلك وفقاً لمعطيات طبيعية ومناخية وبشرية وجيو-إستراتيجية معينة.

¹ Approche Toponymique : noms des Lieux

² Nadir MAAROUF : quelques réflexions méthodologiques sur la ville africaine
Histoire sociale et vocation actuelle de la Médina

In : Premier Séminaire Maghrébin sur les Médinas -Tlemcen :27 à 29/09/1988 ; p : 19.

ومن العوامل التي ساعدت على اختيار موقع تأسيس بوماريا في العهد الروماني، نذكر على الخصوص ما يلي :

❖ العامل السوسيوولوجي - التاريخي :

من المعروف عن الرومان أنهم يفضلون الإقامة في الأماكن الآهلة بالسكان للتعامل معهم بإغرائهم وفرض وجودهم عليهم بالقوة، واستغلال أراضيهم وسواعدهم ، وفرض الضرائب المختلفة (ضرائب على نشاط الفلاحة وعلى الحيوانات وأنواع التجارة)¹. لهذا، تمثل المناطق السكانية والريفية بالنسبة للرومان النقاط المفضلة لتطويق البلاد والعباد ومراقبتهم ، واستخدامهم لصالحه، علما أن النمط الإنتاجي القائم آنذاك في ربوع الإمبراطورية كان يرتكز أساسا على العبيد في العديد من النشاطات (الزراعة ، قطاع البناء، شق الطرقات، والخدمات الاجتماعية والاقتصادية)².

منطقة تلمسان التي عرفت تعميرا بشريا غير منقطع منذ الأزمنة الغابرة، والتي كانت تقع في قلب الأراضي الزراعية الخصبة والبساتين الخضراء ، والتي تملك موارد مائية معتبرة ويد عاملة متوفرة، لم تنجو من أنظار الرومان الذين انتخبوها كمنطقة حساسة ضمن شبكتهم العمرانية.

❖ العامل الطبيعي

إن المعطيات الطبيعية والمناخية التي تتميز بها منطقة تلمسان، والناجمة عن قربها النسبي من البحر الأبيض المتوسط - بما فيه من تأثير على طبيعة المناخ - ، وارتفاعها الذي يتراوح بين 800 و 1200 متر من مستوى البحر، واعتدال طقسها بتباين درجة حرارتها عبر الفصول ، وخصوصيات تضاريسها، وخصوبة أراضيها ومواردها المائية،

¹ محمد البشير شنييتي : التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص: 127-150 .

² م. رمعون [] : التاريخ السوسيوولوجي للجزائر في العصر القديم.

مقياس علج 122 - جامعة السانية. وهران - سنة 1974

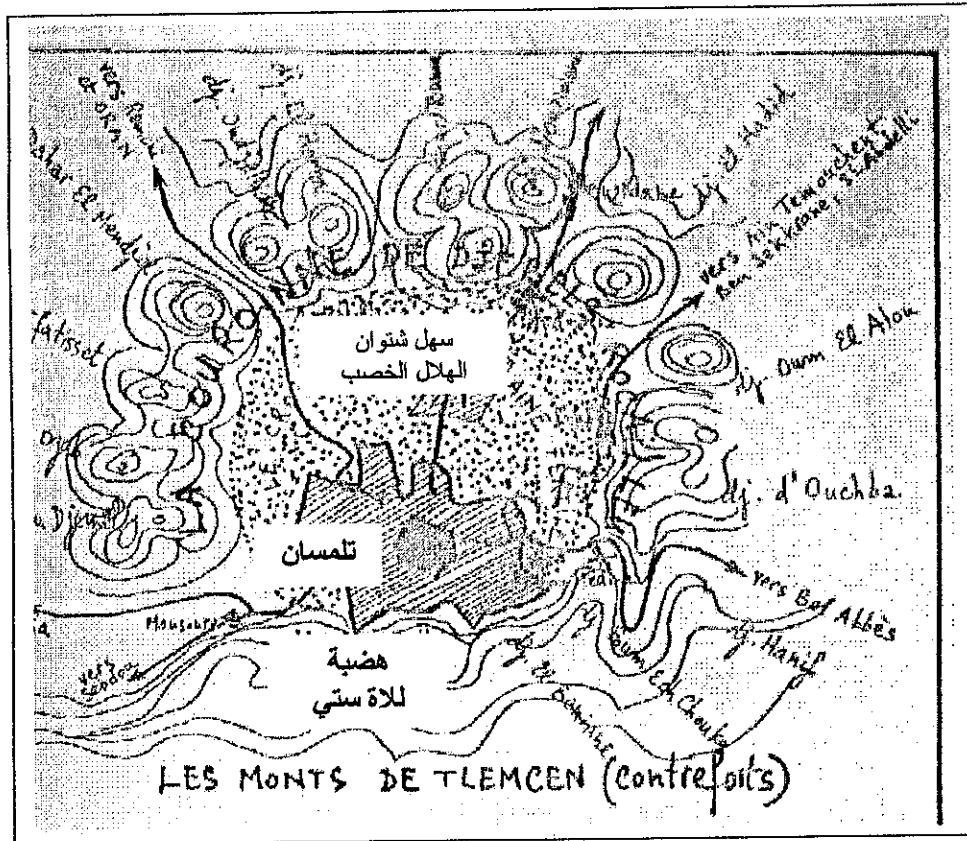
ومناظرها الخلابة، كانت كلها دواعي للإقامة البشرية التي وجدت في هذا المجال مأوى لبناء مساكنها والقيام بمختلف نشاطاتها.

لعل هذا ، كذلك، ما دفع الرومان، بدورهم لاختيار هذا المجال لإقامة نقطة مراقبة، ثم مدينة "بوماريا" في مرحلة ثانية.

❖ العامل الجيو - إستراتيجي

زيادة عن ما تقدم من المميزات التي تمتاز بها منطقة تلمسان، فإنها تقع كما قلنا في ملتقى الطرق الرئيسية الأكثر استعمالا آنذاك، وبالتالي تتحكم في مختلف أشكال وأنواع المرور.

يضاف إلى هذه العناصر الهامة الموقع الدفاعي المرموق المنيع الذي تمتاز به تلمسان (بوماريا) كما نراه في الخريطة التالية : (1)



(1) مكتب الهندسة لولاية تلمسان [] : المخطط العمراني التوجيهي لتلمسان

تقرير المرحلة الثانية-تلمسان

5 - التحليل العمراني لمدينة بوماريا:

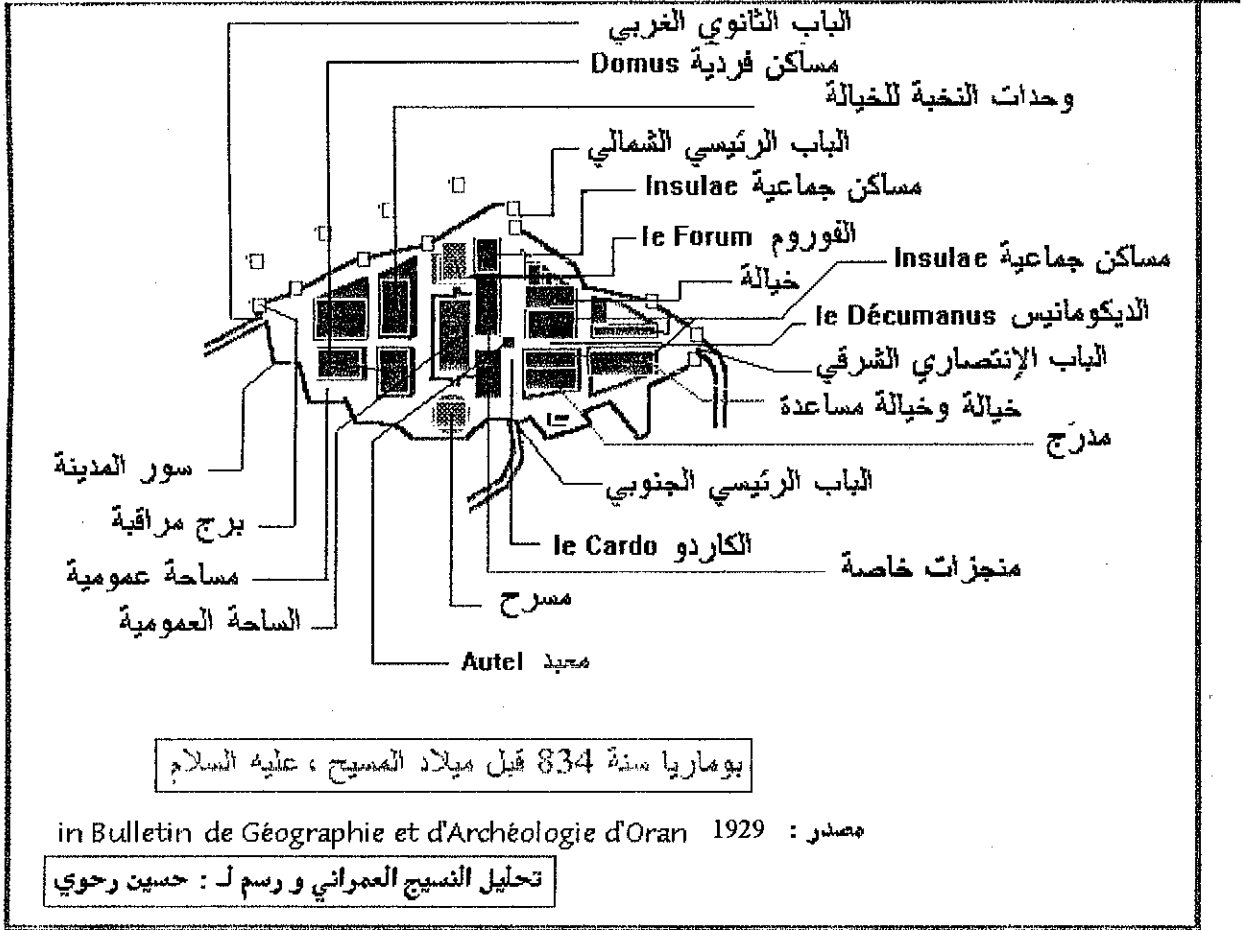
تنقسم المدن التي أنتنتجها الرومان إلى خمسة أنواع¹ ، يمكننا تقديمها بإيجاز كما يلي :

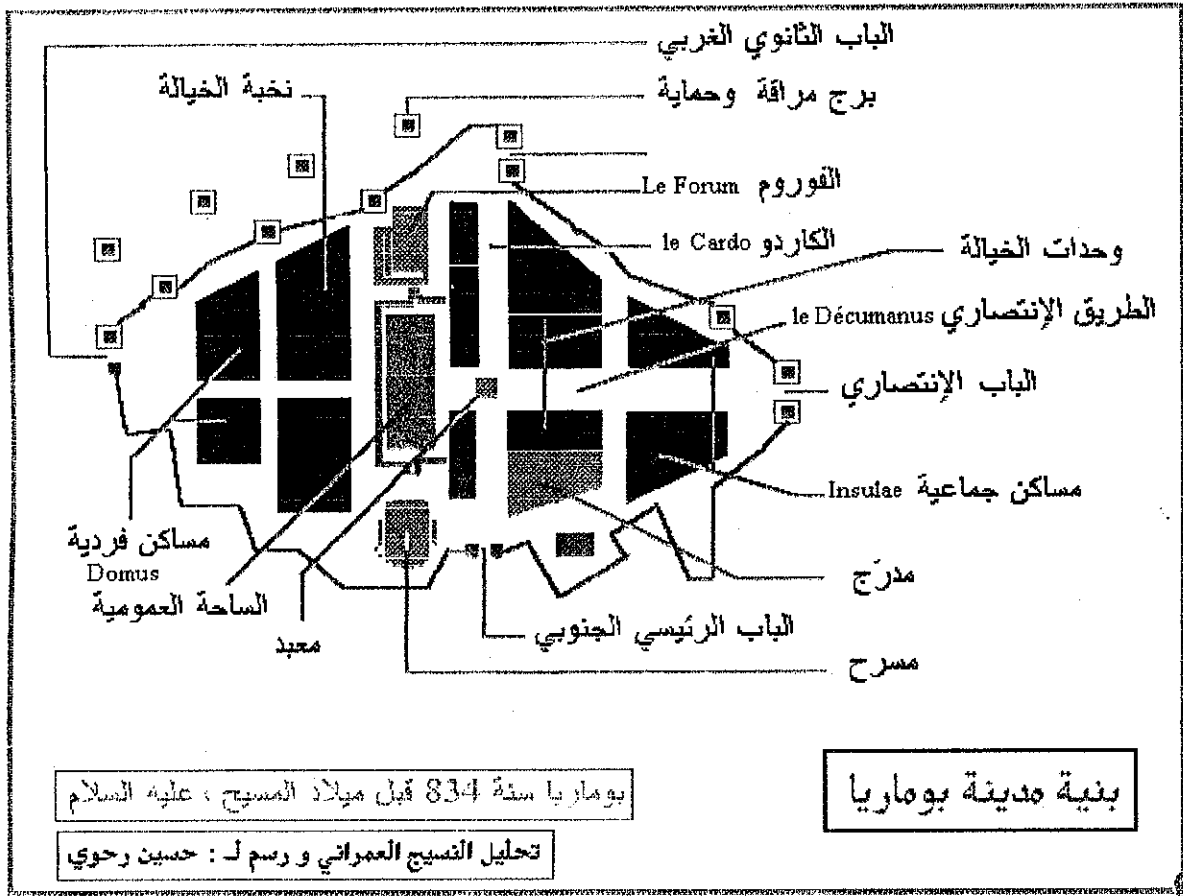
1. المدن البحرية ، وهي تجارية .
2. المدن العسكرية ، و يسكنها الجنود.
3. المدن الفلاحية وأكثر من يسكنها البربر العاملون في أراضي السادة الرومانيين.
4. المدن والعواصم (أولية وثانوية) يسكنها كبار الولاة ، وتمتاز ببناء أفخم، وخيرات أكثر، وعمران أوسع.
5. مدن النزهة ، وهي مدن الاصطياف للأسر العظيمة.

¹ مبارك بن محمد الميللي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث - الجزء الأول

المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1989 - ص: 275

1.5- بوماريا : بنية ووظيفة





إن خريطة المدينة الرومانية بوماريا، التي وضعها الثنائي بياس وكنال والتي أخذناها من مجلة الجغرافيا وعلم الآثار بوهان ، والمؤرخة في سنة 1929م (1)، تتطابق كل التطابق مع المدينة الرومانية النموذجية التي ألفنا وجودها (أو رؤيتها) في البحوث والمجلات المتخصصة في الفن المعماري وعلم العمران وعلم الآثار، وكذلك مخطط مدينة "مقاد"؛ إذ تتكون مدينة بوماريا من جميع العناصر المكونة للمدينة الرومانية، من جهة، كما يظهر هذا التطابق كذلك في تموضع هذه العناصر في المجال العمراني للمدينة، من جهة أخرى .

2-5 سور المدينة :

إن سور المدينة يتخذ مسارات تمليها طوبوغرافية المكان وكيفية احتلال المجال العمراني داخل الأسوار . وتتخلل هذه الأسوار أبراج للمراقبة ، خاصة في الجهة الشمالية التي تطل على البساتين، وعلى طرق المواصلات القديمة التي تؤدي شرقا إلى أطافا (Altava)

(1) Piesse et Canal : in Bulletin Géographique et Archéologique d'Oran , 1929

أولاد ميمون حاليا ، وشمالا إلى سيغا وأد فرانس (Ad Frates) الغزوات حاليا وغربا إلى نوميروس سيروروم (Numérus Syrorum) مغنية . أما الأسوار الواقعة على الناحية الجنوبية فإنها محمية طبيعيا بالمرتفعات المؤدية إلى هضبة لآلة ستي .

3-5 الطرق :

فيما يخص الطرقات نلاحظ في "خريطة بنية المدينة " أن الطريق الرئيسي، شارع الانتصار {أو الفتح} للمدينة (Décumanus) موجه على محور : شرق-غرب . يبدأ مساره عند الباب الانتصار (Porte Triomphale) وينتهي عند المعبد ، أين يتقاطع مع النهج الثانوي ، الكاردو (le Cardo) . هناك أنهج أخرى ، أقل عرضا ، تخدم الأجزاء المكونة للمدينة وتوصل إلى مختلف المنجزات العمرانية و المساكن .

4-5 الأبواب وعددها أربعة :

❖ الباب الانتصار:

الذي يعدّ المنفذ الرسمي للمدينة والذي يقع في الناحية الشرقية لها.

❖ الباب الرئيسي الجنوبي :

يفتح على الكاردو ويؤدي مباشرة إلى المعبد والمنجزات المركزية للمدينة (المدراج - المعبد - الساحة العمومية - الفوروم - المسرح) .

❖ الباب الشمالي :

يقابل الباب الجنوبي . يؤدي هذا الباب إلى الساحل (سيغا و أد فرانس) ، وكذلك إلى الحمامات التي تقع في أسفل المدينة.

❖ الباب البريطوني (Porte Prétonienne):

هناك باب ثانوي آخر، يقع في الجهة الغربية للمدينة . هو باب خاص بحاكم المدينة وحاشيته .

5-5 المنشآت العمومية :

إن المنشآت العمومية ، والتي كذلك دائما متواجدة في المدن الرومانية ، نجدها تحتل الموقع المركزي في بوماريا نظرا للدور الذي تلعبه في الحياة الإجتماعية والثقافية لهذه الأخيرة .

1-5-5 المعبد (Autel des Sacrifices)

الذي يحتل النقطة الإستراتيجية في المدينة ، حيث يقع في ملتقى الطريقين المحوريين الديكومانيس والكاردو . بُني هذا المعبد سنة 834 قبل الميلاد ، لهذا هو عبارة عن مذبح (Autel) تنفذ فيه التضحيات تكريما للآلهة و احتفالا بالأحداث والطقوس .

2-5-5 الفوروم (le Forum) :

يتموضع في الجهة الشمالية لمركز المدينة ، بالقرب من الباب الرئيسي الشمالي الذي يستقبل توافد المنتوجات الفلاحية ومختلف البضائع ، لتواجد البساتين (

(Pomaria = les Vergers)

وطرق المواصلات الهامة . والفوروم عبارة عن ساحة عمومية مفتوحة للجميع قصد التلاقي والمتاجرة .

3-5-5 المسرح : (Théâtre ou Amphithéâtre) :

يقع في الجهة الجنوبية المقابلة للفوروم ، بمقربة من الباب الرئيسي الجنوبي . فهي إنجاز ذا شكل دائري ، خاص بالنشاطات الثقافية والرياضية والإعلامية والتجمع في المناسبات المختلفة .

4-5-5 المدرج (Tribune) :

يقع بجانب مبنى وحدات " الخيالة " ويُستعمل للتظاهرات العسكرية ، خاصة الفنون القتالية والتدريبات والإستعراضات .

5-5-5 الساحة العمومية : Atrium

وهي مجال مكمل للفوروم يكتسي طابع المساحات الخضراء " آتريوم " ؛ يقع في مركز المدينة .

5-6 المساكين :

نعني بالمساكن ،المباني المخصصة للسكن ؛ وهي نوعان : المساكن الجماعية
والمساكن الفردية .

5-6-1 أما المساكن الجماعية

فهي تحتل الجهة الغربية للمدينة ، كما نلاحظ ذلك في الخريطة ، وهي تتموضع حول
وحدات الخيالة ،من جهة ، وبمقربة من طريق الانتصار ،من جهة أخرى . وهذه المساكن
الجماعية تسكنها العامة والجنود .

تموضع وحدات الخيالة بقرب المساكن الجماعية له ، في رأينا ،مدلولين:

- ❖ الأول هو التحكم في العامة من السكان ، في حالات التمرد والاضطرابات الشعبية.
- ❖ الثاني هو تعمير الشارع الرئيسي والرسمي الذي يستقبل الوفود الرسمية والجنود عند
عودتهم كأبطال من المعارك التي خاضوها ...والتي يهتف لها العامة أثناء مرور هذه
المواكب الخاصة التي تنطلق من لباب الانتصار، مرورا بالمعبد ووصولاً إلى الساحة
العمومية الشاسعة المساحة .

5-6-2 أما المساكن الفردية

فهي مشيدة بانتظام في الجهة الغربية، وراء المنشآت التي ذكرناها . يسكن فيها حاكم
المدينة وحاشيته ووجهاء المدينة من كبار الضباط والأثرياء والعلماء (Zone Résidentielle) بعيدا
عن الضجيج والحركة المزعجة .

توجد ضمن هذه المجموعات السكنية الفردية، وحدة النخبة للخيالة ، ربما لضمان
الحماية الكاملة لسلطات المدينة .

ولهذه الفئة المميزة باب خاص يسمح بالدخول إلى هذا الجزء من المدينة أو الخروج منه
عند الضرورة ،بكل أمان وبعيدا عن الأنظار .

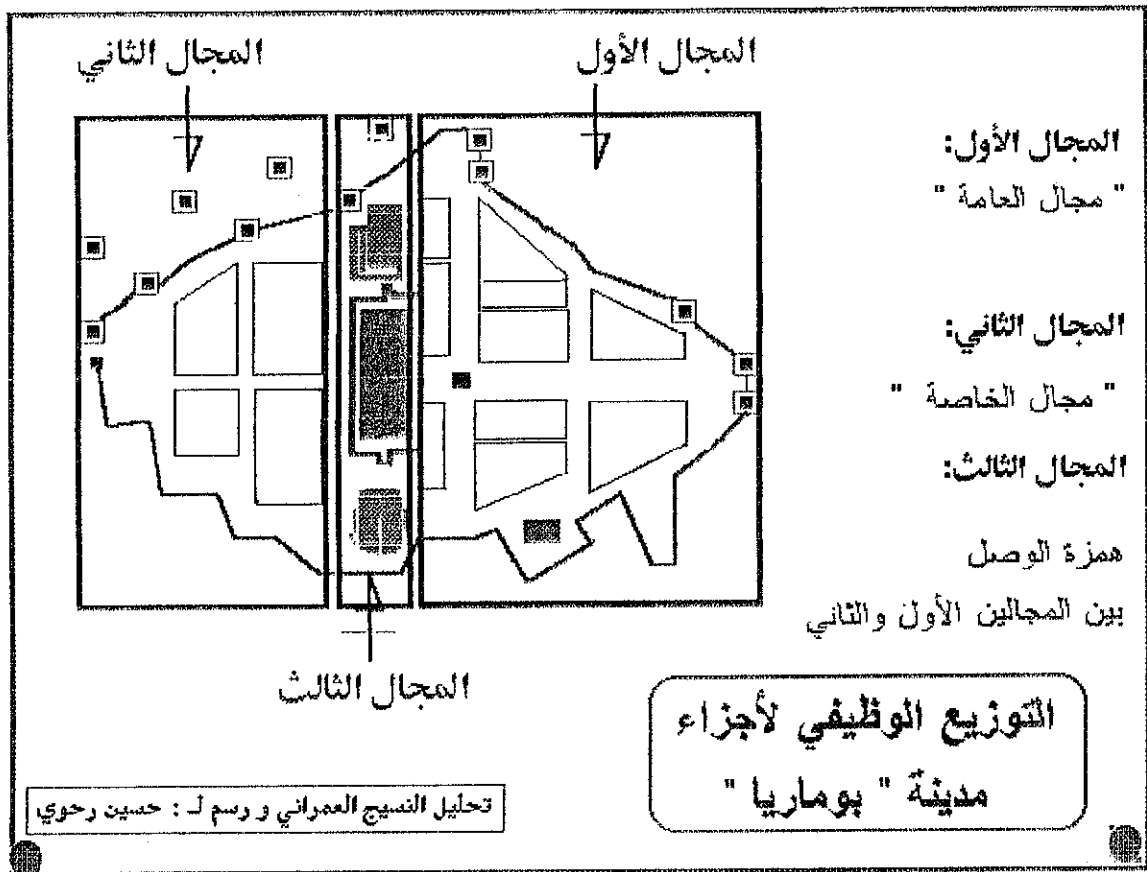
إن النظرة المتأنية للخريطة تبرز نسيجاً عمرانياً يمتاز بانتظام عناصره المكونة

- Eléments Composants - من الطرقات المتدرجة والمنشآت العمومية والمباني السكنية .

هذا الانتظام يظهر في : تقاطع الطرقات على نحو زوايا قوامها تسعون درجة (90°) مكونة بهذا جزيرات (Ilôts) مربعة ومستطيلة الشكل ، متراففة على خطوط مستقيمة متوازية ومتقاطعة في نفس الوقت .

يدعى هذا الشكل العمراني بالبنية الشطرنجية (Structure en Damier) .

إن تحليلنا للعناصر المكونة للمدينة حسب نوعية وعدد وكيفية توزيعها في مجال المدينة ، يعطينا ثلاث مجالات متباينة وظيفيا .



المجال الأول : مجال العامة

يقع في الناحية الشرقية للمدينة. يبدئ من الباب الإنتصاري إلى غاية المعبد. وهو مكون من مساكن جماعية، ومباني عسكرية لوحدات الخيالة والخيالة المساعدة . يعتبر هذا المجال ، نظرا لتركيبته العمرانية والبشرية " مجال العامة " .

المجال الثاني : مجال الخاصة

وهو المجال الذي يقع في الجهة الغربية للمدينة . يبدئ من الباب البريطوري إلى غاية الساحة العمومية " أتريوم " . يتكون من المساكن الفردية الفخمة ومباني وحدات النخبة للخيالة (Cavalerie d'Elite) .

هذا المجال الذي يقيم فيه حاكم المدينة والنبلاء والأثرياء ووجهاء المدينة بصفة عامة ، يشكل " مجال الخاصة " .

المجال الثالث : المجال الجامع

يقع في وسط المدينة. يبدأ عند الباب الرئيسي الجنوبي وينتهي عند الباب الرئيسي الشمالي .

وهو المجال الفاصل بين " مجال العامة " و " مجال الخاصة " من حيث المكانة الاجتماعية لسكان المدينة ؛ **والمجال الجامع** (همزة وصل) بين العناصر العمرانية للمدينة (تكامل البنية العمرانية) .

ويحتوي هذا المجال الذي يحتل الموقع المركزي للمدينة على جميع المنجزات العمومية التي ذكرناها سالفاً، والتي يتوافد عليها جميع سكان المدينة في معاملاتهم اليومية (السوق - المعبد) ، والموسمية والحفلات .

6 - مكانة بوماريا ضمن المدن الرومانية

إنّ الشيخ مبارك بن محمد الميلي يصنف ، كما سبق ذكره ، المدن الرومانية إلى خمسة أصناف .

إذا اقتصرنا على آراء الباحثين الفرنسيين وبعض المستشرقين (الحاقدين سرا على الحضارة العربية الإسلامية) ، فإن بوماريا لم تكن أبداً سوى نقطة عبور ومراقبة عسكرية ، شيد فيها الرومان حامية عسكرية (Garnison Militaire) .

لكن إذا رجعنا إلى باحثينا (الرجوع إلى الأصل فضيلة) ، نجد عمرو ذهينة يقول ما يلي: " هناك بوماريا (البساتين) التي كانت في الأول ، عبارة عن معسكر ، في بداية حكم سابتم سيفر (SEPTIME SEVERE) ، وتحول المعسكر إلى مدينة (بوظائفها المدنية) = (Ville Civile). هناك قناة " ساقية النصاري" كانت تجلب الماء من الوريث . كتابات منقوشة لاتينية مؤرخة بعد المسيح (عليه السلام) تؤكد صحة هذه الأحداث ". (1) .
ويتبعه في تلك الفرضية الطالب الباحث سيدي محمد النقادي ² .
ويشاطر هذا الرأي الدكتور ندير معروف (3) ، الذي يبين أهمية مدينة بوماريا ، لا بالكتابات المنقوشة على الحجر ، ولا بالمخطط الافتراضي الذي نشرته المجلة الجغرافية للغرب (Bulletin Géographique de l'Ouest) فحسب ، بل بدراسة المحيط العمراني حجما ونوعا وعلاقته مع الأحواز والأرياف المجاورة له؛ وكشف أهمية المساحات الفلاحية (الهلال الخصب) والآبار والسواقي التي كانت تجلب المياه من بعيد ، علما بأن المياه بمحيط بوماريا كانت سهلة المنال . كما أشار إلى أهمية اكتشافات الحفريات التي أجريت في الثمانينيات .

ومن هنا يمكننا التصريح بأن بوماريا ، انتقلت من رتبة معسكر إلى مرتبة مدينة بجميع مكوناتها البشرية والمادية ووظائفها . ونظرا لما يمتاز به الموقع من أراضي خصبة ومياه عذبة متدفقة ، يمكننا أن نصنفها ضمن المدن الفلاحية . تلك الفلاحة التي مكنتها ، بدون شك ، من الصمود في الأوقات الحرجة التي تلت العهد البيزنطي ، حتى استقبلت العروبة والإسلام ، مجتمعا وعقيدة ، اللذين رفعا من شأنها حتى أصبحت عاصمة المغرب الأوسط ، وتدعى *غرناطة إفريقيا* .

(¹) Amar DHINA : Cités Musulmanes d'Orient et d'Occident

Entreprise Nationale du Livre , Alger , 1986 -p: 83

² سيدي محمد نقادي: التصميم العمراني لمدينة تلمسان و دلالاته الاجتماعية - رسالة ماجستير - معهد الثقافة الشعبية- جامعة تلمسان-1991، ص:9

(³) Nadir MAROUF : Quelques réflexions méthodologiques sur la Ville Africaine

Histoire Sociale et vocation actuelle de la Médina

- In : Premier Séminaire Maghrébin sur les Médinas

- Tlemcen : Journées des 27-28-29 Septembre 1988 - pp : 18-19

الفصل الرابع : العصر الإسلامي

مفهوم المجال المتحرك عند العرب
وتأسيس المدن العربية الإسلامية بالمغرب الأوسط

- ❖ من سقوط روما إلى عشية الفتوحات الإسلامية
- ❖ عند الفتح الإسلامي
- ❖ العرب ومفهوم المجال المتحرك
- ❖ بنية ووظيفة المدينة العربية-الإسلامية بالمغرب الأوسط

من سقوط روما إلى بداية الفتوحات الإسلامية للمغرب

1.1 سقوط روما :

إذا كان المرور من مرحلة تاريخية إلى أخرى أمرا سهلا بالنسبة لمؤرخ الأحداث، فبالنسبة لعالم الاجتماع التاريخي وعالم الآثار وغيرهما ، غاية صعبة المنال لأنها تستدعي تفهم الميكانيزمات والعوامل التي كانت وراء الأحداث والتي أدت إلى التغييرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

إن المصطلحات والمفاهيم والنظريات التقريبية والتحليلية ، لمعالجة موضوعنا هذا ، كثيرة ؛ نذكر منها :

1. نظرية التغيير الاجتماعي (La Théorie du Changement Social)

2. نظرية التحولات الاجتماعية (La Théorie des Mutations Sociales)

3. مصطلحات التطور، والثورة، والانتقال (Evolution, Révolution, Transition...)

إن هذه المصطلحات جميعها ، وغيرها ، بخلفياتها الأيديولوجية وأهدافها السياسية، تسعى كلها لتبيان العامل الذي لا مفر منه والمتمثل في تطور المجتمعات الإنسانية في محورها التاريخي والتزامني (Axes : Diachronique et Synchronique) وفي مستويات ترابطها وتقاطعها .

فبناء على هذا ، وبعد قراءة وتحليل مجموعة من المراجع ، لها صلة بالتاريخ الاجتماعي الجزائري خلال هذه المرحلة⁽¹⁾، سنحاول تقديم أهم الأسباب الرئيسية الكامنة وراء سقوط الإمبراطورية الرومانية والتي نلخصها في ما يلي :

(1) أندري برنيان، أندري نوشي، إيف لاکوست : الجزائر بين الماضي والحاضر

ترجمة : اسطنبولي رابع ومنصف عاشور - مؤسسة المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1984

محمد البشير شنييتي: احتلال الرومان لبلاد المغرب - المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985

محمد البشير شنييتي: التغييرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني

المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984

محمد البشير شنييتي : دراسة في أصول ونظم الملكة النوميدية، المؤسسة الوطنية للكتاب، سنة:؟

- ❖ L.RINN : les premiers royaumes berbères, Revue Africaine, 1885
- ❖ R.THOUVINO : Rome et les Berbères africains, Revue Africaine, 1955
- ❖ Y.THEBERT : Romanisation et Déromanisation en Afrique, Histoire décolonisée ou Histoire inversée, Annales E.S.C., 33, 1978

إنّ التوسعات الإقليمية للإمبراطورية الرومانية قاد فاقته طاقتها الحقيقية في التحكم في الأقاليم والشعوب التي كانت تحويها، وهذا ما قادها إلى اضطرابات لم تستطع السلطة المركزية من إخمادها .

نظام الحكم ، عرف ، خلال القرن الثاني الميلادي ، المرور من نظام عسكري إلى نظام مدني.

❖ المرحلة الأولى: التي سبقت القرن الثاني الميلادي شهدت حركات وتوسعات لأقاليم شاسعة بجيش مستمر التواجد (Omni Présent). هذا الطابع العضلي القوي ظهر في جميع المستويات :

1.. في الميدان الاجتماعي - الاقتصادي ، كان هناك استعباد لمجتمعات برمتها إذ دُفعت الضرائب بالقوة وصُودرت الأراضي والممتلكات.

2. أما في الجانب العمراني ، فلقد شُيدت أحياء سكنية ذات أسوار وجدران عالية وأبواب ومداخل محروسة . تبدو البنايات وكأنها قلع محصنة .

وبعد وقت طويل ، نوعا ما، استعمل من أجل إرساء أسس السلم، شرع في العمل في الأراضي الجديدة واستغلال الثروات، عرفت الإمبراطورية مرحلة من الهدوء وسعة في تسيير أمورها، وهذا ما قاد إلى السعي في ما يُعرف بالسلم الرومان (Pax Romana) .¹

-
- ❖ Charles-André JULIEN : Histoire de l'Afrique du Nord (de la Conquête Arabe à 1830) Editions Payot, Paris, 1966
 - ❖ J. GAGE : les classes sociales dans l'Empire romain, Editions Payot, Paris, 1964
 - ❖ Gilbert PICARD : Empire Romain Collection Histoire Universelle, Paris & Rome, 1967
 - ❖ M. Remaoun : Histoire Sociologique de l'Algérie (Module : I.L.J. 122) Université : Es Sénia , Oran , 1974

¹ محمد البشير شنييتي: احتلال الرومان لبلاد المغرب - المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص: 75.

❖ المرحلة الثانية: والتي تبدأ من القرن الثاني الميلادي، تميزت بسياسة " رومنة الشعوب ". هذا الأسلوب الذي كان يُستعمل من أجل بقاء هيبة الإمبراطورية وصرف أمورها تجاه هذه الشعوب التي دافعت وحصلت على حق المواطنة الرومانية. خلال القرن الثاني والثالث ميلادي ، و بدون حروب ، ونتيجة لتأسيس حكم مدني، شيدت أحياء ومدن جديدة بطابع عمراني مدني¹ وتنظيم إمبراطوري يمارس الفنون وبتبناها.

هاته الأشياء كلها وغيرها ، قادت إذا صحّ القول إلى ترويض الأمور . بالنسبة للجيش، فقد عُدل بالتحفيظ إلى 400 000 جندي ، وبعد حين، لم تعد هذه الوحدات قادرة على حراسة الإمبراطورية، وهذا ما أدى إلى ظهور ثورات وانتفاضات.

2-1-1 الانتفاضات المحلية :

إن هاته الثورات ضد روما قد حملت في طياتها أيضا انتفاضات شعبية غير منظمة (Jacqueries) ، كما كانت هناك حركات منظمة تهدف إلى الاستقلالية والتحرر من روما ، فكانت الشعوب، تارة منقادة من قبل جنود رومان يدعون إلى الانفصال² ، وتارة أخرى بقيادة وطنيين محليين ورؤساء القبائل وحلفائهم³ .

هذه الحركات المترامنة والمكثفة ، التي كانت منتشرة في الجهات الأربعة من الإمبراطورية ، لعبت دورا أساسيا في هزيمة " الجيوش-الفرّاعة " . إذ أصبحت الجيوش كرجال المطافئ " لم تعد قادرة على إخماد نار الفتنة وإعادة النظام. هذا ما أدى إلى تنازلات معتبرة من طرف السلطة المركزية الرومانية في أول الأمر، ثم إلى انحلال الوحدة الترابية للأقاليم الرومانية، وتفتيتها فيما بعد.

¹ محمد البشير شنيّتي: نفس المصدر، ص: 77

² انظر: الجزائر بين الماضي - جيوش الإمبراطورية الرومانية الذي كان ينتمي إليها تمرد بونيفاس كونت بجيوشه ضد والحاضر (مصدر سابق)؛ ص: 84

³ التغييرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني: محمد البشير شنيّتي

المؤسسة الوطنية للكتاب للجزائر ، 1984، ص: 24

" وكان لعجز السلطة المركزية في صد العدوان والسيطرة على الوضع الداخلي أثره البالغ السوء، حيث طمعت شعوب كثيرة في الانفصال عن السلطة المركزية وصرف شؤونها بنفسها " ¹

إنّ القوات القديمة للمستعمرات وحلفائها بدأت تظهر ثانية، شيئاً فشيئاً، بإعادة تكوينها في أشكالها الأصلية، ألما قبل الرومانية أو في أشكال امتزجت بالنظم الرومانية.

3-1-1 رواد الفعل داخل الإمبراطورية:

كانت روما مثل مركز حركة الزلزال (Epicentre) ، الذي يعتبر النقطة الأكثر تضرراً نتيجة الخسائر المتتالية التي انجرت عن فقدان المستعمرات التي كانت تغذي ، بكل معاني العبارة ، ساسة روما . فشبت الاختلافات وتفاخمت الأزمة بشتى أشكالها ، معلنة الانحطاط التام للإمبراطورية الرومانية ، وبداية الزوال الذي أفرزه وفرضه التغيير الإجتماعي والسياسي العالمي ، والقوى العقلية والفكرية الصاعدة الجديدة.

4-1-1 ظهور قوى عقلية وفكرية عالمية جديدة:

إن ظهور قوى جديدة على أرض الواقع ، لا سيما الوندال والبيزنطيين سينتهي بالتناقص الإقليمي للإمبراطورية ، والذي سيقنع بقطع جد متواضعة بدلا من الأقاليم الشاسعة التي كانت تحت وطأته ، والتي سيتنازل عنها نهائياً عشية القرن الخامس ميلادي، تحت الضربات المتتالية للوندال والبيزنطيين ، وقوات السكان الأصليين الذين حاولوا استعادة قوميتهم في شكل دول مستقلة.

كل هاته الدوافع ، أدت إلى سقوط الإمبراطورية الرومانية ، وتفتيت وحدة مستعمراتها .

ومن جهة أخرى ، لا يفوتنا تكذيب وتقنيد الأفاويل التي ادعت أنّ غارات الوندال كانت وحدها كافية لدفع الرومان نحو أقاليمهم الأصلية ، كما يزعم ذلك بعض المؤرخين . إن الحملات المتتالية للبرابرة ، والتي تمثلت في تكرارها وتزايد أهميتها منذ بداية القرن الثالث، والتي وصات إلى أقصى مستوياتها خلال القرن الخامس، كان لها الأثر

¹ محمد البشير شنيتي: نفس المصدر، ص: 25 و 26 .

البالغ في سقوط روما. وكدليل على ذلك ، الأقاليم الواقعة على الضفة الغربية لوادي الشلف ، عرفت عمليات تفريغ وطرده ، منذ نهاية القرن الثالث ، أي قبل مجيء الوندال. زيادة على هذا فإنّ : " سقوط روما راجع إلى الثورات البربرية أكثر مما هو راجع إلى الإغارة الوندالية " (1) .

2 . المغرب الأوسط عشية الفتوحات الإسلامية

إلى جانب الإصرار على إبقاء البنى الموروثة من الرومان ، والتي أعيدت هيكلتها، إلى حدّ ما ، من قبل البيزنطيين ، فإنّ البنى والممارسات الاجتماعية-الثقافية والاقتصادية القديمة ، عادت إلى الواجهة ، بصفة محتشمة ، مقارنة مع المرحلة المشرقة ، أي مرحلة الانتصارات للسلاط النوميديّة التي حاربت تحت لواء بعض الشخصيات والقادة البارزين مثل يوغرطا وماسينيسا وغيرهم، الذين استطاعوا جمع شمل القبائل البربرية وتأسيس مملكات أهم وأدوم من سابقتها .

كما أنّ القبائل والمجموعات البشرية من الفصيصة الواحدة ، كانت تنزوي في الجبال والغابات في أوقات الحروب ، ثم تعود إلى السهول أوقات الانفراج والسلم . وبالموازاة مع هاته الحركات في المناطق الريفية والبوادي ، فإنّ المدن المحصنة التي صمدت إلى تلك الآونة لعمليات النهب والتخريب ، كانت تحاول الدفاع عن وجودها وإبعاد الغزوات المتتالية . وفي الحالات القصوى ، كانت تحاول النزول بشرف من المراكز التي فرضها عليها الاستسلام.

ونحضر إذن إلى سقوط العديد من المدن واهتراء بعض المراكز العمرانية القديمة، فالاختفاء للكثير منها . وبإصرار بقاء بعض المدن الرومانية ، كان هناك تأسيس وتوسيع لبعض المدن تحت الحكم البيزنطي في وسط وشرق المغرب ؛ ففي غرب وادي الشلف

(1) مجموعة : الجزائر بين الماضي والحاضر - مصدر سابق - ص : 84

غادر الرومان الأماكن، وهذا ما سمح بظهور مملكة "جدار" حيث كان مقرها ، باحتمال كبير في تيهرت (تيارت) حسب رأي (ستيفان قزال) حيث أن هذا الملك كان يمتد من ملوية غربا (قرب وجدة) إلى القطاع الوهراني ، وإلى جبال الأوراس شرقا. إذ يقول المؤرخ إيف لاکوست عن مملكة جدّار ما يلي: "ولذلك ظهرت مملكة منظمة في القرن السادس والسابع، علامة استرجاع الظروف الاقتصادية والاجتماعية الملائمة لتطوير شكل تنظيم سياسي راق نسبيا في النواحي التي أهملتها منذ القديم روما ، والتي عجزت بيزانس أن تعيد سيادتها عليها. تدعى هذه الدولة المعروفة قليلا جدا لمملكة جدار { باسم الناحية القريبة من تيارت التي تنتصب فيها صروح مأتية عددها ثلاثة عشر تشهد بعظمة الملوك الذين دفنوا فيها " ¹.

هذه المملكة، التي نعرف عنها القليل، تركت أضرحة مأتية وبقايا لهندسة عمرانية ومعمارية تشهد على الاستعمال المتمازج بين الفنون العمرانية الرومانية والبيزنطية. ورغم كل ذلك ، فإننا نلاحظ تناقضا مهماً في عملية الإنجاز العمراني وفقدان التماسك الملحوظ في العمران الحضري للمجال المنظم من قبل الرومان لا سيما في الشبكة العمرانية وبنيتها.

" وهكذا هيأت صراعات القرن الرابع الظروف لانسلاخ بلاد المغرب من جسم الإمبراطورية الرومانية. ذلك الانسلاخ الذي تم بسهولة على يدي الوندال وفشل البيزنطيون في إعادة إصاقه بإمبراطوريتهم الشرقية لأن المغاربة كانوا قد استنشقوا عبير الحرية وألقوا نعمة الاستقلال في ظل الإمارات المستقلة التي أقاموها على حطام الولايات الرومانية السالفة " ².

¹ مجموعة : الجزائر بين الماضي والحاضر - مصدر سابق - ص : 86
² محمد البشير شنييتي : لتغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، 1984 ، ص : 331-332

وفي النهاية ، في نفس الوقت الذي كنا نشاهد فيه تفكك (*Décomposition*) المجال الروماني ، كانت هناك إعادة تركيب (*Recomposition*) ، في خطوطه العريضة ، للمجال الأصلي ، ما قبل الروماني ، مع الحفاظ ببعض المكتسبات والرواسب ، التي سنتطرق إليها في حينها .

3. عند الفتح الإسلامي

نلاحظ على المستوى السياسي البروز ثانية للسلطات القبلية في المناطق الريفية وللتنظيمات السياسية في المدن ، كما هو الشأن لمملكة " جدار " التي تبرهن على محاولة إعادة تنظيم سياسي وإقليمي ذو مستوى عال في المغرب الأوسط.

على المستوى الاقتصادي ، نلاحظ أيضا نزول بعض القبائل من الجبال نحو السهول، حاملة منها نمط اقتصادي لا زالت تسييره البنى التقليدية المرتكزة أساسا على الفلاحة وتربية الحيوانات وأنواع محدودة من التجارة .

إذ : " كان عدد من القبائل التي طردت في الجبال قد نزلت من جديد، على الأقل البعض منها، إلى السهول. فتألفت من جديد في هذه النواحي وتحت تأثير قبائل جبلية، قبائل كان التصرف الروماني والبيزنطي قد شنتها ثم استرجعت تشكيلها من جديد بطريقة ما واستعادت أساسا اقتصادية مشتركة تقريبا " ¹ .

على المستوى الاجتماعي- الثقافي، نلاحظ العودة إلى القيم والمعتقدات التي كانت سائدة في مرحلة " ما قبل الرومان " بالتخلي عن الديانة المسيحية الدخيلة . وقد ساعد جو الاضطراب والفوضى في صفوف المسيحيين (أرثوذكس، كاثوليك، بروتستانت) وتراجع الديانة اليهودية، على إعادة انتشار المعتقدات الوثنية والجاهلية ⁽²⁾ .
رفض الديانات المسيحية واليهودية وغيرها هو في الحقيقة رفض لقيم المحتل الذي عجز في الإقناع بالحقيقة المطلقة .

¹ أندري برنيان، أندري نوشي، إيف لاكوس: الجزائر بين الماضي والحاضر

ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984 - ص: 87

² نفس المرجع، ص: 88

ومن جهة أخرى، لا يجب الاعتقاد بأن الفتوحات الإسلامية تمت بدون اصطدام، وأنها استقبلت بصدور رحبة بالمغرب، إذ إنه من المؤكد أنها كانت الأصعب والأقسى والأطول نفسا ومدة من نوعها في نشر الإسلام .

إذا اقتصر الفتح الإسلامي في مصر على معركة واحدة ، شارك فيها أربعة آلاف جندي (4000) وهتف لها الأقباط الذين شعروا بالتحرر - بعدما كانوا من قبل يعيشون متشردين ومذلولين - فإن المغرب لم يستسلم للفتاح بنفس السهولة، إذ جرت معارك ضارية بين المسلمين وسكان المغرب .

فكان فتح المغرب الأطول مدة ونفسا، إذ دام أكثر من سبعين سنة¹ .

كان هناك "قصيلاه" و "الكاهنة" وغيرهم من زعماء العشائر والقبائل والتنظيمات الإقليمية والسياسية الذين حاربوا الفتوحات الإسلامية بكل شراسة وتصدوا لها. إن الزعيم البربري " قصيلاه "، من قبيلة عوربة، والذي كان يعتنق الديانة المسيحية، تصادم مع أبي المهاجر وهزم فاعتنق الإسلام² . أما الكاهنة، فقد تصدت لحسن ابن النعمان وانتصرت عليه في جبال الأوراس³ . لكن هذا لا يعني بالضرورة أن الإسلام كعقيدة هو الذي حورب، بل حوربت الجيوش وحوربت الجاليات البشرية التي رافقته على كونها معمرا وغازيا لأرض اعتاد الأجانب على مهاجمتها طمعا في خيرتها الطبيعية وأرضها الواعدة .

وبمرور الزمن - وبفضل الاحتكاك - تم قبول القيم والأفكار والممارسات الاجتماعية التي حملها معه الإسلام إلى أرض المغرب والمتمثلة في⁴ :

¹ Mahfoud KADDACHE : l'Algérie Médiévale - ENAL, Alger, 1992 ; p : 4.

² Même source ; p : 9.

³ Même source ; p : 10.

⁴ Même source ; p : 5, 11, 12, 13.

- ❖ العدالة الاجتماعية .
- ❖ تأمين الأشخاص والممتلكات .
- ❖ احترام الديانات السماوية الأخرى .
- ❖ عتق العبيد وإلغاء الضرائب الثقيلة.
- ❖ المعاملة الإنسانية لأسرى الحرب .
- ❖ وغيرها من تعليمات الدين الإسلامي التي كانت تطبق في الحياة اليومية وفي المناسبات.

كل هذا ساعد على فهم معنى ومغزى الفتح الإسلامي وإعطائه، بالتالي: مفهومه الحقيقي، ووضعه في إطاره الإنساني والروحي والحضاري . وعليه دخل حشد كبير، ثم كلي في أحضان الإسلام .

كما نضن أنّ من بين العوامل الأساسية التي كانت وراء تقبل سكان المغرب للعرب والإسلام، في أخير المطاف، هناك :

- ❖ الحالة المتدهورة التي كان يعرفها المجتمع المغربي أثناء هذه المرحلة. حيث كان يبحث عن نفسه وعن توازن جديد، والمشروع الإسلامي المجدد، القوي أعطى له نفس جديد بتقوية وتغذية بناء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وترسيخ هويته، ضمن نمطه المعيشي .
- ❖ الفتوحات الإسلامية تختلف تماما عن الاحتلالات السابقة: إنها "فعل" مقدس وإيماني، غايته هو نشر وتعليم رسالته الخالق سبحانه وتعالى.
- ❖ هذه الرسالة تقترح مشروع مجتمع عادل ومترابط (متماسك)، تتناهى أهدافه مع كل الاحتلالات والغزوات السابقة، التي كانت تتخلص في غاية اقتصادية ومادية.

❖ العرب المسلمون (الفاتحون) يشتركون في كثير من مظاهر الحياة اليومية والنمط المعيشي وفي كثير من القيم والتنظيمات الاجتماعية مع سكان إفريقيا الشمالية (المغرب الكبير) ¹ .

نسرده على سبيل المثال :

❖ اللغة العربية: التي لها أوجه التقارب مع اللغة البربرية، من ناحية النطق وتركيب الجمل ، مما ساعد على التقارب بين الحضارتين على مستوى الاتصال والتفاهم ² .

❖ المجتمع العربي-الإسلامي: يشتمل، هو كذلك، كالمجتمع المغربي على أسس ثنائية " بدو/خضر"، الثنائية التي كانت تميز المجتمع المغربي في حقب ما قبل العهد الروماني .

❖ على المستوى الإقليمي والفيزيقي : نلاحظ امتدادا وتشابها في التركيبة التضاريسية والمناخية والنباتية بين المواطن الأصلية للعرب وأرض المغرب، وكذا أوجه التشابه في مختلف العلاقات الاجتماعية مع المجال الفيزيقي (Relation socio-spatiale) .

4. إعادة تنشيط الثنائية الباطنية "بدو // خضر" الماقبل رومانية :

الظاهرة الأخرى المهمة لهذه المرحلة هي إعادة تنشيط الترحال للمجموعات القبلية الكبرى المسيطرة على المسارات الحيوية لأقاليم شاسعة، علما أن هذه القبائل كانت منظمة بتدرج حسب عدد أعضائها وقوتها ومرتبطة ببعضها البعض عضويا وبصلة القرابة ⁽³⁾ .
زيادة عن هذا " النظام الأفقي " المتمثل في سلطات شيوخ القبائل، كان هناك " نظام عمودي" يجمع شيوخ القبائل ضمن مجلس أعلى موحد ينتخب رئيسا من بين أعضائه.

¹ الجزائر بين الماضي والحاضر ، مصدر سابق، ص:88

² الجزائر بين الماضي والحاضر ، مصدر سابق، ص:92

³ ابن خلدون : المقدمة ، ص : من 128 إلى 132

ينتخب الرئيس بالنظر إلى قوة قبيلته، وسنه، وخبرته في قيادة الرجال وكفاءته في حل النزاعات وتجاوز الأزمات¹.

إن هذا الترحال الغير منقطع للقبائل ليس معاشا باعتباره لعنة أو قضاء وقدر، أو منفى، بل هو اختيار إرادي لنمط معيشي معين مرتبط بظروف إجتماعية - إقتصادية وثقافية معينة، وروح طليقة حرة، حذرة تجري وراء سبل العيش والبقاء كما يراها الباحث "هرمان لاي" HERMANLEY⁽²⁾ في تحليله للمجتمع البدوي عند "ابن خلدون".

ويضيف نفس المصدر إن الترحال الممثل " للمجتمع البدوي " هو في نفس الوقت المكمل " للمجتمع الحضري " والمتصدي له. وبهذا يقوم المجتمع الجزائري - في هذه المرحلة - على أساس الثنائية (الازدواجية) الباطنية بدو / حضر .

إن هذا الإشتغال، الذي استفحلت أصوله تحت تأثير الوجود الروماني، عاد بقوة - ثانية - مع مجيء العرب الفاتحين الذين يشتركون مع المجتمع المغربي في الكثير من المظاهر والممارسات الاجتماعية والنمط المعيشي .

❖ المجتمع البدوي (البدو) :

يمثله الرحل، الذين هم - حسب ابن خلدون⁽³⁾ - يمتازون بالحركية والسرعة في التنقل، ويشكلون وحدات قتالية قوية فهم حماة الطرق التجارية والقوافل .

¹ Brahim ZERROUKI : les institutions politiques dans l'œuvre d'Ibn Khaldoun et l'exemple de l'imamat de Tahart , pp : 241 à 254.

In : Actes du Colloque International sur Ibn Khaldoun, Alger 21-26 Juin 1978 ; pp : 250-251.

² Herman LEY : Société Bedouine et Société Citadine dans l'Oeuvre d'Ibn KHALDOUN

In : Colloque International Sur IBN KHALDOUN

Alger : 21-26 juin 1978 - SNED , Alger , 1984 - pp : 139 - 161 .

³ عبد الرحمان ابن خلدون : المقدمة ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ص: 125

وهم، بطبيعة الحال، القابضون للضرائب المختلفة الناتجة عن الحماية وحقوق المرور بالمناطق الواقعة تحت سلطتهم .

زيادة عن هذا، كانت هذه القبائل تعرض خدماتها وتضمن تحالفها مع السلطات القائمة على مستوى المدن والممالك، مقابل تنازلات وخدمات متفق عليها .

❖ المجتمع الحضري (سكان المدن) :

وهو متكون من سكان المدن والمجمعات الحضرية، المنحدرين، في أغلبهم، من البدو الذين استقروا بعد جذب الأموال واستثمارها بالمدن. وبهذا صاروا تجاراً، وصناعاً، وحرثيين .

ويرى ابن خلدون⁽¹⁾ أن تحضر البدو يفقدهم سمات الكرم، والشجاعة، والأناقة وقوة العلاقات التي تنجر عنها روح العصبية، وغيرها من الخصائص الأساسية التي مكنتها من الملك، والثراء والسلطان .

في الوقت الذي يصل إليه المجتمع الحضري إلى أوجه، تظهر ملامح انحطاطه نتيجة البذخ والوفرة وعدم التحكم في الأوضاع التي تصل إلى أقصى تعقدها.

وبتزامن مع هذه الأوضاع، يتهياً المجتمع البدوي، بفضل التراكم المالي - الناتج عن تربية المواشي، والتجارة مع القوافل والتبادل مع المدن - إلى الانتقال إلى مجتمع حضري أخذاً بهذا مكان المجتمع الحضري المنحط .

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص: 125

شيد ابن خلدون نظرية شاملة حول تطور المجتمع على أساس الثنائية (Dualité) الباطنية بين البدو والحضر. البدو يمثلون المجتمع البدوي {الطامع في التمدن} ، وسكان

المدينة الحضر {بدو الأمس}. وتكون " العصبية " ⁽¹⁾ هي المحرك الأساسي في تحول المجتمع البدوي إلى مجتمع حضري، " لأنّ البدو أقدم من الحضر " ².

أما عن تعريف العصبية فيقول ابن خلدون ما يلي : " اعلم أنّ الملك غاية طبيعية للعصبية ليس وقوعه عنها باختيار إنّما هو بضرورة الوجود وترتيبه كما قلنا مكن قبل... فلا بدّ فيه من العصبية إذ أنّ المطالبة لا تتم إلا بها كما قدمناه. فالعصبية ضرورية للملّة وبوجودها يتم أمر الله منها ... " ³

لهذا، فإنّ العصبية عند ابن خلدون، لا تعني التعصب والتصلب بل هي مصطلح يعني الاتفاق حول مقومات حضارية وممارسات اجتماعية والمواقف والأفعال الناتجة عن هذه العصبية تتجلى في الدفاع عن الصالح العام والمصير المشترك ، لتوفير شروط البقاء والنمو .

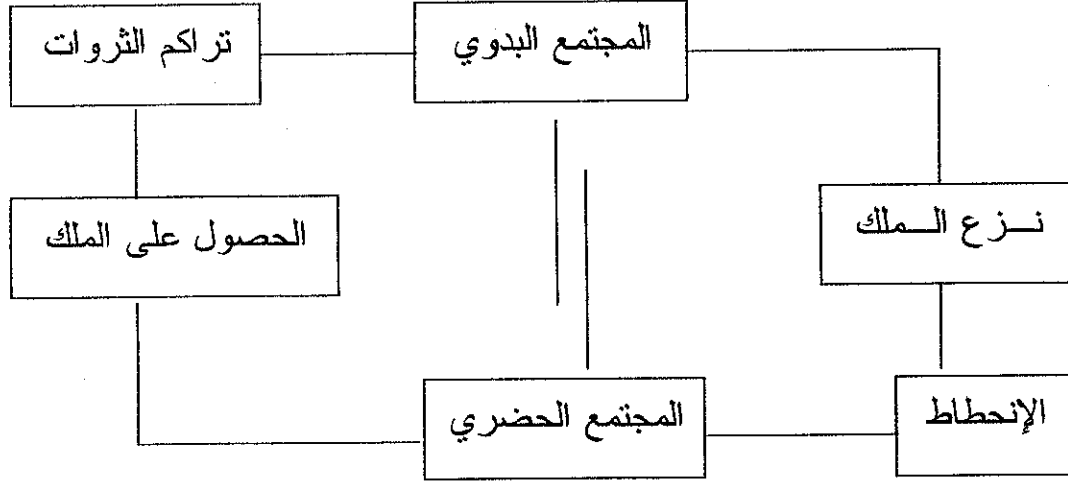
ومن أجل فهم أفضل لكيفية اشتغال هذه الثنائية بدو // حضر ، من جهة ، ومفهوم التطور الدوري للمجتمعات البشرية (P Evolution Cyclique des Sociétés Humaines) نقترح الرسم البياني التالي (من وضعنا) :

¹ المقدمة ، ص : 122 : ابن خلدون

² المقدمة ، ص : 122 : ابن خلدون

³ المقدمة ، ص : 202 : ابن خلدون

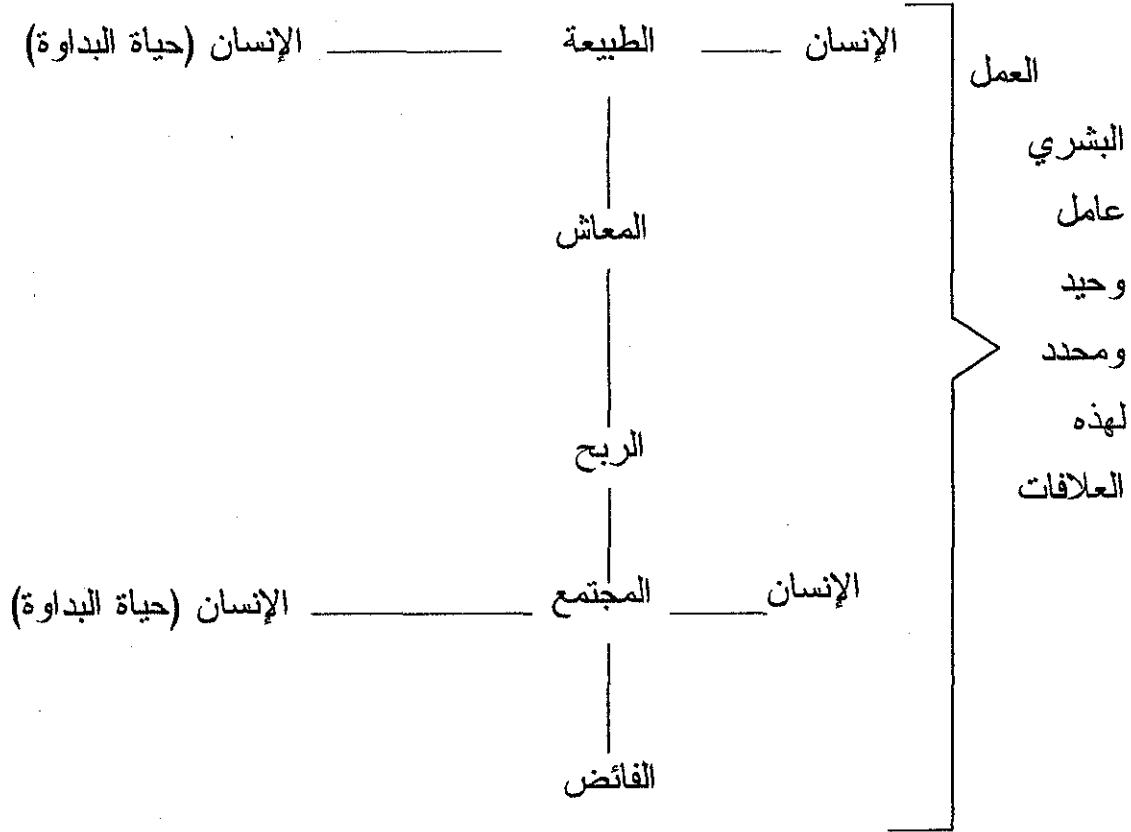
التطور الدوري للمجتمعات البشرية
خلدون عند عبد الرحمان اين



إنجاز: حسين رحوي

رسم بياني رقم :

أما الأستاذ محمد لخضر بن حسين (1)، المختص في العلوم الاقتصادية ' يبرز هذا الإشتغال للمجتمع المغربي - بدراسته لمؤلفات عبد الرحمان ابن خلدون - على نحو التالي :



إنجاز الأستاذ محمد لخضر بن حسين [ص: 11]
 رسم بياني رقم : إعادة رسم لـ : حسين رحوي

(1) الأستاذ محمد لخضر بن حسين [: دراستان في الفكر الإقتصادي عند عبد الرحمان ابن خلدون في المقدمة .
 سلسلة : الأديب - الشهاب - (الأوس) مطابع عمار قرقي - باتنة - ص: 11

نلمس من خلال هذين الرسمين أن المجتمع المغربي يسير وفق أوجه التعامل بين البدو والحضر، أو بعبارة أخرى من خلال العلاقات الرابطة بين المدينة والبادية (Rappports Ville-Campagne) .

كما نستخلص - من قراءة مقدمة ابن خلدون - أن هناك مستويين أساسيين في فهم أوجه العلاقات بين البدو والحضر:

• المستوى التكاملي : " Le Niveau de Complémentarité "

الذي يكمن في التبادلات التجارية والعلاقات الاجتماعية - الثقافية بين البدو والحضر ، الذين يلعبون دور " المحرك " في تنمية العمران الحضري (مساكن ، متاجر ، منشآت جماعية ، أسواق الخ) من جهة ، وتجهيز البادية بآليات ومواد مختلفة، من جهة أخرى ¹ .

ويعتبر هذا المستوى ، محركاً أولياً في العلاقات بين المدينة والبادية ، ويكتسي هذا المستوى طابع التعاون والتبادل على المنفعة المشتركة.

• المستوى التنافسي : " Le Niveau Concurrentiel "

عندما تصل المدينة (أي المجتمع الحضري) إلى مستوى عال من التنمية والتطور تبدأ في الانفصال تدريجياً عن البداوة ، باهتمامها الشبه الكلي بالنشاطات الحرفية والصناعية والتجارية وبلورة سلطاتها الاقتصادية والروحية والسياسية ، وبعبارة أوضح استقلاليتها ² .

¹ عبد الرحمن ابن خلدون : القدمة ، نفس الطبعة ، ص : 406 .

² محمد لخضر بن حسين : نفس المصدر .

والبدو (عامة) من جهتهم، بفضل تراكم الأموال والخيرات، يحسّون من مستوى معيشتهم ويطعمون، هم كذلك في الإقامة بالمدينة، أو بتأسيس مدينتهم .

ويقول ابن خلدون في هذا الصدد مل يلي : " ... ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي ويجري إليها وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي يحصل لهبه أحوال الترف وعوائده، عاج إلى الدعة وأمكن نفسه إلى قياد المدينة... " ¹ .

هذا الوضع الجديد- الذي يعتبر مرحلة ثانية في العلاقات بين البدو والحضر- سيؤدي لا محالة إلى مستوى علاقات تنافسية .

وانطلاقاً من هذه المعطيات يبدأ المجتمع الحضري ينحط تدريجياً، تاركا المجال للبدوة القوية ، الحذرة ، المندفعة والمتهورة، التي سوف تتحضر وتتطور على حسابها .

فإذا كان المجتمع الحضري لا يستطيع الوقوف أمام البدوة الناهضة، والبقاء كحقيقة مادية وروحية في مجال محدد ، ثابت ، فهذا راجع إلى حد كبير إلى انشغاله على المحافظة على المكاسب (العمران - الرفاهية ... الخ) مكتفياً بحماية مجاله الحيوي : المجال العمراني . { ... واستنموا إلى الأسوار التي تحوطهم... } ²

ومن الملاحظ ' أن قطيعة المدن مع أقاليمها كان له تأثير سلبي، سواء على المستوى الاقتصادي حيث كانت البادية هي الرئة التنفسية للمدينة ، وذراعها الواقية من الهجمات والاعتداءات على المستوى الأدنى، كما تبيّن ذلك تاريخياً من خلال عدد الحصارات التي عرفتها مدينة تلمسان ،على سبيل المثال .

¹ ابن خلدون ، القدمة، ص: 122

² نفس المصدر، ص: 125

2 العرب ومفهوم "المجال المتحرك"

إن مجيء العرب إلى أرض المغرب يشكل القطيعة مع المفهوم الروماني ،
في التعامل مع الفضاء .

إذا كانت للرومان رؤية هندسية للمجال الفيزيقي، فإن العرب أعطوا الأولوية
للمجال الاجتماعي بتعاملهم ، بالدرجة الأولى مع القبائل المتحركة، المسيطرة على مجالات
ومسارات غير ثابتة. وبهذا كان يتحدد المجال الفيزيقي (أي المجال الإقليمي) في مدى
التحكم في القبائل ومساراتهم الحيوية.

ومن تم ، في مراحل الرخاء ، و الازدهار، كانت القبائل تبسط سلطتها على أقاليم
شاسعة وفي مراحل الأزمات، كانت هذه القبائل تنزوي في مسارات ومجالات متواضعة.

وبالنسبة للسلطة المركزية (السلطة السياسية) الكائنة بالمدينة - العاصمة، فإنها
كانت تلقي إشعاعها، وسلطتها حسب تحالفاتها مع القبائل المجاورة لها، والأقاليم الخاضعة
لسيطرة هذه القبائل .

ومن هنا يمكننا صياغة " مفهوم المجال المتحرك " (Le Concept d'Espace Mouvant)
❖ إن هذا المجال متحرك لأنه غير محدد فيزيقيا ، ومعالمه غير ثابتة ، من جهة ، ومن
جهة أخرى ، إنه مرتبط بشروط وظروف التحالفات القبلية .

إن هذه الرؤية للمجال المتحرك ' أو " العائم " تبين الليونة التي أدخلها العرب
في تسيير البلاد والعباد .

هذه الرؤية التي تعطي للمجال بعده الاجتماعي تسمح للقبائل بالاندماج والتكامل بكل حرية من أجل الانتساب إلى مشروع تأسيس مملكة والمشاركة في قراراتها وحمايتها ، بالمحافظة في نفس الوقت على تنظيماتها الداخلية ، والفصل في قضاياها بدون منازع .

• إن مفهوم " التكوين الاجتماعي-الفضائي " : " Le Concept de Formation Socio-Spatiale " المنتج خلال العشرية الأخيرة، والمتناول خاصة في الجامعات الأمريكية والكندية ، يعطي للمجال الإقليمي بعده الاجتماعي بوضع العلاقة الوطيدة بين الإقليم، كمساحة مادية ، والشعوب ، أو المجموعات البشرية التي تعيش فيه .

وهذا ما يؤكد لنا أن العرب - في عهدهم الذهبي - كانوا يتعاملون مع الأقاليم والشعوب الخاضعة لسلطاتهم بنوع عال من العلمانية والوضوح ، والموضوعية . وأن رؤية العرب إلى المجال لم تكن عشوائية ، بل ناتجة عن أوضاع اجتماعية - اقتصادية وثقافية معينة وأشكال تنظيمية واضحة .

نرى أنه من المهم أن نضيف ' بأن التلاحم الاجتماعي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأشكال الخاصة بالتنظيم الاجتماعي عند العرب المسلمين حيث المصلحة الشخصية ، حاجاتها، اعتقاداتها تنطبق وتتوافق وتذوب مع المصلحة العامة.

هذا الشكل " الجمعي " يجد منبعه في العلاقات الدموية (علاقات القرابة والتناسب) التي توحد أعضاء القبيلة كما تتوحد في تعليمات الدين الإسلامي الحنيف (1) الذي يحث على التراحم ' والتعاون والتسامح .

(1) هذه كلها تعليمات وتشريعات أتت بها الدين الإسلامي والممارسات الاجتماعية الناتجة عن تطبيقه ' ولهذا يطغى الجانب الروحي ' والثقافي ' في المجتمع الإسلامي ' على الجانب المادي الإقتصادي ' الذي هو ليس غاية في حد ذاته ' بل وسيلة للبقاء والعيش الحلال .

ولهذا، إذا كانت العلاقات الاجتماعية في المجتمع العصري الصناعي تتسم
"بالآلية، أي علاقات عمل ومصالح متبادلة ، يطغى عليها الطابع الاقتصادي
(homo-Economicus) ، فإن العلاقات في المجتمع العربي - الإسلامي ، هي علاقات
اجتماعية وثقافية ، تتسم " بالعضوية " ، وتكون المعطيات الاجتماعية - الثقافية هي
التي تنظم الحياة الاقتصادية ، وليس عكس ذلك ¹ .

يمكننا أن نقول أخيرا - بدون تحفظ - أن كل شكل من التنظيمات الاجتماعية
يفرض نوعا معينا ، مناسباً للتنظيم الفضائي {الإقليمي} . كما يمكننا التصريح بأن التنظيم
الفضائي لا يمكنه أن يقوم على اعتبارات إدارية فقط، وبتعبير آخر أقوى وضوحا ، إن
الرسوم الحدودية ، جمع أو فصل المجموعات البشرية .

لا يمكن إجراؤها على الخرائط والقرارات ' بدون الرجوع إلى المعطيات
السوسيوولوجية والتاريخية لثقافة الشعوب و تاريخها ، ومصيرها المشترك ، وكذلك طبيعة
علاقاتها مع الأقاليم التي تعيش فيها وعليها ، لأن ذاكرة الشعوب أقوى من الحدود
المرسومة والمعهودة .

كدليل وحجة على هذه التأكيدات لنا مثل التركيب الإداري والسياسي للاتحاد
السوفيتي سابقا وانتهياره وإعادة انقسامه إلى دويلات مستقلة ، على أساس معطيات
اجتماعية وتاريخية قديمة العهد : كالعرق واللغة والدين والعادات والتقاليد الخ .

مثل آخر معطى لنا من قرار التقسيم الإداري سنة 1945م لألمانيا إلى دولتين
مستقلتين ' القرار الذي لم يستطع الثبات أكثر من خمسين سنة ، مثل الاتحاد السوفيتي .

¹ Emile DURKHEIM , même source ,

Lire Chapitre : Solidarité Mécanique et Solidarité Organique

الوضع المأسوي الذي عاشته البوسنة والهرسك بالأمس القريب وكوسوفه حاليا ،التابعان ليوغسلافيا سابقا ، ما هو إلا توضيح لتعلق التجمعات الإنسانية ، بمختلف فئاتها الاجتماعية والعرقية والدينية ' بانتماءاتها الحضرية وهويتها .
وما حماية الأقليات العرقية من طرف منظمة الأمم المتحدة (ONU) إلا واضحا على الأولوية المعطاة إلى المجال الاجتماعي - الثقافي في معالجة القضايا والخلافات الإقليمية.

3 إعادة إنشاء المدن تحت حكم الممالك العربية الإسلامية :

إن كل مجتمع ينتج مدنه ومراكزه الحضرية حسب خصوصياتها الاقتصادية - السياسية والثقافية والاجتماعية - التاريخية .

يخبرنا ب . شودا كوف (1) أن التمدن كظاهرة وعملية تشييد المدن ، هي تمثيل مادي للمجتمع . فهي تتطور على قياس تطور المجتمع ' أي على قياس تصوره للعالم ' وطبيعة سلطته السياسية ' وقدراته الاقتصادية والوسائل التكنولوجية المتاحة له (2) .
كانت المدينة عند الرومان عنصرا عمرانيا مندمجا ضمن شبكة جهوية ما بين المدن ، لها وظيفة الحضور القوية (place forte) العسكري والإداري للمراقبة والسيطرة على إقليم محدد.

¹ CHUDACOFF Howard P . [] The Evalution of American Urban Society (1)

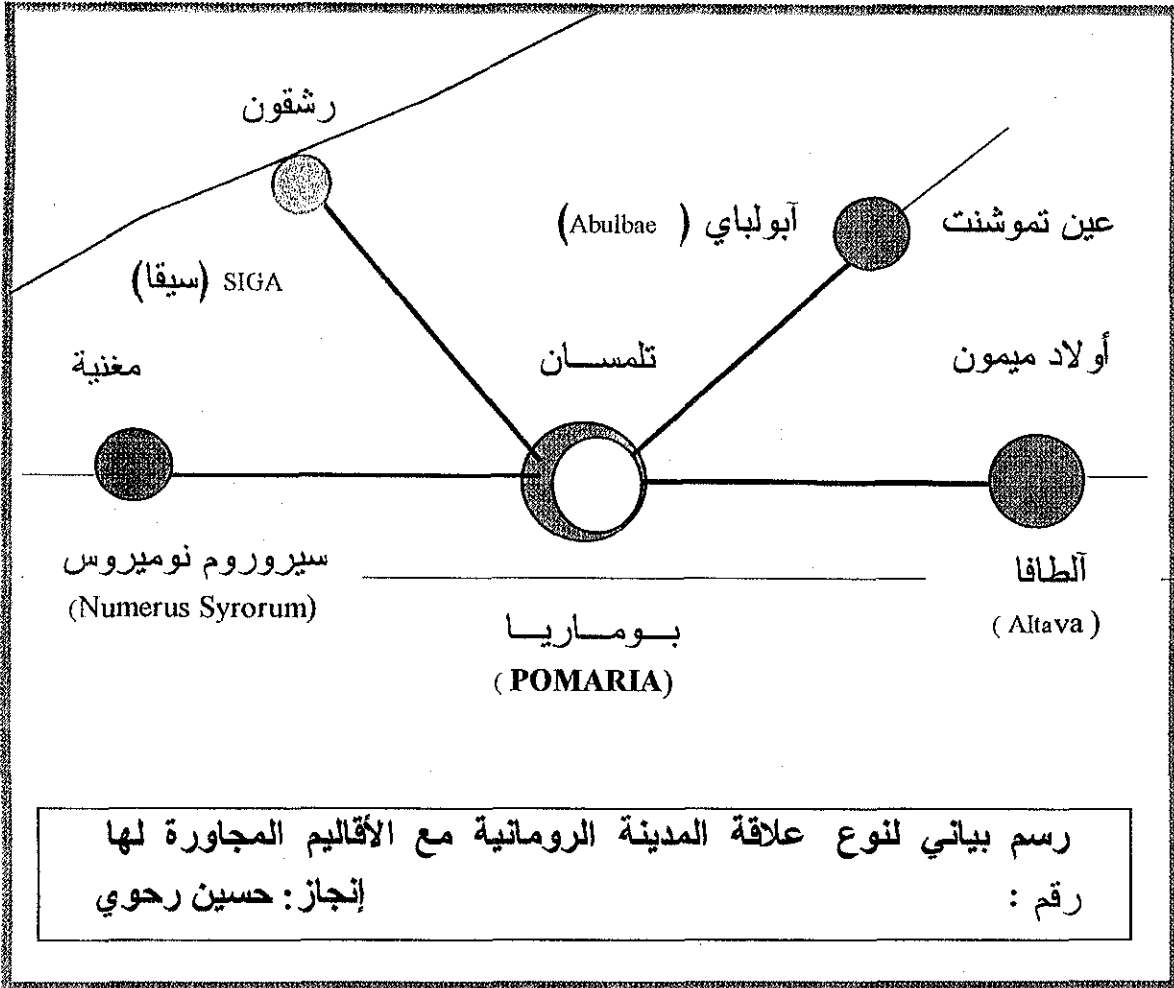
Prentice - Hall , inc , Englewood Cliffs , New - Jersey , 1975 Manille ,

Trad: L'Urbanisation à la Mesure de la Société -

Nouveaux Horizons - Philippines , 1977

(2) ناطحة السحاب ' الأحجام الضخمة للوحدات المعمارية و العمرانية الخ هم تجسيد المفهوم الأمريكي للقوية ' والعصرنة ' والتكنولوجيا الرفيعة ' الأمريكي " بالعصبة " . (American Dream)

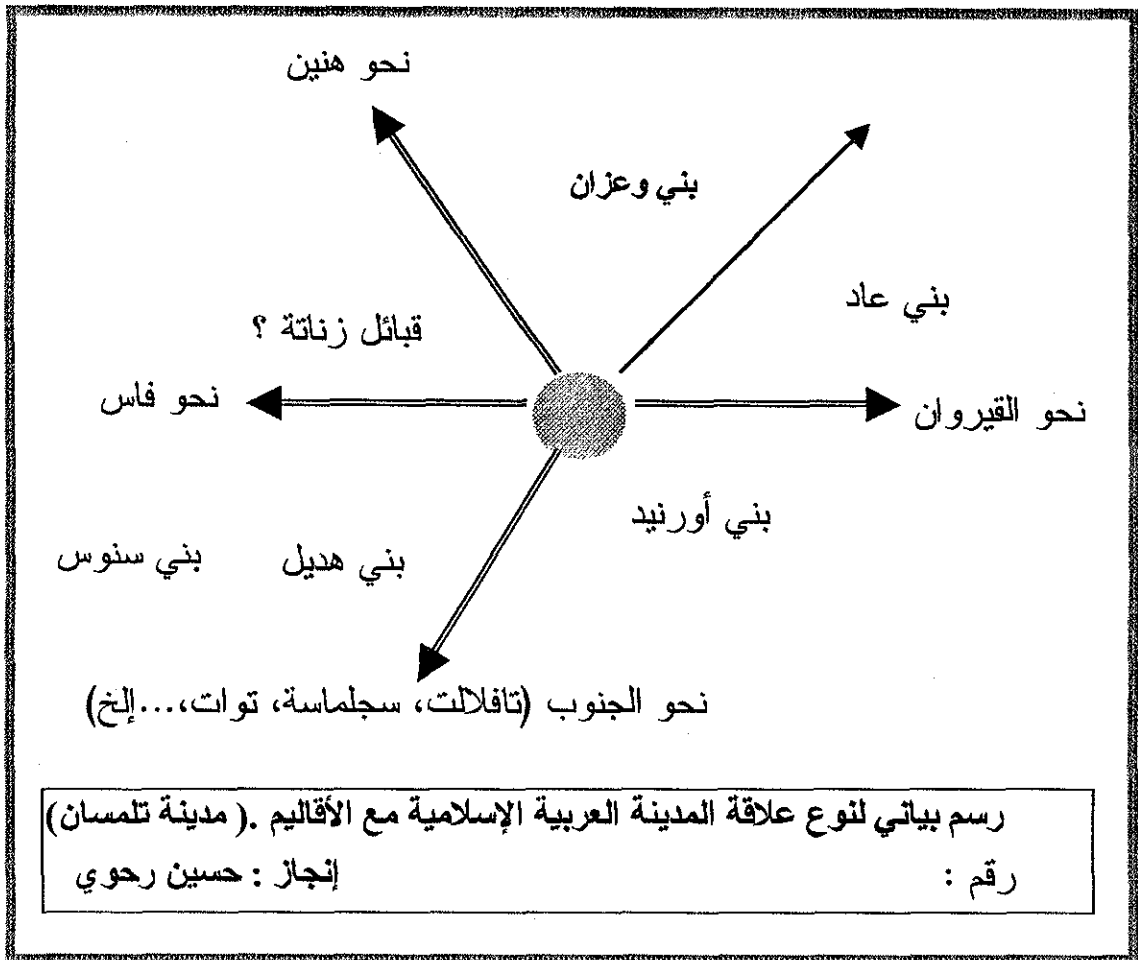
فالمدينة الرومانية تعتبر جزء من مجموعة أجزاء مرتبطة مع بعضها البعض لتأدية معا أدوار ووظائف معينة خدمة للسلطة المركزية القائمة بمقر الإمبراطورية الرومانية .



نلاحظ من خلال هذا الرسم البياني أن مدينة بوماريا الرومانية (تلمسان) تحتل مكانا مرموقا (إستراتيجيا) وهي مرتبطة براً وبحرا (سيفقا) بشبكة ما بين المدن (Réseau Inter-Urbain)

مدينة بوماريا ' التي هي قبل كل شيء مركز عسكري ' تقع على محور مراقبة طرق الاتصال ' الموقع الذي كان يؤهلها لحماية الحدود الغربية لموريطانيا القيصرية ' للإمبراطورية الرومانية .

أما المدينة العربية الإسلامية ' فإنها تقوم - منذ إنشائها - على أساس الاستقلالية فهي مركز السلطة ومجال عمرائي مهياً لبث الإشعاع القوي على الأقاليم المجاورة . وبهذا لم تكن المدينة العربية الإسلامية حلقة ضمن سلسلة من المراكز المتفاوتة الأهمية والمرتبطة بسلطة مركزية ' بل هي المحور الأساسي ومركز السلطة ، و الثقافة ، والتحضر . فهي العنصر المركزي الذي تنظم وتمحور حوله الأقاليم ' في ظل الثنائية التكاملية والتنافسية : بدو // حضر .



يتجلى لنا من خلال هذا الرسم الخرائطي المبسط أن مدينة تلمسان تحتل نقطة مركزية بالنسبة للقبائل المحيطة بها كما أنها تقع في مفترق الطرق الإستراتيجية لتتقل الأشخاص والأمتعة والبضائع المختلفة .

وبالتالي نظرا لعلاقتها مع أريافها والعالم الخارجي تجد نفسها مدعّمة .

• بنية ووظيفة المدينة العربية الإسلامية بالمغرب :

بناء على ما تقدم وأرتكازا على قراءاتنا وعلى خلاصات أبحاثنا عن العوامل و" الوظائف المركبة " التي كانت وراء نشأة وتكوين المدن ، يمكننا أن نستخلص ثلاث وظائف أساسية سمحت بتشييد وتطوير المدن تحت حكم العرب المسلمين بالمغرب :

• وظائف المدينة في المغرب :

1 - الوظيفة السياسية :

إن المجالات الواقعة تحت سلطات القبائل المتحالفة والتي كانت تشكل أقاليم متجانسة و منسجمة كانت تدعي إلى انتخاب مركز للسلطة السياسية ' أي مركز لإتخاذ القرارات .

ومن متطلبات إقرار مركز للسلطة المركزية وبعناصرها التنظيمية لتسيير ومراقبة وحماية فضائها الحيوية ' هو الإنتقال من حالة التنقل (البداوة) إلى حالة التمدن (التحضر) ' إذن ' كان لابد من تأسيس المدينة وبهذا ' تظهر المدينة كعنصر حتمي ' ضروري لإرساء مركز ثابت للسلطة السياسية المنظمة للحياة الإجتماعية والإقتصادية .

إن تشكل هذا التنظيم السياسي و الإجتماعي- الفضائي يتجلى في صورة مجال " إقليمي متحرك " . هذه الحركية ناتجة عن حركية القبائل القائمة على هذه المجالات والمسيطرة عليها .

داخل هذا المجال المتحرك المبني على أساس التحالفات الظرفية للقبائل تتطور الوحدة العمرانية على شكل مدينة حيث تنتظم الحياة السياسية والاجتماعية - الثقافية و الاقتصادية .

إذن التنقل من البداوة إلى التمدن يمر بتأسيس المدينة وأول مدينة تكون بالضرورة عاصمة سياسية، أو مركز تجاري¹ .

نعتمد بهذا التصريح على الأمثلة التي آسنتيناها من قراءتنا لمؤلفات عبد الله

العروي .

مثلا :

* تيهرت ← أول مدينة ← عاصمة الرستوميين .
* تلمسان ← أول مدينة ← عاصمة الزيانيين .
* بجاية ← مركز هام ثم ← مدينة-عاصمة الحماديين

ثم بعد تثبيت السلطة المركزية في المدينة العاصمة ، تظهر المدن الثانوية التي تلعب دور المناوبة وتقتصر على النشاط التجاري . يخبّرنا عبد الله العروي أن مدينة القيروان أنشئت لأنها تقع في ملتقى الطرق التجارية .

هذه الوظيفة السياسية هي "وظيفة مركبة" لأنها تحوي وظائف ثانوية مرتبطة بها.

نذكر على سبيل المثال :

• الوظيفة الثانوية الإدارية :

التي تخدم تنظيم هياكل السلطة والتنظيم الإداري لأقاليم المملكة ، وتسيير شؤون المواطنين والممتلكات .

¹ مقابلة مع الدكتور محمد بن عيسى، معهد الثقافة الشعبية، سنة: 1992

• الوظيفة الثانوية العسكرية :

التي تمكن من إثبات السلطة القائمة ، والمحافظة على الأمن المدني و حماية
كيان المملكة داخليا وخارجيا .

2 - الوظيفة الروحية :

الوظيفة الثانية التي تقوم بها المدينة العربية الإسلامية هي الوظيفة الروحية (الدينية) . الفتوحات الإسلامية هي قبل كل شيء مهمة مقدسة تستهدف نشر الإسلام
كدين للعالمين .

تكون المدينة إذن، المكان والمركز المفضل لإشعاع ونشر الإيمان بما يحمله من
تعاليم ومبادئ عقائدية .

وكذا في تطبيق هذه التعاليم في الحياة اليومية ' التي تتجلى واضحا من خلال النمط
المعيشي ومن خلال أوجه التنظيم الإجتماعي .

وبهذا، يتيح الأسلوب المعيشي الحضري بتشييد وإنشاء التجهيزات الدينية والثقافية
والتربوية الثابتة ، لأن الفعل الإيماني يتطلب التمدن.

التجمع السكاني يكون إحدى الشروط الأساسية والهامة لنجاح مشروع المجتمع
الإسلامي .

هذه الوظيفة الروحية مرتبطة إرتباطا وثيقا بالوظيفة السياسية التي تأخذ على عاتقها
نشر الإسلام وحماية المسلمين ، وبهذا تكون الدرع الواقى لهذا المشروع والضامن
لتطبيقه في الحياة الإحتماعية والإقتصادية ، والتشريع والحياة الإجتماعية و الإقتصادية ،

من جهة ، وفي تشييد المساجد ' المدارس القرآنية والجامعات ، وكذلك التجهيزات الإجتماعية ' الثقافية و الإدارية.

ولهذا ، تحتفظ السلطة بحق تمثيل هذه الوظيفة (الروحية) التي تعطيها الشرعية في حمل مشعل المجتمع الإسلامي وقيادته .

هذه العلاقة العضوية تكمن في أن الحاكم ، -أو الأمير - في تاريخ تقاليد الحكم الإسلامي - ينبوأ مكانة " أمير المؤمنين " .

زيادة عن القوة التي يستقيها الملك ، أو الحاكم من قبيلته وحلفائه ، فإنه يثبت منصبه على أساس انحداره من سلالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام . ومن هنا ، يحتل الملك - في نفس الوقت - منصب القائد السياسي والقائد الروحي .
ومن الملاحظ أن إرتباط هاتان الوظيفتين لا زال قائما .

نذكر كدليل على إستدلالاتنا جلالة الملك محمد السادس، ملك المغرب الذي ينحدر من سلالة العلويين ، وبهذا يحتل منصب الملك ومنصب " أمير المؤمنين " ، وكذلك شأن الملك عبد الله ابن الحسين، عاهل الأردن الذي ينحدر من السلالة الهاشمية .

بالنسبة للجزائر ' نذكر " الشيخ بوعمامة " الذي كان القائد الروحي والسياسي والعسكري ' الذي قاد قبائل الجنوب الوهراني (عين الصفراء) .

كذلك " الأمير عبد القادر " الذي حاول تجديد وإصلاح الدولة الجزائرية إلى دولة عربية مسلمة عصرية، والذي وضع اتصالا مباشرا بين الوظيفة السياسية والوظيفة الروحية .

تصاحب هذه الوظيفة الرئيسية الوظيفتان الثقافية والإيديولوجية .

• الوظيفة الثقافية :

تتضمن مجالات التربية والفنون والعلوم المختلفة ، كما سوف نراه عند تناولنا "خاتم الشخصية العربية الإسلامية في عمران مدينة تلمسان " الذي يتجلى ماديا في تصاميم العناصر العمرانية والمعمارية المكونة للمدينة ، وفي المنتجات الفنية المرتبطة بهذا الميدان.

• الوظيفة الإيديولوجية :

التي تنشط " كقالب منظم ومبرر للممارسات الإجتماعية " ؛ فهي ترمي إلى قبول الوضع السائد والقيم المهيمنة ككل منسجم . وفي نفس الوقت تعمل هذه الوظيفة على إعطاء الصبغة الشرعية للنظام القائم وتكرس التثبيت بالإنتماء إلى الحضارة العربية الإسلامية .

3- الوظيفة التجارية :

هذه الوظيفة ذات أهمية عظمى كمثيلاتها ، لأن التجارة تحتل مكانة الصدارة في النشاط الإقتصادي ، في الحضارة العربية - الإسلامية .

في المرحلة ألما قبل إسلامية (الجاهلية) كان سوق عكاضة - وكذلك ماجنة وذي المجاز - ذات شهرة كبيرة لأنه كان عبارة عن تظاهرة تجارية وترفيهية وثقافية في نفس الوقت ، كما كان منبرا لبث الأفكار والأخبار¹.

¹ Mohammed SOUALAH : l'islam et l'évolution de la Culture Arabe

2° Edition, P & G , Soubiron, Alger, 1935 ;p: 19.

زيادة عن أنواع المنتجات والبضائع المعروضة للبيع (التوابل مواد غذائية¹ ملابس، مفروشات ... الخ) كانت هناك ، كذلك مصنوعات من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، ومختلف المنقوشان على الخشب وغيره ، والتي كانت عنصر المفضرة للتجار والبهجة للمشتريين¹ .

أما عن الجانب الترفيهي ، كانت تقام استعراضات للقوة، والمرونة والرشاقة (سباق ، مبارزة ، رماية ... الخ) وألعاب أخرى مختلفة .
فيما يخص النشاطات الثقافية نذكر :
• حلقات الشعر والرواية ، وأخبار العرب والأمم الخ² .

يخبرنا الأدباء وكبار الرحالة أن تجارة القوافل بين آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط كانت في هذه المرحلة مزدهرة . القرآن الكريم K يذكر خلال المرحلة الإسلامية وجود تجارة مزدهرة ، فمثال ذلك " رحلة الشتاء والصيف " التي أتى ذكرها في سورة قريش .

لهذا ، نفهم لماذا كانت المدينة ، تحت حكم العرب المسلمين ، متواجدة في وسط شبكة من الخطوط وطرق المواصلات ، وبأكثر دقة ، في ملتقى الطرق التجارية .

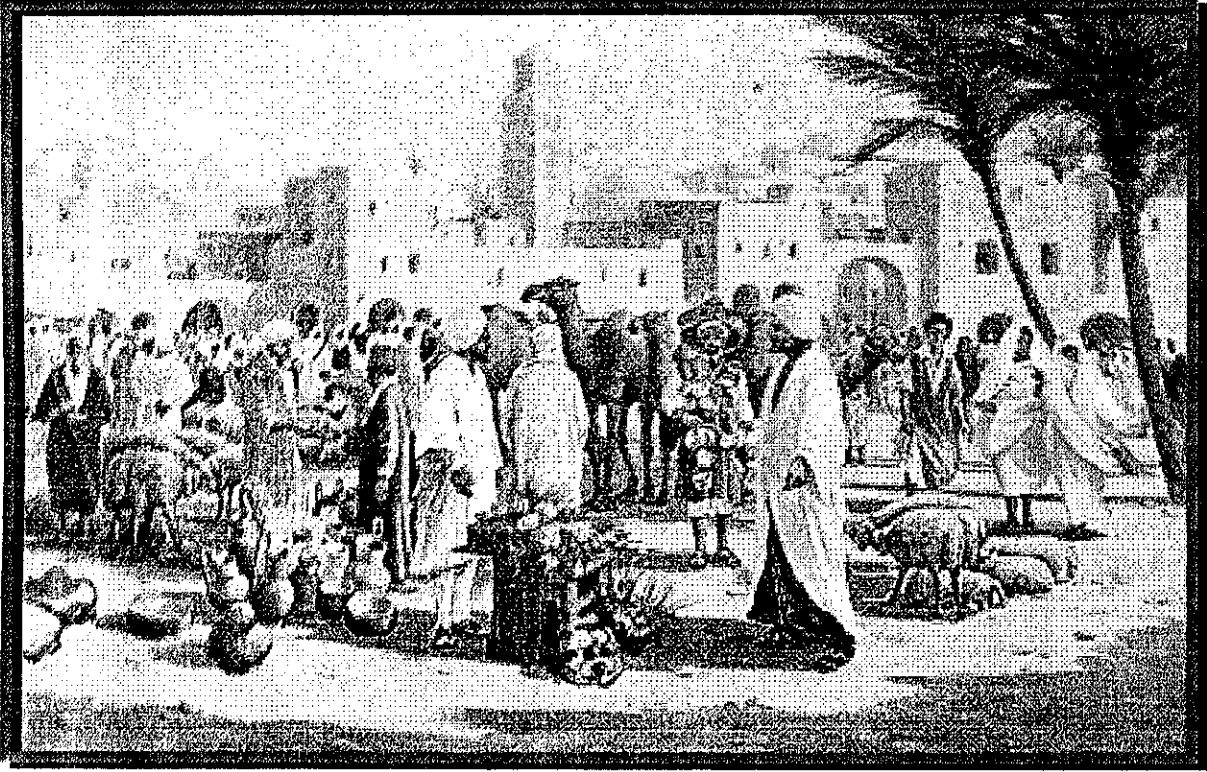
في هذه الحالة تكون المدينة ، منذ نشأتها مركز النشاطات التجارية والحرفية³ ، كما سوف تنسج من حولها شبكة علاقات تبادلية وتجارية مع بواديها ومع العالم الخارجي .

¹ Mème source, p : 19.

² Idem ; p :20.

³ سيدي محمد نقادي : التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية

رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان ، 1991 ، ص: 196



تم هذه العلاقات على ثلاثة مستويات :

1- الحوز :

هي المنطقة المتواجدة مباشرة على الحدود العمرانية للمدينة ، أي على حدود المحيط العمراني لهذه الأخيرة . هذه المنطقة المحيطة بالعمران ، يطلق عليها مصطلح ' « Zône Péri-Urbaine »

الحوز مكون، سواء من السكان المقيمين خارج الحدود العمرانية، سواء من فلاحين يعملون في حقولهم أوبساتينهم بالنهار، ويلتحقون بالمدينة عند غروب الشمس . وللحوز الدور الفعال في تموين المدينة بمواد الإستعمال والإستهلاك اليومية ، الضرورية لمتطلبات " المجتمع الحضري " ، حسب ما جاء في مقدمة أبن خلدون ، وهي

المواد الغذائية ، والمنتجات الفلاحية ، وحتى بعض المواد الأولية من جلود ، وصوف الخ وآليات ومصنوعات ذات الإستهلاك الجماعي والفردي ¹ .

2- الريف :

هي المنطقة المتكونة من المجال الريفي المبتعد عن المدينة ' والتي توفر المنتجات الزراعية (حبوب جافة) والخضر المختلفة والفواكه والمواد المنحدرة منها .
تكون المدينة مركز استقطاب وترويج البضائع والسلع والمواد المنتجة على مستوى الحوز والريف .

3- المبادلات الجهوية والدولية :

المدينة العربية الإسلامية هي ، في نفس الوقت، مدينة " تلاقي - الطرق " ومدينة المرور " ² .

وبهذا، كل الفائض الباقي والمنتجات سوف يصدر إلى مدن أخرى من أجل البيع ، والمقايضة والتبادل مقابل سلع أخرى غير متوفرة بالمدينة المصدرة .
وعلى قياس هذه المبادلات ، ستتطور شبكة تجارية على شكل " خيوط العنكبوت " مع مدن أخرى ، كما يظهر في الخريطة التالية :



¹ عبد الرحمن ابن خلدون : المقدمة ، ص: 406 إلى 409

² Jean PELLETIER et Charles DELFANTE : Villes et Urbanisme dans le Monde
Chapitre V : les Villes Islamiques, Editions Masson, Paris ; pp : 120-121.

• بنية المدينة العربية الإسلامية بالمغرب :

هذه الوظائف المركبة الثلاث التي تطرقنا إليها أعلاه ، ستكون الأكثر تأثيرا في نشأة ونمو المدينة كشكل تنظيمي متطور لنمط معيشي جمعي يعرف بـ " الحضارة " بمعنى " التمدن " أو " التحضر " .

السكن سوف يكون في هذه الحالة، مغايرا للسكن الملاحظ بالمناطق الريفية، أي السكنات المنجزة بالريف¹ لا يلغي بالضرورة تجمع المساكن في المدينة على حسب معطيات سوسولوجية تعكس علاقات القرابة ، والانتماء العرقي والعائدي .

هذا التجمع المتكون من وحدات بشرية متجانسة لازال ساري المفعول في المراكز الحضرية حاليا . نذكر على سبيل المثال، في الولايات المتحدة الأمريكية:

* حي السود بنيويورك (هارلم - HARLEM) .

* الحي اللاتيني ، والحي الآسيوي (CHINATOWN) بسان فرانسيسكو ، وبسطن .

هذه التجمعات ترمي إلى الإنقاذ حول نظام إجتماعي يحمي العادات والتقاليد من الإلتلاف ، ويضمن في نفس الوقت بقاء الأنماط المعيشية التي تميز هذه الفئات الإجتماعية والعرقية¹ .

إذن ، في نفس الوقت الذي تتجمع وتتحدد فيه الوحدات العمرانية إجتماعيا² إنها تسعى إلى إندماج ترابي مع الوظائف الرئيسية للمدينة .

هذه الوظائف " المدعمة " سوف تحدد وتشكل بنية المدينة .

¹ In, Pierre CHUDACOFF : l'urbanisation à la mesure de la Société, même Edition citée.

لهذا، يتم إسقاط هذه الوظائف على المجال العمراني للمدينة كالتالي :

*الوظيفة السياسية :

تكون ممثلة ميدانيا من طرف القصر، مركز السلطة، أو الديوان والمؤسسات الحكومية والتجهيزات العسكرية .

*الوظيفة الروحية :

تكون ممثلة من طرف المسجد ' معقل العبادة ' والجامعات والمدارس القرآنية وكل المنشآت ذات صبغة شعائرية وتربوية .

*الوظيفة التجارية :

تكون ممثلة بالسوق، القيصرية ، الشوارع التجارية المتخصصة، المستودعات ومساحات التخزين وورشات الحرف والمهن ، وكل ما له صلة بالإقتصاد والتجارة .

ولهذا تكون هذه الوظائف العنصر الأساسي في تأسيس المدن الجديدة، وبعث النشاط ' ثانية ' في المدن القديمة القائمة بالمغرب ' قبل مجيء الإسلام (المدن البربرية، الرومانية ، البيزنطية) .

كما تعين هذه الوظائف الشكل والحجم والتوزيع الوظيفي للفضاء العمراني للمدينة ؛ تسمى العناصر الفيزيائية الأساسية المسقطة على المجال بـ: *العناصر البنوية* Elements (Structurants) لأنها هي التي تعطي الصورة المكتملة للمدينة بمختلف وظائفها وتحدد بتمفصلها " *البنية العمرانية للمدينة* " Structure Urbaine .

من أجل فهم أكثر لهذا المفهوم في مجاله العمراني ' سوف نقوم بعرض الخصائص العمرانية الرئيسية للمدينة .

• بعض الخصائص العمرانية للمدينة العربية الإسلامية :

منذ الأزمنة الغابرة، عاش الإنسان في تجمعات متفاوتة الحجم، على شكل عائلات وعشائر وقبائل وعلى أسس الانتماء الجغرافي، والعرقى والعقائدي. وذلك بحثا عن الأمن والإستقرار، وعن الهوية الإجتماعية الثقافية الجماعية، والحفاظ عليها .

وهكذا، مرت الإنسانية - أو المجتمع الإنساني - تدريجيا من وضع المجتمع البدائي إلى المجتمع الحضري مركز السلطة، والثروة والثقافية .

وقد ظهرت عبر الزمن عدة أنواع من المدن :

- الطراز القديم الأكثر إنتشارا في الشرق الأوسط وفي حوض البحر المتوسط متمثل في " مدن الشرق العتيق " كالمدينة الإغريقية - الرومانية، والمدينة البيزنطية والمدن الإسلامية ، فيها نوع (طراز) ينتمي أصلا إلى " مدن الشرق القديم " .

هذه الفرضية مدعمة بالأعمال التي قام بها الباحث " أوجن ويرت

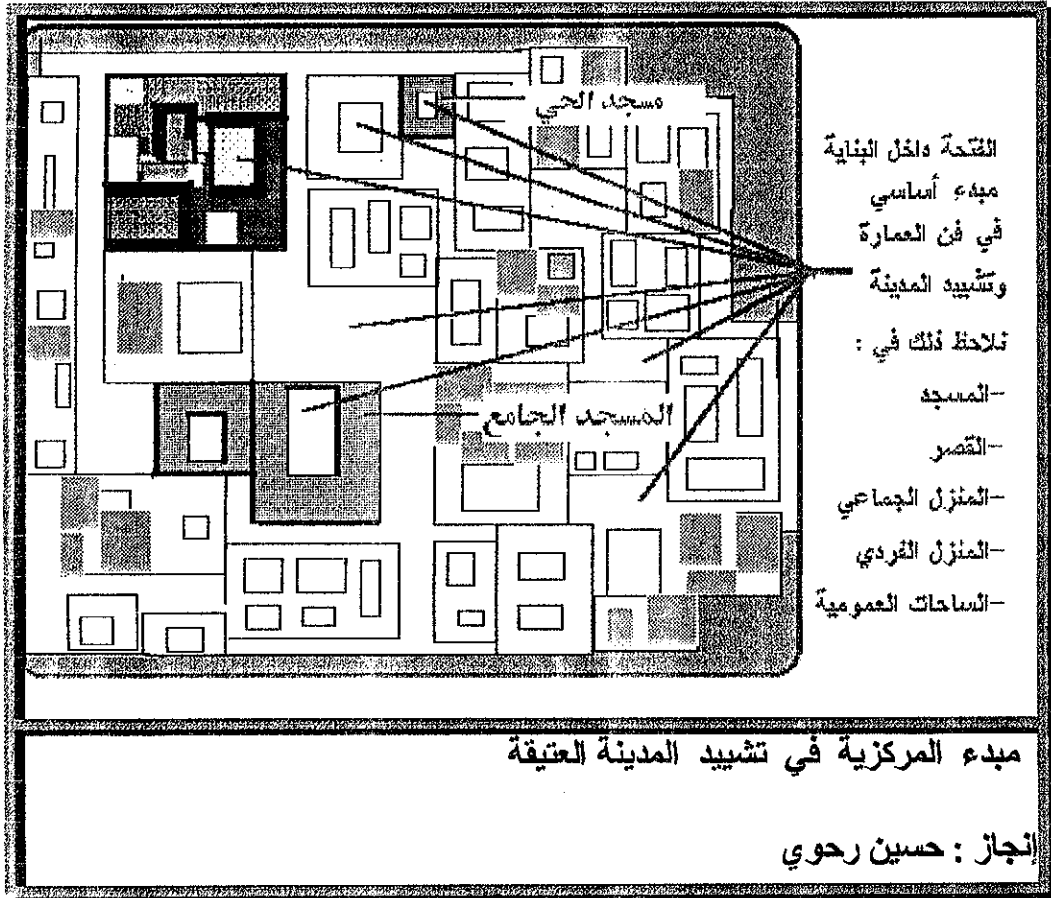
" (EUGEN WRITH)¹ الذي يعلمنا أن الحفريات التي أجريت في بلاد ما بين النهرين (Mésopotamie) أكدت وجود الأزقة والطرق الضيقة الفناءات الداخلية في المدن القديمة التي شيدت في هذه المنطقة من العالم وفي مدن الشرق القديم .

وأنطلاقا من هنا، ستبرز مدن على هذا الشكل مع مجيء الإسلام، وتتطور بعناصر مكونة جديدة ' خاصة التجهيزات المركزية كالقصر، والمسجد، والسوق، والمحاور النشيطة (الأنهج التجارية) .

¹ Cité par Denis GRANDET ,in Architecture et Urbanisme Islamiques,
OPU-ALGER , 1988 ; p :59

• كيف تتجلى المدينة العربية - الإسلامية للناظر ؟

عندما نتكلم عن المدينة العربية - الإسلامية أو عندما نراها من خلال نظرة جوية ' تبندئ الصورة تتوضح وترسم في أذهاننا .



أولاً ، نلاحظ أسواراً محيطة بمجال داخلي ' مركزي ' متكون من القصر ' والمسجد الرئيسي الذي تتجه صومعة إلى السماء الرحبة ' وسوق مستطيل أو مربع الشكل ' مفتوح ' وشوارع رئيسية تجارية ' تتجه نحو مخارج المدينة ' هذه المخارج تمتد إلى غاية الريف .

ثم تفرز لنا الرؤية مساكن متكئة وملتصقة ببعضها البعض ' بمظهر بسيط ومتواضع ' منظمة حول فناء داخلي ، هذه المساكن متصلة بالخارج عبر طرق رئيسية وأزقة ضيقة ومنعرجة ودروب مسدودة .

ارتفاع البناءات محصور عادة بين طابق أرضي وطابق علوي واحد (عاو : من 4 إلى 8 أمتار) .

أما اللون السائد في البناءات ' فهو يتأرجح بين الأبيض والبني البارد (Crème) الذي هو لون مواد البناء المحلية .

في المناطق الفلاحية ، غالبا ما تكون المدينة محاطة بحزام أخضر (بساتين) . هذه الصورة " الموحدة النمط " (Stéréotypée) مستنتجة من قراءتنا وممارستنا لعلم العمران والهندسة المعمارية { منذ أكثر من عشرين سنة} .

وقد ثبتت لنا هذه الصورة خلال الأبحاث الميدانية التي قمنا بمدينة تلمسان العتيقة¹ و عدة معلومات استقيناها عن مدن ندرومة وقسنطينة وقصبة الجزائر² .

من أجل فهم أفضل لبنية ومورفولوجيا المدينة كإنتاج عمراني عربي إسلامي مميز ، لا بد أن نرجع إلى أصول نشأتها .

¹ مسح هندسي لمجال الدراسة ، ومسح فوتوغرافي للعناصر الدالة، وكذا المقابلات مع بعض الشخصيات ...

² لمقارنة الأنماط واستخراج الخصوصيات المشتركة

يخبرنا الثنائي Jean Pelletier " و " Ch. DEFANTE " ¹ أن القبائل العربية التي شيدت " قبل الإسلام " عواصم الصحراء مثل " تدمر " خلال القرن الثالث الميلادي و " حظرا " خلال القرن الرابع ' والتي إستلهمت ذلك من زمن الإغريق والرومان والفرس، ستشيد بظهور الإسلام وانتشاره ، مدن مثل " البصرة " و الكوفة " (672 م) ، وخاصة مدينة " القيروان " سنة 670 م حيث نلاحظ بوضوح إدماج وتكريس المفهوم العربي الإسلامي الجديد للمدينة والحفاظ على مبدأ المخطط الرباعي الإغريقي - الروماني

ومن جهة أخرى ' إذا كانت " مكة المكرمة " العاصمة الروحية للإسلام و " يثرب " (المدينة المنورة) هي التي لجأ إليها النبي عليه الصلاة والسلام . ففي هذه المدينة ستولد المبادئ العمرانية الأولى الموجهة من طرف الدين الجديد (الإسلام) .

" ليس فقط لأن مدينة النبي يثرب . أول مدينة في الإسلام - ولكنها عبارة عن مرجع لأنها كانت قبل كل شيء مدينة النبي - عليه الصلاة والسلام - حيث عاش وحيث تبلورت عدة فضاءات وأماكن - لكن خصوصا لأنها كانت تعبيراً لحضارة صحراوية ولدت من القوانين التي تسير في كاملها حياة المؤمنين المنحدرين من الرحل ²....

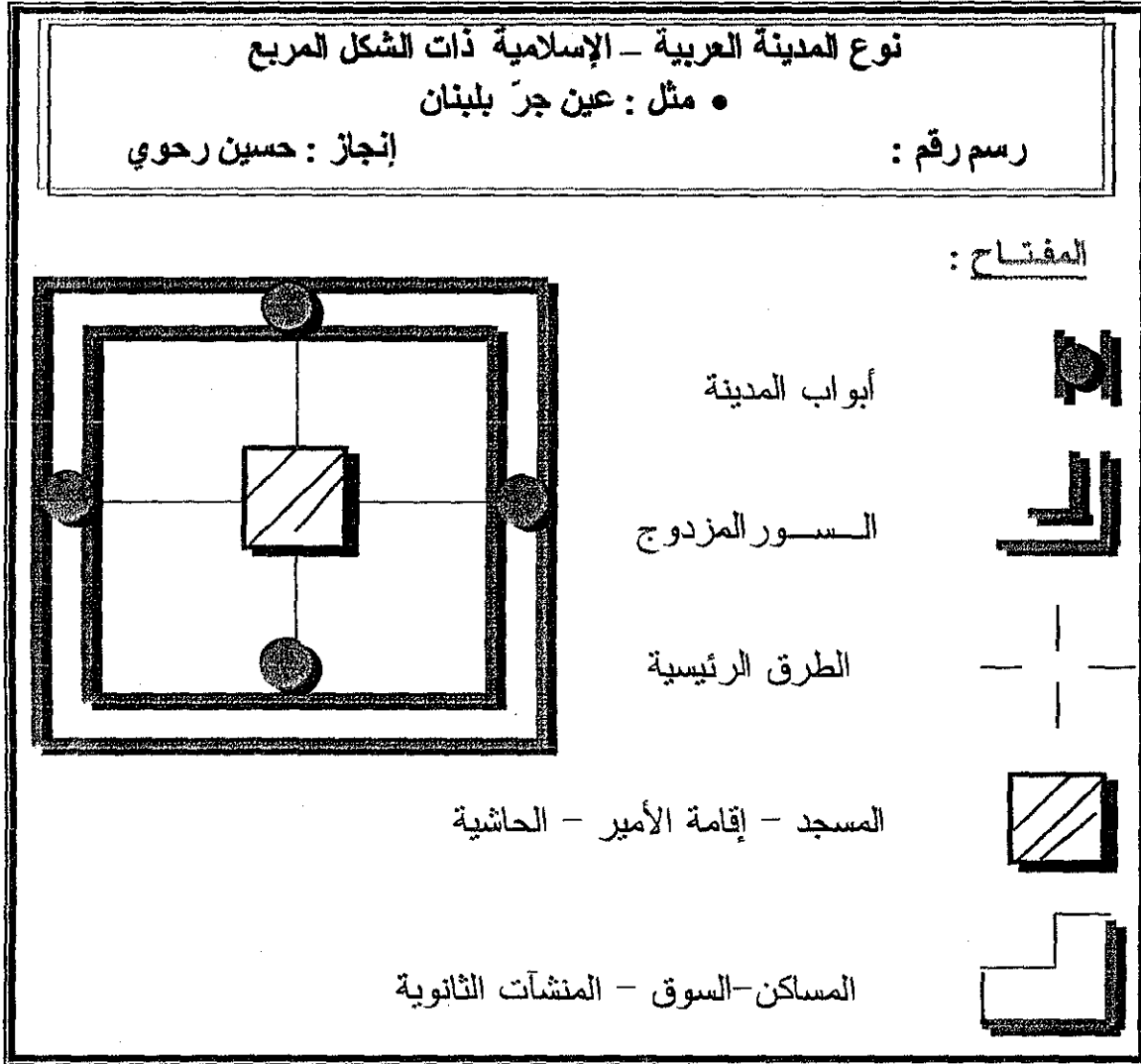
وهكذا برجعنا إلى الأصل نجد نوعين من المدن الإسلامية هذان النوعان سوف يختلطان بمرور الزمن نتيجة امتزاج الثقافات الجهوية التي أحتكت بالإسلام (الشرق الأوسط، آسيا، المغرب، أوروبا إلخ، وكذلك أنواع التكيفات مع معطيات التضاريس والمناخ .

* النوع الأول: الشكل الرباعي

¹ Jean PELLETIER et Charles DELFANTE : même source ; p : 121

² même source, p : 120

من المدن التي يعيد فيها تقليد المخطط الرباعي نذكر على سبيل المثال مدينة عين
الجرّ (لبنان) التي تعتبر إحدى المدن الإسلامية الأولى ¹ .
المنشآت المركزية مثل الساحة العمومية (FORUM) والمدرج وغيرها
استبدلت في المعهد الإسلامي بالمسجد الجامع وإقامة الأمير والسوق.



¹ Même source, même page (120)

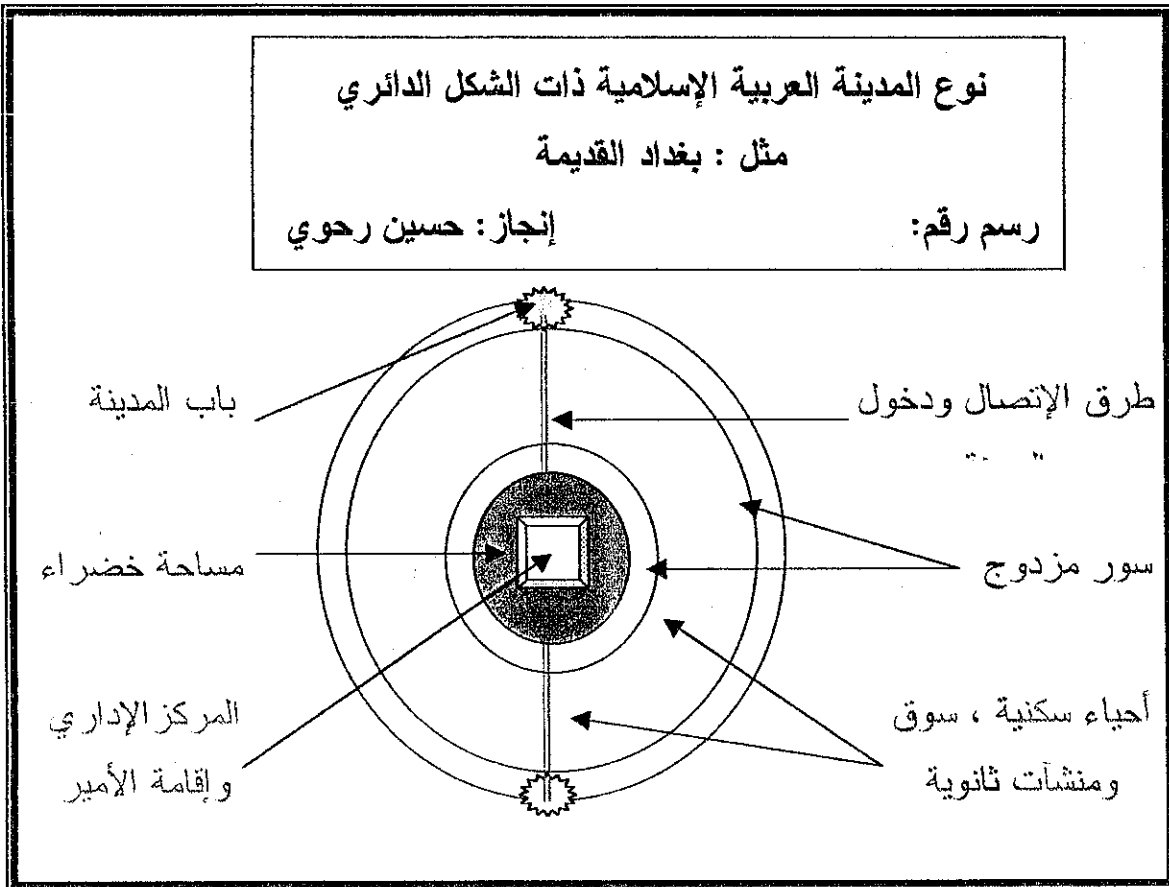
الطرق الرئيسية التي تلتقي في مركز المدينة هي في غالب الأحيان محاور تجارية نشيطة . في نواحي المركز ' نجد السوق ' نقطة المبادلات الظرفية .

المساكن والنشاطات الثانوية سيتمركزان عند حدود أسوار المدينة .

* النوع الثاني : الشكل الدائري

الممثل من طرف مدينة بغداد (العراق) .

كانت مدينة بغداد - عند نشأتها - مركزا عمرانيا ذا شكل دائري ، يتوسطه مسجدا ومفرا السلطة والإدارة في قلب الدائرة، والكل محاط بحزام أخضر وسور فاصل بين هذه الناحية الإستراتيجية من المدينة، وباقي المباني السكنية ومساحات النشاطات المختلفة التي - هي كذلك - محاطة بسور ثان يحمي المدينة من العالم الخارجي .



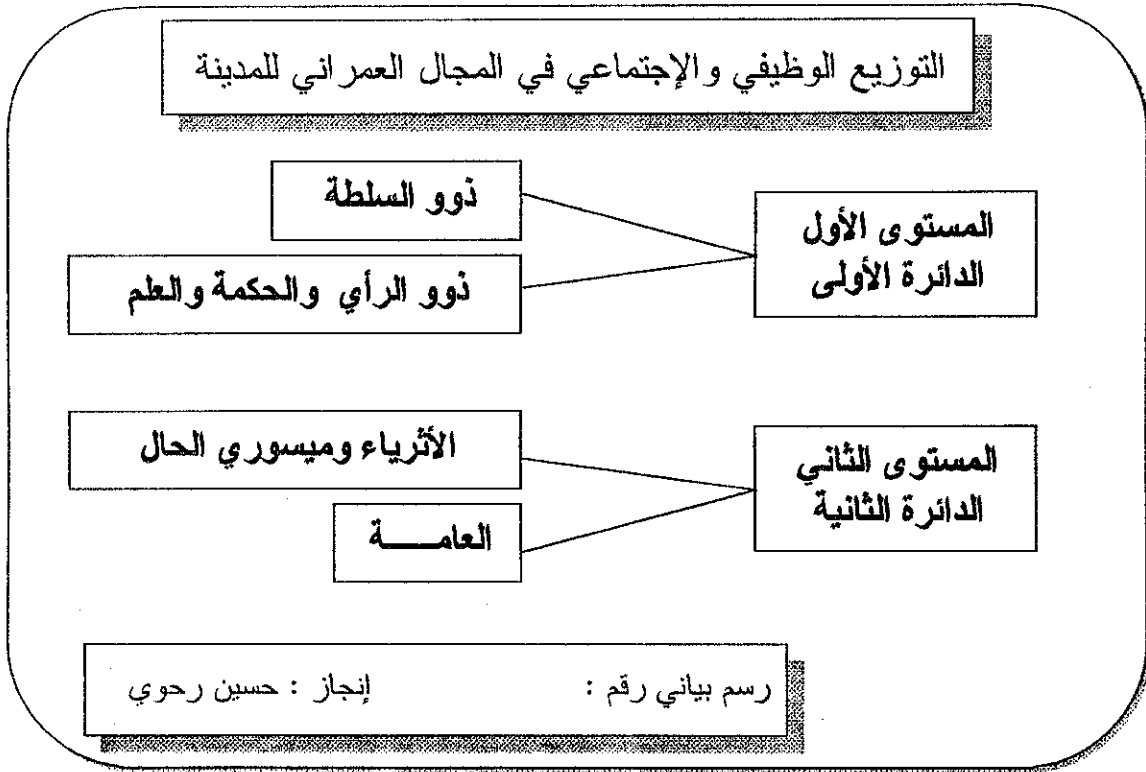
هذا السور المزدوج ' لاشك أن له دورين :

. أولا : الحماية ، لأن المدينة كمركز للسلطة للثروات ، كان دائما مستهدفا من الداخل (من طرف المتحالفين من القبائل المجاورة أو العابرة) ، ومن الخارج (من طرف الغزاة الأجانب) .

وهذه، هي الوظيفة الرئيسية للسور الأول (السور الخارجي) .

ثانيا : السور الثاني ، المركزي ، في نفس الوقت الذي يفصل فيه بين القصر (الوظيفة السياسية) والمسجد (الوظيفة الروحية) عن باقي الأجزاء المكونة للمدينة ' فإنه يحدد إختصاص مجالات هذه الأخيرة بإفراز فضاء السلطة والدين الذي سوف يجمع إجتماعيا الأمير والإمام والحاشية المتكونة من كبار وجهاء الأمة وعلماء وعسكريين من جهة ' وفضاء إقتصادي - تجاري من جهة أخرى ' وهو متكون من الأحياء السكنية والسوق والمحاور التجارية ومختلف المنشآت والنشاطات الثانوية ' والتي تتوزع بتراتب بالنسبة لمركز المدينة ' سكنات فاخرة ونشاطات نبيلة (ذهب ، عطور ، أقمشة فاخرة) مرورا بالسكنات والمحلات العادية ، وصولا إلى النشاطات الوسخة والمزرعة المتواجدة في مؤخرة النسيج العمراني .





وأخيرا ، لنا ملاحظة فيما يخص الشكل الدائري لهذا النوع من المدن .
هذا الشكل الدائري المحاط بحزام نباتي أخضر يوحي بماضي الرحل الذين طوّروا
مدنهم ابتداء من واحة صحراوية¹ .

وهذه الظاهرة يمكننا مشاهدتها حتى يومنا هذا بواحات الجنوب الجزائري حيث
يسمى المجمع السكني بـ " القصر " Ksar .

¹ les villes islamiques, même source, p : 120.

• المدينة إشارة ثقافية من الداخل :

خاصية أخرى للمدينة العربية الإسلامية، جديرة بالذكر، أشار إليها دونيس غراندي (Denis GRANDET) ،¹ تكمن في أن " المجتمع العربي الإسلامي ' شيد خلال القرون - في نفس الوقت - كفضاء للمؤسسات الاجتماعية وكفضاء للبناء العمراني بصفة غير منفصلة وغير منقطعة .

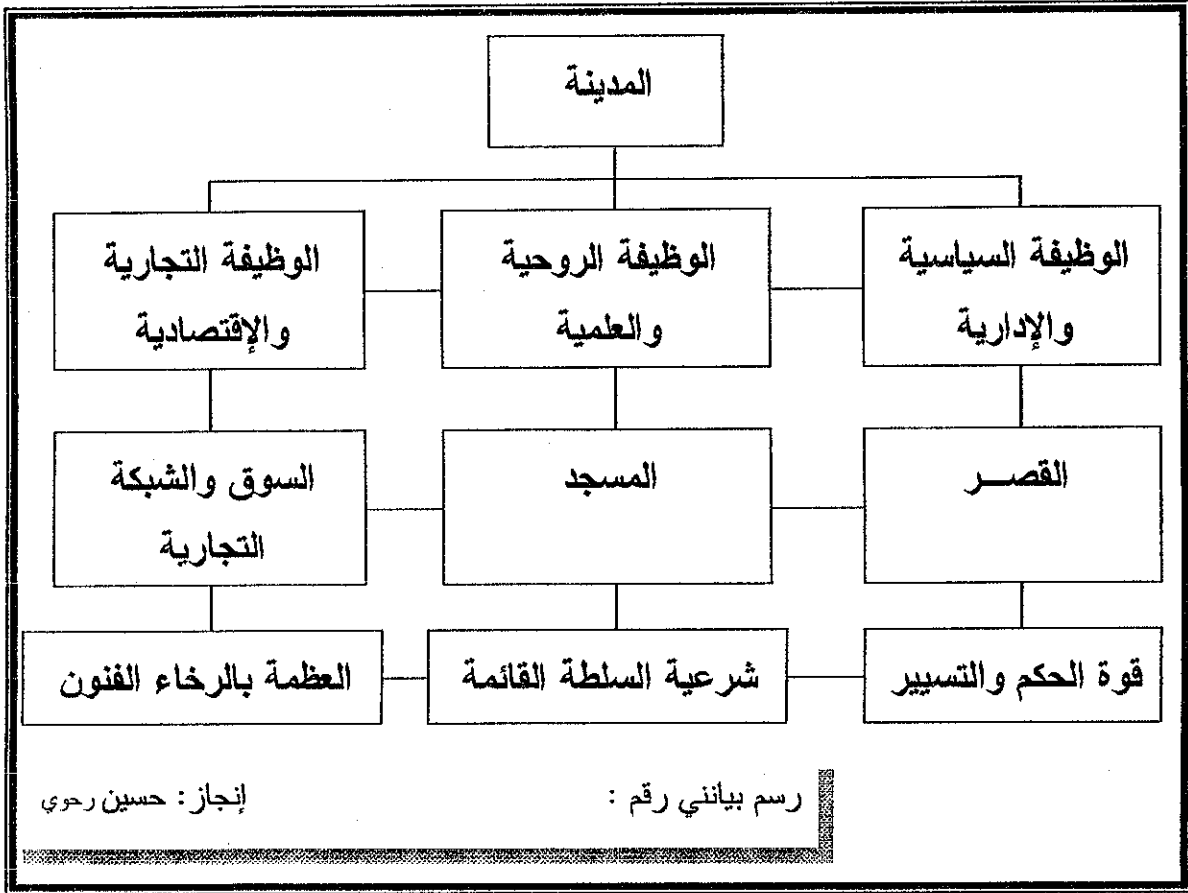
هذا يعني أن البحث في أشغال المدينة العربية الإسلامية ، لا بد أن يأخذ في الحسبان المجال الفيزيقي والمجال الإجتماعي - الثقافي في نفس الوقت .

لهذا ، إذا كانت المدينة الرومانية إلا عنصرا من بين العناصر المكونة لبنية شبكة ما بين المدن (Réseau inter - Urbain) ، فإن المدينة العربية - الإسلامية تشكل بنية مستقلة ذاتيا بأجهزتها وتنظيماتها السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، الثقافية .

الشيء الذي يجعل من المدينة العربية الإسلامية إشارة ثقافية من الداخل ناتجة عن شبكة داخلية خاصة بها .

¹ Denis GRANDET, même source ; p :62-63.

هذه الشبكة منظمة وظيفيا كالتالي :



هذه الشبكة المنظمة للمدينة - بهذه الطريقة - تستجيب إلى متطلبين أساسيين:

أولا :

ضمان إبقاء السلطة القائمة في الحكم لأن هذا النظام يضمن ديمومة
(Contimité) و إنتشار (Diffusion) الإسلام كدين ومشروع حضاري للمجتمع الإنساني . هذه
الرؤية طويلة المدى .

• ثانيا :

هذه الطريقة التنظيمية تمكن من تلبية رغبات الحاجيات اليومية والظرافية
للحضارة (التمدن) كنمط معيشي يتنافى مع الحياة البسيطة والهشة للبدو .

في هذا المعنى ، يتحتم على المدينة أن تتطور وتحافظ على مستوى عال من الكفاءة في الميادين السياسية، والاقتصادية والاجتماعية - الثقافية على المستوى العمراني وعلى مستوى الأقاليم التي تسيطر عليها .

هذان الهدفان لا يمكن بلوغهما إلا إذا كانت ظروف الإستقرار السياسي ، والرخاء الاقتصادي ، والإشعاع الثقافي والروحي مجتمعة .

عبد الرحمان إبن خلدون ' في مقدمته ' المذكورة من طرف زروقي إبراهيم (1) يقول أن القبائل - منبع السلطة السياسية والإيدولوجية - ينتخبون ' من بينهم ' أو عن طريق الإعتراف العلني ، رجلا {قائدا} يسمى " الوازع " ، فهو قوي ، يمارس سلطة فعلية، تُعطي له الحق في ترجمة طموحات القبائل المتحالفة بالقوة والسمو، والنفوق ' فهو يصدر الحكم بالقوة ويفرض الطاعة. ومن صفات " الوازع الحاكم " أن يكون حكيما ، هادئا، منظما لمنافضات القوى الإجتماعية المتواجدة في الساحة .

كما يتحتم عليه أن يكون في مستوى القيادة الروحية ' أي الإمامة ' لرعيته ¹ . بوقوفه ' فوق التناقضات ' سيسعى الحاكم إلى احترام " العصبية المتعادلة . منبع ودعم سلطته الدنيوية (Pouvoir Temporel) .

هذا يمكن الحاكم (أمير المؤمنين ' السلطان ' الأمير الخ) من الحفاظ على النظام القائم وتطوير مؤسساته وتوصيله للأجيال اللاحقة ' كما يمكن في نفس الوقت من الدفاع عن الإسلام ومقوماته وإيراز عظمة المملكة عن طريق النشاطات العلمية ' والإنجازات المعمارية والعمرانية ' والفنون الخ .

¹ Brahim ZERROUKI : les institutions politiques dans l'œuvre d'Ibn Khaldoun ; pp :241-254 actes du Colloque International sur IBN KHALDOUN, Alger, 21-26 Juin 1978 ; p :250

حسب الدكتور محمد بن عيسى¹ ، النظام الحاكم يستند على ثلاث "وظائف-دعائم :
القوة - الشرعية - العظمة .

- القوة عن طريق السلاح .
- الشرعية عن طريق الدين .
- العظمة عن طريق الفنون .

فيما يخص " وظيفة العظمة " مثله ' يعطي السلطان أهمية بالغة لهذه الوظيفة لأنها تعطي صورة حية ' واضحة ' ملموسة للحالة الاقتصادية للمملكة ' أي أن تجليات العظمة في الإنجازات المادية كالقصور والمساجد والدور الفخمة وكذلك مختلف الإنجازات الفنية² تكون بمثابة علامة كاشفة لمستوى الرخاء والإزدهار الذي وصلت إليه المملكة بواسطة الرواج التجاري النشاطات الاقتصادية ' وكذلك مدى التحكم في الوسائل التكنولوجية ' كما تظهر الذوق البارز للترف والبدخ والذوق الرفيع (Le raffinement) للسلطان وحاشيته .

وتبرز العظمة ، كذلك في الإهتمام بالميادين الفكرية والعلمية المختلفة ' بمجالسة وإكرام العلماء ورجال الدين والفنانين... الخ³ . ونشير إلى أن السلطان أو الأمير يجد سرورا ومفخرة في نقش إسم سلالته وتسجيله في المنجزات المعمارية والقطع النقدية والتحف المختلفة .

¹ الدكتور محمد بن عيسى متخصص في علم الاجتماع السياسي، معهد الثقافة الشعبية، تلمسان، 1992

² معاينة ميدانية للمساجد على وجه الخصوص.

³ كما أشار إليها ابن خلدون ومعاصريه

كل هذا يظهر مستوى التحضر (أي التمدن) الذي وصلت إليه المدينة العربية -
الإسلامية ، المستوى الذي يجتبل منها نقطة جذابة للخيرات ، ومركز استقطاب للعلماء
والمفكرين والفنانين و ذوي المهارات .

هذا المستوى من الكفاءة للمدينة العربية الإسلامية كان يجبر على الإحترام
والتقدير، ويثير إعجاب المملكات المجاورة لها (وكذلك كان يجلب الأطماع والنوايا
الغامضة...) .

الفصل الخامس

تلمسان عاصمة الزيانيين:

فضاؤها الاجتماعي – الثقافي وعمرانها

➤ كلمة عن تاريخ تلمسان

➤ أسباب اختيار مدينة تلمسان كعاصمة لسلالة بني زيان

➤ التحليل الاجتماعي – الثقافي لمدينة تلمسان

▪ على المستوى العمراني الشامل

Le Niveau Macroscopique Global

▪ على المستوى المجهرى

Le Niveau Microscopique de Détail

الفصل الخامس :

تلمسان عاصمة الزيانيين فضاءها الإجتماعي-الثقافي وعمرانها

كما رأينا ' كانت تلمسان ' منذ القدم ' مركزا للتجمع الإنساني .
وهكذا، بعد ما كانت معسكرا، ثم مدينة رومانية (بوماريا) ' إستمرت ' مع ظهور الإسلام
في استقطاب وإغراء الفاتحين ومشيدي المدن والمملكات، كما صارت لعدة ، مرات هدفا
مغريا للمملكات المجاورة لها ' خاصة جيرانها المغاربة .

سنحاول في بضعة سطور، ومن خلال بعض المعالم التاريخية ' رسم المراحل
الحاسمة التي صاغت وحددت مصير مدينة تلمسان من مرحلة إنحطاط الرومان الى غاية
تأسيس المملكة الزيانية .

وهكذا، تحت أنقاض مدينة بومارية الرومانية، برزت مدينة أغادير (الكلمة تعني
الصحن أو الصخرة المنيعة)¹ ربما لإتكائها على هضبة " لآلة ستي " . محدودة من
الناحية الجنوبية بالهضبة، تطورت مدينة أغادير ، وانتشرت من الشرق إلى الغرب
صعودا إلى منطقة " باب العقبة " .

بدأت مدينة أغادير بالاحتكاك مع الإسلام في القرن السابع مع أبي المهاجر،
وفي القرن الثامن، أسس أبو قررة الخارجي مملكة لا نعرف عنها إلا القليل، مملكة محلية
متواضعة حسب المعطيات التاريخية الحالية .

¹ عبد الوهاب ابن منصور : تحليل لغوي وتاريخي لأسماء وألقاب دُعيت بها حاضرة الغرب الأوسط ، ص : 9

في القرن التاسع ، إحتل الأدارسة أقادير التي عرفت حقيقة الإسلام كدين ونمط معيشي، وذلك بفضل إحتكاكها وتأليفها مع الحضارة الإسلامية .
وأحتلها الصنهاجيون (من فريق الفاطميين) في أواخر القرن العاشر.

في القرن الحادي عشر، بعد حصار طويل، أسس المرابط يوسف بن تاشفين، مدينة تاغرارت بادئا بتشييد " المشور " الذي حطّ فيه معسكره. هذا الموقع الذي سمح بالاستلاء على مدينة أقاديرن، يحتل مكانة إستراتيجية، نطل وتهيمن على أغادير والهلال الخصب المحيط بها .

تلاحم مدينتي " أغادير " و " تاغرارت " أعطى محيطا عمرانيا أوسع أطلق عليه إسم مدينة " تلمسان " . وكلمة تلمسان اسم مشتق من كلمة أمازيغية هي " تلموس " أو "تليماس" وتُجمع على تيليمسان ،بمعنى جيوب الماء .¹

وعند عطى الله ذهنية، كلمة " تلمسان " هي جمع " تلماس "، من أصل بربري، وتعني أيضا " العنصر أو جيب الماء " .²

في القرن الثاني عشر ، شهدت المدينة غزوا عنيفا من طرف الموحديين الذين نهبوا خيرتها ودمروا عمرانها .

بعد ذلك ، في عام 1241م ، بينما كان يغمراسن يضع أسس مملكة بني عبد الواد، دخل الحفصيون منتصرين إلى تلمسان ، ولم يخرجوا منها إلا بعد خطبة ألقيت بالمسجد الكبير ، نقر الولاء للمملكة الحفصية .

¹ سيدي محمد نقادي : مصدر سابق،ص:12 - مشيرا إلى عبد الوهاب بن منصور، نفس المصدر،ص: 16

² Atallah DHINA : le royaume Abdelouadide à l'époque d'Abou Hamou Moussa I^{er} et d'Abou Tachfin I^{er} , OPU-ENAL , alger 1985 ; p :31.

وقد واجهت مدينة تلمسان عدة محاولات عدوانية من طرف جيرانها المغاربة ، خاصة المرينيين ، وتكررت المحاولات حتى لم ينزدد المؤرخون إلى استعمال لفظ "الخطر المريني" على المملكة الزيانية ، في تناولهم لهذه المرحلة الحاسمة في تاريخ مملكة المغرب الأوسط .

وبعد ثلاث (03) محاولات فاشلة لاجتياز الأسوار الحصينة لتلمسان ، قرر السلطان المريني أبو يعقوب إخضاعها عن طريق تجويع سكانها بحصار طويل المدى ، فبنى حولها جدارا {سورا} عاليا وأسس مدينة المنصورة ، ودام الحصار مدة ثمان (08) سنوات (1299-1307م) .

يقول عمرو دهبنة عن هذا الحصار ، أن "تاريخ الإنسانية لا يعرف إلا عددا نادرا من الحصار التي آسمت بطول هذه المدة" ويهذه البشاعة " ¹ .

ولم يبق من هذه "المدينة - المعسكر" {المنصورة} المتكونة من قصر ومسجد وعمارات مختلفة ، إلا الواجهة الشمالية لمنارة فاتكة الجمال ، وبقايا أسوار تتحدى الزمن .

ولم يكن هذا الحصار من طرف المرينيين هو الأخير ، إذ أعادوا الكرة في سنة 1335م ، ودام الحصار مدة سنتين (1335-1337) .

هذه الأحداث التي سردناها بإيجاز تظهر مدينة تلمسان تارة قوية ، صانعة مصيرها وتارة خاضعة للقوة ، وتارة ثائرة ، وفي الأخير منتصرة ، لأنها استطاعت تكوين دولة حقيقية ، قوية بسطت سلطتها على "أكبر جزء من الجزائر الحالية" ¹ . كانت تمتد من وادي الملوية غربا إلى وادي الصومام شرقا ، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى الصحراء جنوبا .

¹ Amar DHINA : cités musulmanes d'Orient et d'Occident
ENAL-Alger, 1986 ; p : 84-85

تجدر الإشارة إلى أن موقع تلمسان الغربي ، بالنسبة لمدينة بجاية التي تقع في أقصى شرق المملكة الزيانية ' أرجعت ممارسة الحكم الحقيقي تخص المنطقة الوهرانية والجنوب الغربي للمملكة في بعض المراحل ' نتيجة ضغوط وعدوان جيرانها (الحفصيين شرقا، والمرينيين غربا) .

وأخيرا ، رغم صرف الدهر عليها - لأنها قليلا ما عرفت السلام - تمكنت مملكة الزيانيين أن تبقى سيّدة المكان " وأن تحافظ خلال 320 سنة على استقلالها السياسي الذي قليلا ما انقطاع " ² .

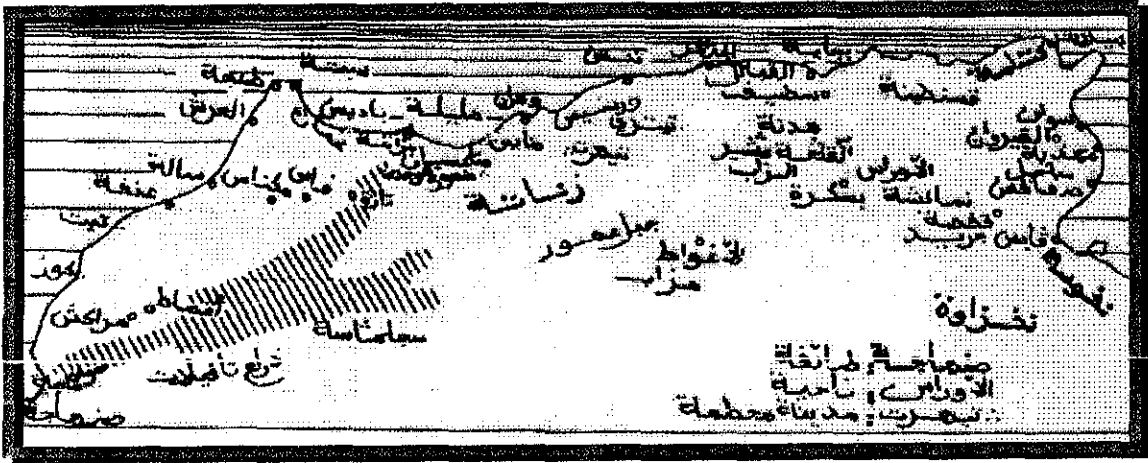
هذا الحكم الذي دام من سنة 1236 إلى سنة 1555، وجد قوته في تحالف القبائل العربية - البربرية والقبائل الموالية لها ، والتي سلمت مصيرها لقائد قوي ' يغمراسن الذي أسس دولة " محلية من الداخل " أي على أساس القبائل والعشائر المحلية " .

¹ محمود بوعياذ . جوانب من الحياة في المغرب الأوسط { في القرن التسع الهجري } ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982 ، ص:7.

² Amar DHINA , même source ; p :87.

1. اختيار تلمسان كعاصمة زيرية :

لم يكن اختيار تلمسان كمقر للسلطة السياسية للسلالة الزيرية وليد الصدفة وإنما كان يستجيب لمتطلبات معينة .



زيادة عن العوامل الموجودة الأيكولوجية ، والمناخية، والإستراتيجية... الخ التي كانت وراء ظهور المدينة الرومانية "بوماريا" ، هناك عوامل أخرى لعبت الدور الرئيسي لتوجيه وتثبيت اختيار المركز السياسي لسلالة بني عبد الواد .

من بين هذه العوامل ، نخص بالذكر أربعة عوامل التي قدرنا أنها الأهم بالنسبة لهذه المرحلة .

❖ العامل التاريخي :

عرفت مدينة تلمسان الإقامة البشرية منذ القدم ، وازدادت أهميتها خلال العهد الروماني ومع الفتح الإسلامي . وقبل السلالة الزيرية ، وضع أبو قرعة الخارجي القاعدة الأساسية لمملكة عربية - إسلامية صغيرة مقرها "أغادير" ، وتطورت هذه المدينة

تحت حكم الإنريسيين وعرفت امتدادا لمحيطها العمراني تحت حكم " المرابطين " بتأسيس مدينة " تغرارت " .

كانت مدينة تلمسان مصدر الأطماع للكثير من المملكات والسلالات، ولهذا كانت مرة تنهب، ومرة تبنى وتُعزّز... بارزة دائما كمدينة تاريخية .

❖ العامل السياسي :

كانت تشكل تلمسان الخط الفاصل (أو الفضاء الفاصل) بين المرينيين غربا، والحفصيين شرقا، رغم قربها من المملكة الغربية (المرينية) وتأثرها بها في أول الأمر، كانت مدينة تلمسان تمثل مشكلا شائكا، لما كان لها من نفوذ وقوة وانفراد بالقرارات¹ . وجود المنشآت والتجهيزات العمرانية والطاقت البشرية والمادية الكفيلة بتسيير وحماية المدينة جعلت يغمراسن يقرر الإقامة الرسمية بتلمسان ، بدلا من أن يؤسس مدينة جديدة .

❖ العامل الاقتصادي :

كانت تلمسان خلال هذه المرحلة مدينة غنية باحتوائها العديد من المهن والحرف والصناعات المختلفة ، كما كانت أراضيها المسقية مصدر غنى . زيادة على هذا، كان موقعها في ملتقى الطرق التجارية، يسمح ويساعد عبور مختلف أنواع المنتوجات والسلع الرفيعة والثمينة ، وبالخصوص الذهب والعاج الذي كان يأتي من الجنوب عن طريق التوات وسجلماسة² .

¹ Atallah DHINA : le royaume Abdelouadide à l'époque d'Abou Hamou Moussa 1^{er} et d'Abou Tachfin 1^{er} , OPU-ENAL , alger 1985 ; p :12.

² Ch.-E. DUFOURCQ : « le Sultanat de Tlemcen vers 1382-1385, d'après un document inédit » in Revue d'Histoire et de Civilisation du Maghreb, n°6 et 7, Alger, 1969, pp : 27-31

وبهذا كانت تلمسان منطلقا لتصدير هذه السلع نحو أوروبا ، مقابل ذلك كان يتم استيراد سلع ومنتجات غير متوفرة محليا نحو محور: (أوروبا-إفريقيا) . كما كانت مدينة تلمسان نقطة لا يمكن تجاوزها بالنسبة لمرور الأشخاص والممتلكات في محور: « شرق - غرب » .

إستراتيجية الموقع المرموق عسكريا وتجاريا ووجود فضاء اقتصادي هام ، وتوفير الطاقات ، ووظيفة المنشآت والمنظومات الحضرية ومستواها العالي من الكفاءة كان لها وزنها في اختيار مدينة تلمسان الثرية كمقر لعاصمة الزيانيين .

❖ العامل السوسيوولوجي :

رغم كونها مركزا حضريا هاما ، لم تتفصل مدينة تلمسان عن ريفها . علاقتها مع الحوز والعالم الريفي جعلها منها مدينة في غاية الاندماج مع بيئتها الطبيعية وسكانها¹ . هذا الاندماج الناجح بين المدينة والريف ساعدته خاصيات أقاليم تلمسان الطبيعية، والمناخية، والبيئية .

الموقع الراقي لتلمسان، المطل على السهب الذي يحمل اسم المدينة، وحمايته من الرياح والهجمات المفاجئة من الجنوب بهضبة " لالة ستي " والجبل ذو العلو المرتفع ، ووجود مجاري ونقاط المياه ، وقرب المسارات الرعوية الشاسعة ، كانت كلها عناصر ذات أهمية قصوى حددت بدورها إختيار تلمسان كمقر لعاصمة الزيانيين . لهذا، يغموراسن ورعيته والقبائل المتحالفة معه، المنحدرين من أصل البدو الرحل ، لم يجدوا أحسن من تلمسان - نقطة تلاقي بين التل والصحراء - للتوفيق بين العمران البدوي والعمران الحضري² .

¹ cf : Georges MARCAIS: Tlemcen Ville d'Art et d'Histoire ; p:4 (Tlemcen était un centre urbain en pays bédouin).

² Atallah DHINA : le royaume Abdelouadide à l'époque d'Abou Hamou Moussa I^{er} et d'Abou Tachfin I^{er} , OPU-ENAL , Alger 1985 ; p :10.

2. التحليل الإجتماعي - الثقافي والعمراني لمدينة تلمسان العتيقة:

إذا كان " الفعل العمراني " ' بمفهوم " الحضارة العمرانية " ، واقعا غير منقطع منذ العصر القديم في تلمسان، فإن العهد الإسلامي كان له الفضل في إعطائه دفعا لم تعرفه المراحل السابقة له، بتطوير أغادير وتأسيس وتوسيع تاغرارات واجتماعها في مدينة تلمسان التي ازداد عمرانها وارتفع شأنها مع الزيانيين ، حتى تمكنت من " حجب الأنظار عن المدن العتيقة الأخرى كندرومة وتيهرت، ومعسكر، والجزائر، وبجاية ، وجعلت منها مدنا ثانوية وقواعد خليفة في فترات الأزمان " .

إن الزيانيين أبقوا على الإنجازات المعمارية والعمرانية السابقة لعهدهم مع صيانتها كما أدخلوا إضافات معتبرة على بعضها.

نذكر على سبيل المثال بناء جامع المشور تحت حكم ابي موسى حمو الأول ¹ . وكذلك تشييد صومعة المسجد الأعظم {الكبير} على يدي يغمراسن ، إذ يفيدنا محمود بوعياذ بما يلي: " ... وقد بنى بها مسجدا زينه بعده يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية بصومعة... " ² .

وقاموا بإنجاز مشاريع وبناءات تحتية جديدة، وهذا بتوازي مع التطور العمراني الذي عرف بناء أحياء سكنية جديدة ³ .

لهذا ، نعتبر أن تلمسان تحت سلالة بني عبد الواد عرفت أوج تألقها ودورة العظمة ، أي كان هذا العصر ، عصرها الذهبي .

¹ Atallah DHINA : même source, pp : 32-34

cf aussi, Georges MARCAIS : Tlemcen Ville d'Art et d'Histoire

² محمود بوعياذ : تاريخ بني زيان ملوك تلمسان -

تحقيق مقتطف من: نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان لـ :محمد بن عبد الله التنسي

نشر: المكتبة الوطنية-المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص:285.

³ Atallah DHINA : même source, pp : 35-36

لهذا السبب، إن دراسة تلمسان كمنتوج حضاري عربي- إسلامي ناضج في مرحلة الزينانيين يفرض نفسه ، وهذا لعدة أسباب، نذكر أهمها :

* أولا : تلمسان هي العاصمة السياسية للمغرب الأوسط .

* ثانيا : تلمسان مركز استقطاب العلماء الأجلاء ورجالات الأدب والفن

* ثالثا : تلمسان مركز تجاري هام .

• رابعا : تلمسان مركز حضري هام ، كان المجال العمراني فيه داخل جدران {أو أسوار}

المدينة يتربع على ثمانين هكتار {80 هكر} تقريبا، ويقطن به مائة ألف (100.000)

ساكن في القرن الثالث عشر ميلادي ¹ . أمّا في مصدر آخر، يشير فالانسي (VALENSI)

إلى 120.000 نسمة تقطن بتلمسان ²

تمس دراستنا لمدينة تلمسان العتيقة، النسيج العمراني الواقع داخل أسوار المدينة

بصفة عامة ³ ، كما ندمج - عندما ضرورة التحليل تتطلب ذلك أغادير، وسيدي الحلوي

وحي العباد ، والمنصورة بصفة خاصة .

سنحاول من خلال هذه الدراسة إبراز العلاقة بين المجال الفيزيقي (الإطار المبني)

والمجال الاجتماعي - الثقافي، من أجل توضيح المعاني والأبعاد الاجتماعية - الثقافية في

النسيج العمراني والهندسة المعمارية لمدينة تلمسان . لهذا سنركز على قراءة المعالم

والإشارات والرموز الكامنة والظاهرة في التصميم العمراني للمدينة والإنجازات المعمارية

الدالة لهذه الأخيرة .

¹ Wilaya de Tlemcen, ASPEWIT, Actes du Colloque sur l'Urbanisation de Tlemcen.

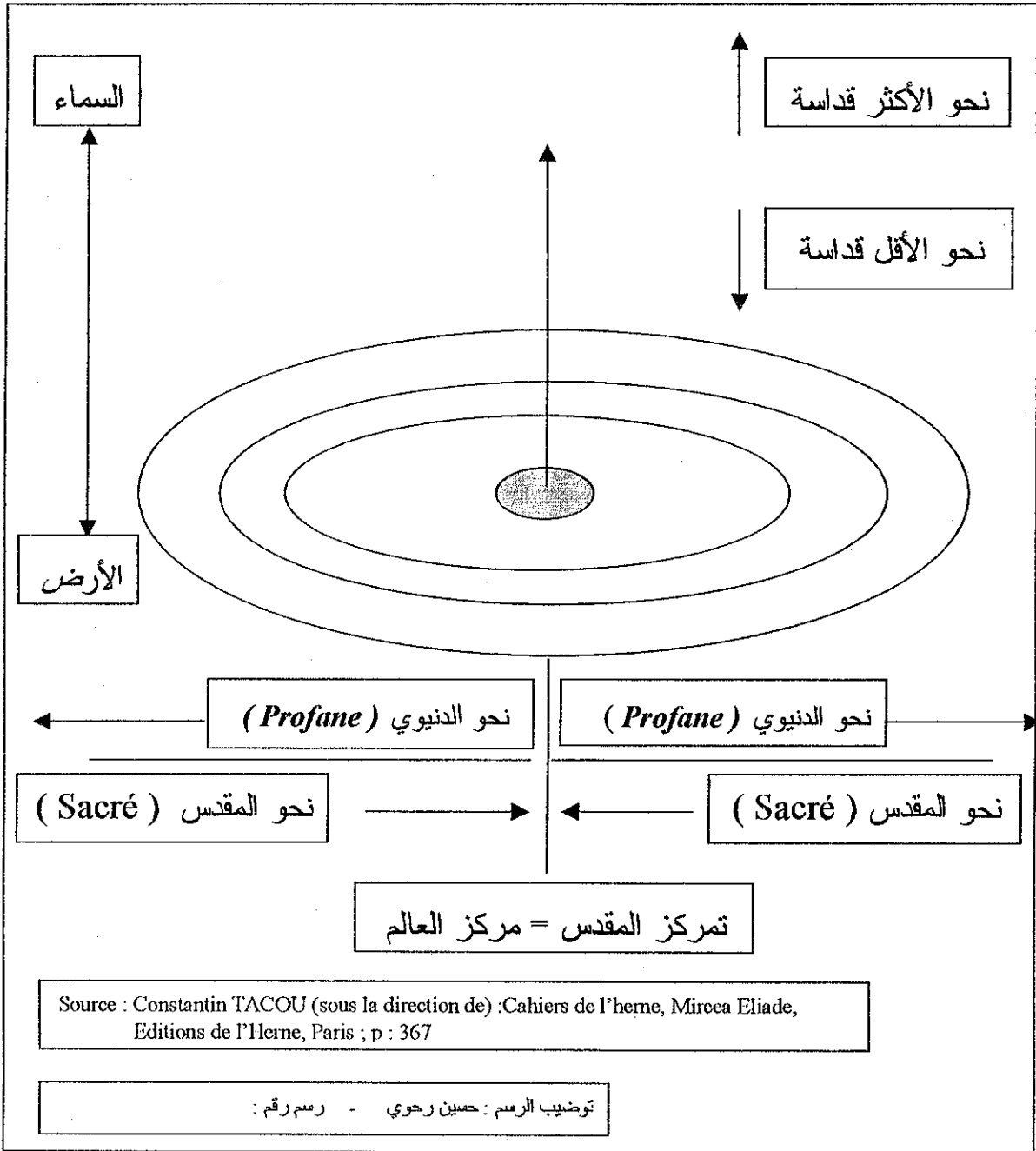
Tlemcen du 01 au 03 Mars 1982, Commission n°1 : Analyse du Tissu Urbain de Tlemcen, p : 13

² Le tracé des Villes et les Ingénieurs du Génie : Algérie 1830 - 1870

Document édité par le Service du Génie responsable des Travaux Urbains ; p :13

³ السور الذي شيده المستعمر الفرنسي في القرن التاسع عشر

هذا يساعدنا على إفرار الواجهات الوظيفية في البنية التحتية للمدينة . فضلا عن ذلك، من أجل معرفة في العمق للمدينة الإسلامية، وفهم أدق لكيفية اشغالها الداخلي (Fonctionnement interne) ، ارتأينا إدخالها في محتواها الحضاري والفلسفي .



كما قولنا، فإنّ المجال المشيّد من طرف الإنسان ما هو في الواقع إلا انعكاسا لأفكاره وتصوراتهِ .

إنّ علم العمران عامة، والفن المعماري خاصة، يكتسيان في جل الديانات والمعتقدات صبغة دينية لأنهما يعتبران تجسيدا لقوانين سماوية . لهذا، نجد نظريات عديدة تنصبّ في هذا المجال الحيوي للإنسان¹.

كما نجد في الكثير من المعتقدات أنّ التماثيل والمعابد تشكل أساس الصلة بين العبد والمعبود، كما ترمي إلى إسقاط مادي لتماثيل الألوهية. وحتى في الدين المسيحي {السماوي} نجد تماثيل وصور تمثل المسيح عليه السلام، وأمه مريم، والأحبار، إلخ... لهذا، الإنسان، الذي هو خليفة الله في الأرض، يسعى جاهدا لإسقاط القوة الإلهية في تصرفاته وإنجازاته .

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ((وإنّ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويفسك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك. قال إني أعلم ما لا تعلمون)) من سورة البقرة، الآية 30.

تري الأستاذة سهام بستجي، من جامعة قسنطينة²، أن مركزية العمران الإسلامي - وبالتالي المنزل الإسلامي - يكتسي طابعا دينيا مقدسا. هذه القداسة ناتجة عن ثقافة الجنس

1 طالع :

▪ أ.ج. تكير: إمارة الأرض في الإسلام - دار البشير، عمان، الأردن، 1991

- Roland BARTHES : l'Empire des signes - Paris, 1970.
- Christian- Norbert SCHULTZ : la Signification dans l'Architecture Occidentale Editions Mardaga, Liège, 1977.
- Paul KLEE : la Pensée Créatrice, Ecrits sur l'Art/ I, Dessain et Tolra, Paris, 1980.
- Mircea ELIADE : Axis Mundi (Axe du Monde), l'Espace Sacré, Traité d'Histoire des Religions (Chapitre X), Payot, 1949.
- Francis CHING D.K. : Architecture, Form, Space et Order- Van Nostrand reinhold.
- F.N. BOUCHENANE : Habiter, modèles socioculturels et appropriation de l'espace, Thèse de Doctorat d'Etat en Sociologie, Université Mohamed V, Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Rabat, Maroc, 1991.

2 Sihem BESTANDJI : Des référents de l'espace domestique traditionnel

d'un mode de codification à un mode d'interprétation

in : Actes du Séminaire International: Enseignement et pratique de l'Architecture, quelles perspectives ?, 497 pages EPAU, Alger du 23 au 26 Avril 2001, pp : 119 à 125.

البشري وتصوراته للكون عامة، وعن ممارسة وثقافة المسلم خاصة. إذ كل ما ينتجه المسلم ينطبق أصلا مع مقوماته الحضارية ودينه الحنيف.

وبما أنّ المسلم في صلة دائمة مع خالقه في الصلاة، والصيام، والكسب الحلال، وعمل الخير في جميع المناسبات والحالات، وفي مختلف الأشكال، وفي تصرفاته اليومية، فإنّ كل ما يقوم به فهو عبادة، لأنّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليعبده.

((وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبوني ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعموني إنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين)) من سورة الذاريات، الآية: 56-57-58

على هذا الأساس، تكتسي المساجد حرمة كبيرة، كما تكتسيها المنازل الإسلامية. ويظهر هذا من خلال الاهتمام، من طرف البنّاءين وأصحاب المنازل، بجوانبها الوظيفية والجمالية. " فتكون البناية المجال المقدس المملوء بالدلالات والرموز بالنسبة للإنسان " ¹. وبالطبع فإنّ الهندسة المعمارية وعمران تلمسان، كباقي المدن الإسلامية العتيقة لا يحيدان عن هذا الإشكال ، لأنّ الإسلام كعقيدة بقواعدها وتعاليمها، والعرف والعادات المرتبطة بالممارسات الإجتماعية الناتجة عنها، والتي تساعد وتشجع بعض الظواهر وتمنع البعض الآخر، سوف تفرز نمطا عمرانيا معينا .

فمن هذا المنظور (PRISME) الخاص، المبني على أسس الرخصة والمنع الصريح وغير الصريح ستتأسس المدينة كمجال فيزيقي وكمجال اجتماعي ، في آن واحد ، كوحدة عمرانية مكتملة العناصر وكمجموعة من المقاطع المعمارية الدالة ² .

إنطلاقا من هنا ، سنعمل على دراسة هذه العلاقة على مستويين :

I. المستوى الأول : المستوى العمراني الشامل

¹ Sihem BESTANDJI : même source, p : 119.

² Marc COTE : l'Espace retourné, Editions Flammarion, Paris, 1988, p :18.

يرتكز على مقارنة شاملة للمجال العمراني للمدينة قصد استخلاص المبادئ العامة التي توجه اشغالها واستخراج شكل البنية الكلية لمدينة تلمسان ، لهذا نسمي هذا المستوى : " المستوى العمراني الشامل " .

I. المستوى الثاني : المستوى المجهري المفصل

يرتكز على تقديم وتحليل أهم العناصر العمرانية والمعمارية المكونة للمجال الشامل للمدينة ، ينزل هذا المستوى إلى درجة فحص الطرق ، والمباني المختلفة العمومية والخاصة مع إعطاء بعض التفسيرات لعدد من الجزئيات المعمارية وكذلك بعض العناصر الجمالية : نسمي هذا المستوى " المستوى المجهري المفصل " .

• المخطط المعتمد لدراسة المجال العمراني لمدينة تلمسان العتيقة :

إن المخطط الأكثر إيضاحاً، الذي استطعنا الحصول عليه لدراسة النسيج العمراني لمدينة تلمسان العتيقة، هو المخطط الذي أنجز من طرف الهندسة العسكرية الفرنسية بتاريخ 06 فبراير 1836 بإمضاء المهندس دوسولمس (M.De Solms) .

لقد فضلنا هذا المخطط بالنسبة لآخرين، لأنه الأكثر دقة وتفصيلاً ويحوي بعض الفوائد منها :

1. السلم 5000/1 ، الذي يعطي التفاصيل اللازمة لكشف واضح لمورفولوجية النسيج العمراني بمكوناته الأساسية، المتمثلة في الرسم الواضح للطرق والأسوار، والأبواب، والمداخل الرئيسية للمدينة ' والتوزيع الوظيفي للمجال العمراني بصفة عامة .

2. المخطط يعكس الصورة الحقيقية للميدان، وهذا ما لاحظناه من خلال معاينة ميدانية قمنا بها، حيث تأكدنا من مطابقة المعلومات مع ما تبقى من العناصر الحيوية للمدينة العتيقة حالياً .



3. هذا المخطط له أهمية " قصوى " لأنه أنجز قبل التدخلات التي قام بها المعمر الفرنسي على المجال العمراني للمدينة، وبهذا تكون الخريطة مرآة عاكسة لما كانت عليه المدينة قبل الإستعمار الفرنسي .

4. وأخيراً، اخترنا هذا المخطط لأنه معتمد من طرف المصالح التقنية للبناء والتعمير، ودائرة الآثار ومكاتب الدراسات بتلمسان، والعديد من الباحثين وممارسي العمران. وذلك يعود إلى المرجعية التي يكتسبها هذا المخطط، نظراً لندرة { أو عدم وجود } مثل هذه الوثائق لهذه المرحلة التاريخية.

1. المستوى العمراني الشامل¹ (le Niveau Macroscopique global)

الملاحظة المتأنية للمخطط تسمح بإخراج كتلة متراصة الإطار المبني للمدينة، هذه الكتلة مقطوعة بطرق منتظمة التي هي طرق رئيسية، انطلاقاً من وسط المدينة توصل إلى أبوابها الرئيسية. يتغير عرض هذه الطرق من حين إلى آخر إلى أن تصل إلى طرق فرعية ضيقة وأزقة .

بعض العناصر والمعالم تظهر للعيان حسب حجمها أو حسب موقعها كالمشور، والجامع الكبير، والمساحات الكبرى، التي تغلب دور المساحات العمومية، ومعالم أخرى سنراها في التحليل .

هذه الأخيرة { المدينة } محاطة بالأسوار الدفاعية. داخل هذا المجال المغلق توجد أراضي فلاحية أو أراضي إحتياطية للتوسع العمراني المستقبلي .

هذه الصورة السطحية دعمت بأهم الأعمال والدراسات، والأبحاث، التي اهتمت بالدراسة العمرانية والمعمارية لمدينة تلمسان، وكذلك الكتب القديمة التي تطرقت إلى

¹ المستوى الشامل للمدينة ، أي مستوى الرؤية الشاملة والعناصر المحورية المكونة للمدينة

وصفها ¹ . لقد ألدنا هذا بالتحريات الميدانية الشيء الذي سمح لنا بمعرفة المدينة في مختلف أبعادها ونخص بالذكر الحجم، الطراز، مواد وتقنيات البناء والتوزيع الوظيفي للإطار المبني، زيادة على ذلك، إحياء الصورة والحركية التي كانت عليها المدينة العتيقة .

هذه **العلامات** التي نلاحظها من خلال هذه النظرة تُنسب وظيفيا وعضويا مدينة تلمسان إلى المخطط العام للمدينة العربية الإسلامية، خاصة النوعان من المدن التي سبق تقديمها في الفصل السالف. فتكون المدينة متكونة من مجموعة من الأحياء { جمع حي } ² . هذه الأحياء مرتبطة ارتباطا وطيدا فيما بينها، وبين مركز المدينة، وتتموقع بأبعاد متقاربة بالنسبة لهذا الأخير لكي تسمح لراجلين بقطع هذه المسافات بكل سهولة .

قرب المسافات بين أحياء المدينة لا يمنع من أن يكون كل حي يتمتع باستقلاليته، بحيث يتمتع كل حي بالمرافق الضرورية منها المسجد ³ ، والفرن، والحمام. وعلى طول الدروب تأتي مجموعة متاجر تسمح بقضاء الحاجات اليومية لسكان الحي، كما نلاحظ محلات للحرفيين مثل الإسكافي خياط، طراز... الخ، مندمجة مع المساكن ⁴ .

• ملاحظة :

كما لاحظنا أن النشاطات الملوثة والمزعجة، توجد مقصورة في أطراف المدينة مثل : النجار، والحداد الصباغ، الفخار... الخ ⁵ .

¹ دراسات تقنية-عملية ، مذكرات وأطرحات عديدة، واطراف للمدينة... الخ { طالع العناوين في فصل الراجع }

Cf, aussi : Amar DHINA : Cités d'Orient et d'Occident, ENAL, Alger, 1986, pp : 5-6 & 7.

² Jaouad Msefer : Cités Islamiques et croissance urbaine

cité par Mounir BOUNEKHLA, in : Revalorisation d'un Tissu Ancien : cas à Tlemcen, Mémoire pour l'Obtention du Grade d'Architecte, Institut d'Architecture, USTO, Oran, 1992.

³ Hayat KADI : Médina de Tlemcen, Revalorisation d'un Axe Historique.

Mémoire pour l'Obtention du Grade d'Architecte, Institut d'Architecture, USTO, Oran, 1996 ; p : 10

⁴ Mounir BOUNEKHLA: Revalorisation d'un Tissu Ancien : cas à Tlemcen,

Mémoire pour l'Obtention du Grade d'Architecte, Institut d'Architecture, USTO, Oran, 1992, p : 22.

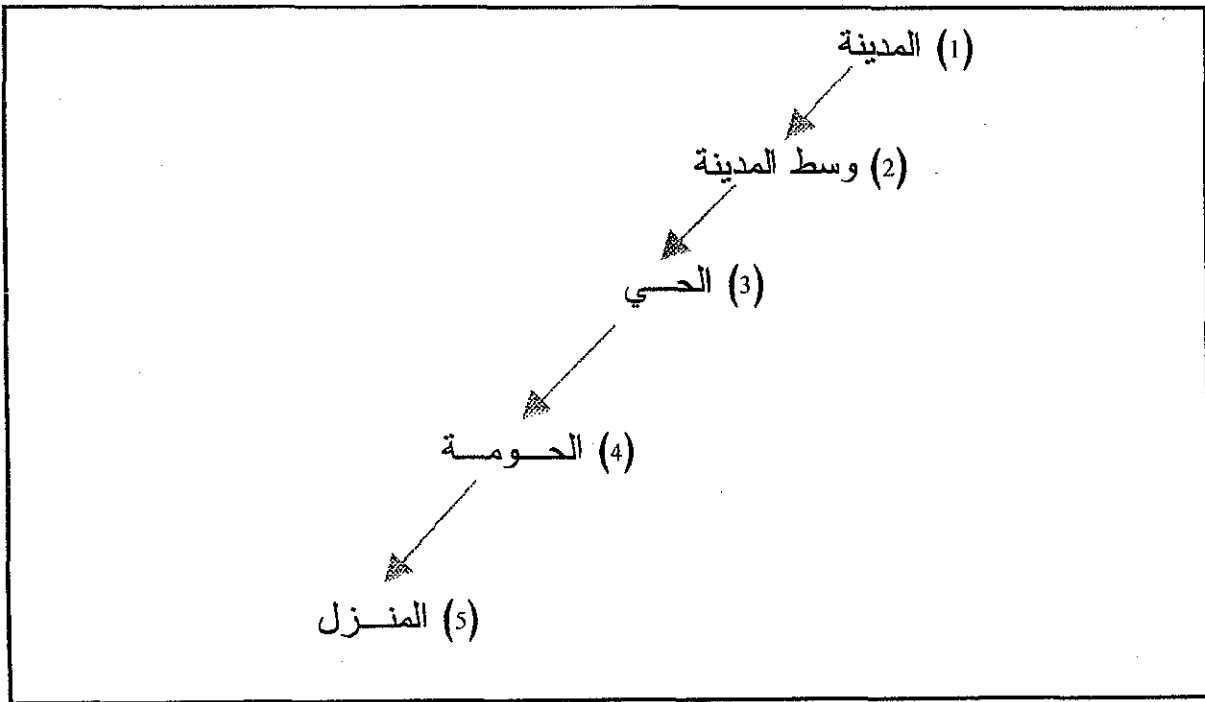
⁵ معاينة الوحدات المعمارية القديمة مع مقابلة بعض السكان المسنين لحومة باب زير، سيدي الجبار، درب السنسلة، درب مسوفة، القسارين الخ... قصد استرجاع الذاكرة عن ما كانت عليه البيئة والجو العام في أحياء المدينة العتيقة.

Voir aussi, Mounir BOUNEKHELA, même source ; p : 63, لانتخاب عيّنات المعاينة الميدانية

إن هذه الأحياء لما تكتظ بالسكان (كثافة) وتتوسع رقعتها تنقسم إلى "حومات" {جمع حومة}، التي تشبه إلى حد ما مصطلح العمران الحديث: "وحدات الجوار" (1). وغالبا ما تحمل الحومة تسمية رجل صالح أو قائد روعي مثل "حومة سيدي الجبار" أو تسمية مكان مرجعي مثل "حومة باب زير".

الوحدات العمرانية تنتظم في اتجاه تنازلي على النحو التالي :

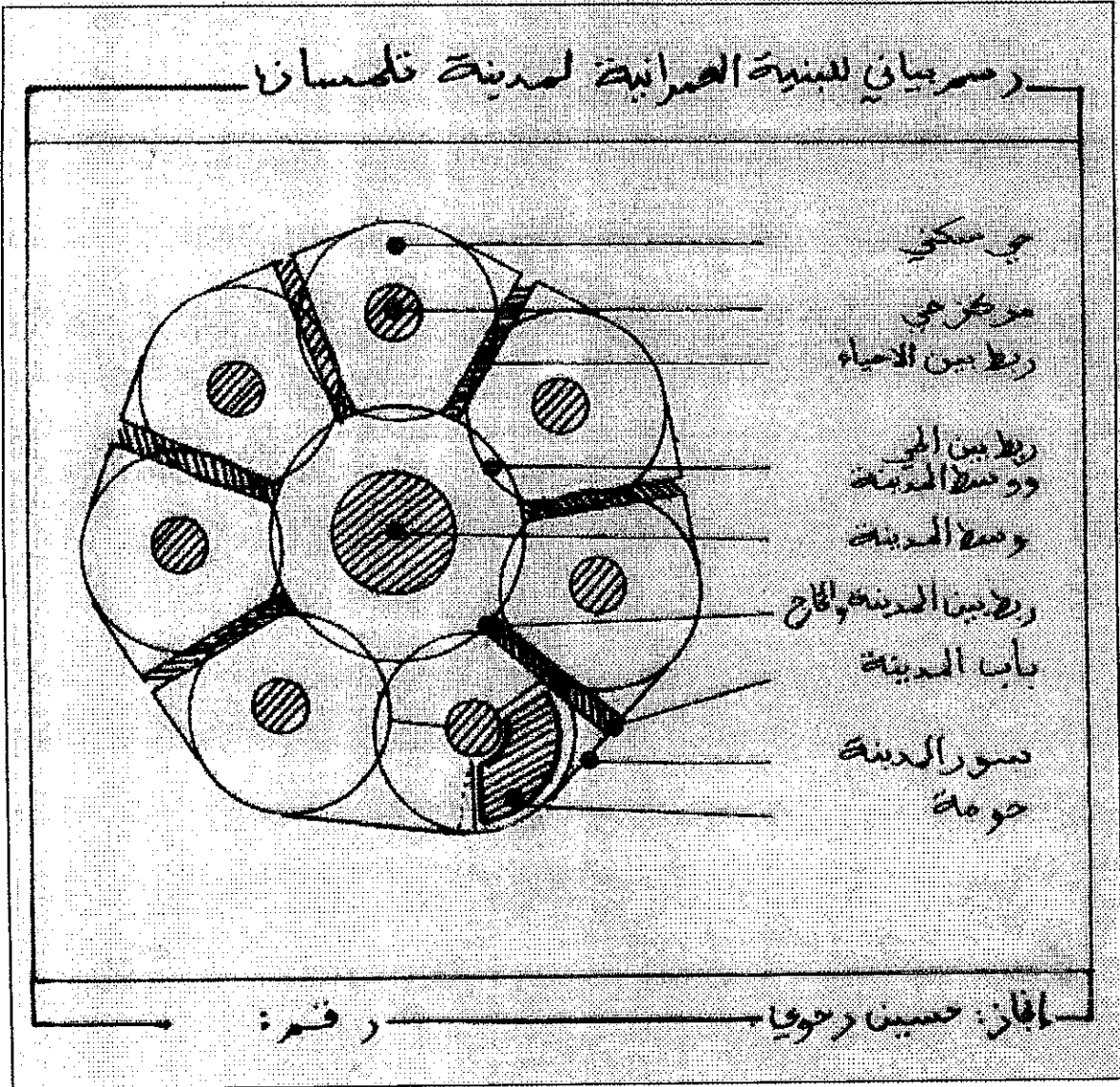
إن هذه الوحدات العمرانية المكونة للمجال الفيزيقي للمدينة ، جد مرتبطة فيما بينها (كما سنراه) بدروب وأزقة بصفة تراتبية، حسب الوظائف المخولة لكل منها.



(1) Unités de voisinage = وحدات الجوار - Cf : Mounir BOUNEKHLA, même source ; p :22

❖ البنية العمرانية لمدينة تلمسان :

عن طريق الرسم البياني التالي، المبسط تظهر جليا البنية العمرانية لمدينة تلمسان.



هذه البنية متكونة من قطب رئيسي يحتل المكانة المركزية في المدينة، وأقطاب ثانوية (الأحياء) مرتبطة به ارتباطا عضويا ووظيفيا، مكونة بهذا كوكبة منتظمة.

❖ القطب الرئيسي :

متكون من ساحة مركزية تترتب من حولها التجهيزات الكبرى المتمثلة في :

- **المسجد الكبير:** انه مركز العبادة و التدرج و الصلاة، والذي يجمع أغلبية سكان المدينة خاصة في يوم الجمعة.
- **المدرسة التشفينية :** كانت تقع في المكان الذي شيّد عليه المعمر الفرنسي مقرّ بلديته. لهذا كان يقابل من الناحية الجنوبية المسجد الكبير {الأعظم}. وكانت تقام في هذه المدرسة دروس متعددة، تغلب عليها أصول الدين واللغة.
- **مسجد سيدي بلحسن :** يعتبر ثانويا، حسب حجمه، لكنه مهم، إذا ما رجعنا إلى موقعه. يلعب دور المناوب المباشر للمسجد الكبير ¹. وفي نفس الوقت يفرض وجوده على الكنيست اليهودي الذي يقع في الناحية الجنوبية له، على بعد 100 م منه.
- **القصر البالي :** يعتبر الإقامة الأولى لملك الزيانيين يغمراسن والذي تركه وبنى المشور، والسبب راجع حسب GEORGES MARCAIS ⁽¹⁾ إلى القرب المباشر للقصر بالنسبة للجامع الكبير، مما دفع يغمراسن إلى هجره، لما لاحظ بأن منارة المسجد التي بناها تطل مباشرة على القصر .

¹Mounir BOUNEKHILA : Revalorisation d'un Tissu Ancien : cas à Tlemcen,

Mémoire pour l'Obtention du Grade d'Architecte, Institut d'Architecture, USTO, Oran, 1992 ; p: 63-64

¹ GEORGES MARCAIS : [] Les villes d'art célèbres :Tlemcen

Librairie Renouard - Paris,1950, page :38

➤ **القيصرية** : لقد احتلت القيصرية ثلاثة مجالات على الأقل :

المجال الأول : الذي احتلته القيصرية يقع في المكان الذي شيّد فوقه بنك القرض الشعبي الجزائري، مقابلا للواجهة الشمالية للمسجد الكبير {الأعظم} ¹ .

المجال الثاني : يقع بالقرب من "حي اليهود" يقابل المشور. و هو الموقع الذي تحتله حاليا " دار الثقافة " ² .

هذا التحوّل للقيصرية من قرب المسجد الأعظم والقصر البالي إلى النواحي المباشرة للمشور، ربما يجد تفسيره بانتقال مقر السلطة من القصر البالي إلى المشور. علما أنّ القيصرية هي المكان المفضل لبيع المنتوجات الرفيعة، بالقرب وتحت حماية القصر الملكي.

وجود "حي اليهود" بالقرب من القيصرية يؤكد هذه الفرضية، لأنّ اليهود كانوا معروفين بتجارتهم، خاصة المسوغات، والحلي والعطور و الأقمشة الرفيعة...الخ.

المجال الثالث: يقع في القيصرية الموجودة حاليا (أو في البعض منها) والمشار إليها في المخطط المرسوم من قبل دو سولمس M.DE SOLMS للهندسة العسكرية الفرنسية، سنة 1836 م .

المجال المحتل من قبل القيصرية في هذه المرحلة يشمل المحور التجاري للقيصرية الحالية⁽¹⁾ وحتى السوق المغطاة (le marché couvert) .

¹ هذا الموقع المحتمل افادنا به أستاذنا المحترم الدكتور عبد الحميد حاجيات، مؤثر هذه الرسالة.

² موقع مقترح من طرف محمد بن عمرو التمار في:

تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، مخطط آخر صفحة.

(1) نهج الشهيد : مرابط محمد، حاليا (و ما جاوره).

مهما كان من أمر، فإنّ القيصريات الثلاثة تحتل نقاطا مركزية في المدينة، بتمركزها بالقرب من المسجد الكبير (الأعظم)، والقصر البالي، والمشور.

وأخيرا، حتى الساحة المركزية، العمومية التي تتجمّع من حولها هذه المنجزات والمرافق، هي أيضا موظفة كسوق للخضر والفواكه، واللحوم، والخبز. هذه المواد ذات الاستهلاك الواسع تعرض للبيع هنا لأنّ هذه المنطقة تعرف حركة شعبية وتوافد الجماهير العريضة لقربها من الطرق الرئيسية للمدينة، وقربها من المرافق ذات الاستقطاب الكبير.

أما فيما يخص الوظائف الأساسية للمدينة، فإننا نجد ما تتمثلة على مستوى هذا القطب الرئيسي، وبهذا يظهر جليا انتماء مدينة تلمسان إلى أنماط المدن الإسلامية، كما أشرنا إليه سالفًا .

❖ الوظائف الرئيسية لمدينة تلمسان

تقع الوظائف الرئيسية لمدينة تلمسان في القطب الرئيسي لها، والكائن في المجال المركزي للمدينة.

1 - الوظيفة السياسية - الإدارية :

وهي ممثلة من طرف القصر البالي "القصر الملكي الذي سينقل، على بعد 300 متر منه إلى المشور.

2 - الوظيفة الروحية (الدينية) :

وهي ممثلة من قبل المسجد الكبير (الأعظم)، ومسجد سيدي بلحسن، والمدرسة التشفينية، على وجه الخصوص.

3 - الوظيفة التجارية :

هذه الوظيفة ممثلة من قبل القيصرية والساحة المركزية التي كان يقام فيها السوق اليومي، والتي كانت تلقب بـ: "ساحة القوافل" لأنها كانت تستقبل القوافل الوافدة عبر الطرق التجارية، كما تنطلق منها قوافل تلمسان نحو مختلف الاتجاهات محملة بشتى السلع والبضائع.

هذه الوظائف الواقعة في وسط المدينة سيكون لها صدى على مستوى الأحياء والحومات، حيث تبنى مساجد في الأحياء، وكذلك بعض المحلات الحرفية، وبعض النشاطات الاقتصادية والتجارية.

❖ الأقطاب الثانوية :

هي الأقطاب المشكلة من الأحياء التي هي مجموعة من حلقات مرتبطة ارتباطاً عضوياً ووظيفياً مع مركز المدينة الذي هو القطب الرئيسي.

هذا الارتباط يتم على النحو التالي :

1- الارتباط العضوي :

هو الارتباط الفيزيقي الذي يتمثل في طرق المواصلات المصممة كالعروق التي تسقي "جسم الاسان". فهي توصل الحي بجميع أنحاء المدينة بطريقة منسجمة تتماشى مع أحجام الإطار المبني والأحياء التي توصل إليها، أو تمر عليها بدون انقطاع. كما لا نجد ، هنا ، انفصالا يشكل قطيعة بين وسط المدينة والأحياء الموزعة حوله حيث الطرز، والأحجام، والأشكال متشابهة ومتجانسة، في نفس الوقت الذي هي فيه متكاملة. وهذا يزود الإحساس برؤية متجانسة وجمالية (1)

2- الارتباط الوظيفي :

نجد في الأحياء و الحومات التي تشكل الأقطاب الثانوية، ودائماً وفق نظام تراتبي، توزيع الوظائف الرئيسية للمدينة. هذا الخيط الموصل، الذي يربط الحومة بالحي، ومجموع الأحياء بوسط المدينة، يترجم المستوى العالي "للتلاحم الاجتماعي".

أ . الربط بالوظيفة الروحية والعلمية :

هذا الترابط يحدث عن طريق الشبكة المكونة من أماكن ومواقع العبادة و العلم. هذه الأماكن تتموقع بتراتب في المجال العمراني حسب المساحة التي تؤدي فيها مهامها وحسب عدد السكان الذين يقطنون بها.

(1) Une perception visuelle harmonique et esthétique

هذه العلاقة التراتبية بالنسبة لمركز المدينة تنتقل من المصلى البسيط، على مستوى الحومة إلى مسجد الحي ، حتى تصل إلى المسجد الجامع (المسجد الكبير) ¹ .
هذه التصريحات مؤكدة بالملاحظة الملحّة للخرائط القديمة والحديثة للمدينة، وكذلك بالمسح الميداني الذي قمنا به ، والذي مسّ جلّ العمارات ذات الطابع الثقافي والديني على وجه الخصوص.

هذه الخريطة، التي أنجزناها على سلم: 5000/1 تبيّن ترابط أطراف المدينة بالوظيفة الدينية والعلمية.
أنظر إلى الخريطة التالية :

إننا نلاحظ في هذا الرسم البياني أن تجهيزات العبادة وضعت في وضع تراتبي في المجال العمراني للمدينة :
Erreur ! Signet non défini.

¹ Mounir BOUNEKHLA : Revalorisation d'un Tissu Ancien, Cas à Tlemcen, Mémoire pour l'obtention du grade d'Architecte, Institut d'Architectue, USTO Oran, 1992 p : 64

❖ المسجد الكبير:

يعتبر النواة المركزية الذي من حوله تدور بقية المساجد . تشمل كافة المدينة. هو المكان الدائم لإقامة صلاة الجمعة والحفلات الدينية (عيد الأضحى، عيد الفطر، والمولد النبوي الشريف...الخ) . هذا المكان للعبادة هو أيضا مكان التبادل الثقافي والعلمي وخاصة في المجال الديني ¹ . هذا الذي يجعل من المسجد مكانا مفضلا بالنسبة للعلماء خاصة وان هذا الأخير قريب جدًا من المدرسة التشفينية .

❖ مسجد سيدي إبراهيم المصمودي:

يعتبر هذا المسجد انتقاليا نظرا لموقعه، وعدد المصلين الذي يمكنه احتوائهم، ومساحته. هنا أيضا تُعطى دروس، و نظرا لأهمية هذا المسجد أقيمت بجواره المدرسة اليعقوبية.

❖ مساجد سيدي اليّدون، و سيدي البني، وأولاد الإمام إلخ :

هي مساجد الحومة التي لا تبعد عن بعضها البعض أو عن مركز المدينة. هذه المساجد تشكل حلقات (MAILLONS) ترابط. الحياة العلمية في المصلى ومساجد الحومات، كانت غالبا ما تقتصر على تعليم الكتابة والقراءة، وتلقين بعض أصول الدين، وحفظ القرآن الكريم.

¹ حسب جورج مارسي (Georges Marçais)، كان الملك يغمراسن يزور المسجد مرارا ليستمع للدروس الملقاة، و يشارك في الحلقات العلمية.

ب . الترابط بالوظيفة التجارية والاقتصادية :

كما هو الحال بالنسبة للربط بالوظيفة الروحية والعلمية، يتم الربط بالوظيفة التجارية والاقتصادية بين القطب الرئيسي والأقطاب الثانوية بانسجام، وبدون انقطاع، وبصفة مدرجة كذلك.

إن إسقاط هذه الوظيفة على فضاء المدينة يظهر على شكل شبكة متكاملة ومتجانسة وذات بنية إشعاعية، منجذبة حول مركز المدينة، حيث يوجد المسجد الجامع والقيصرية.

هذه الشبكة التجارية والاقتصادية متكونة من:

- أسواق خطية أو قطعية ممثلة بدروب حرفية (تسيّرها في الغالب اتحادات حرفية).
 - فنادق أو مخازن أو بيوت مخصصة للأنشطة التجارية.
 - القيصرية التي تمثل النقطة المركزية الحورية الراقية من حيث الشكل، وعدد، ونوعية البضائع المعروضة.
- هناك، أخيرا مساحات أو ساحات مناوبة⁽³⁾. تساعد على تفصل جيد لعناصر هذه الشبكة.

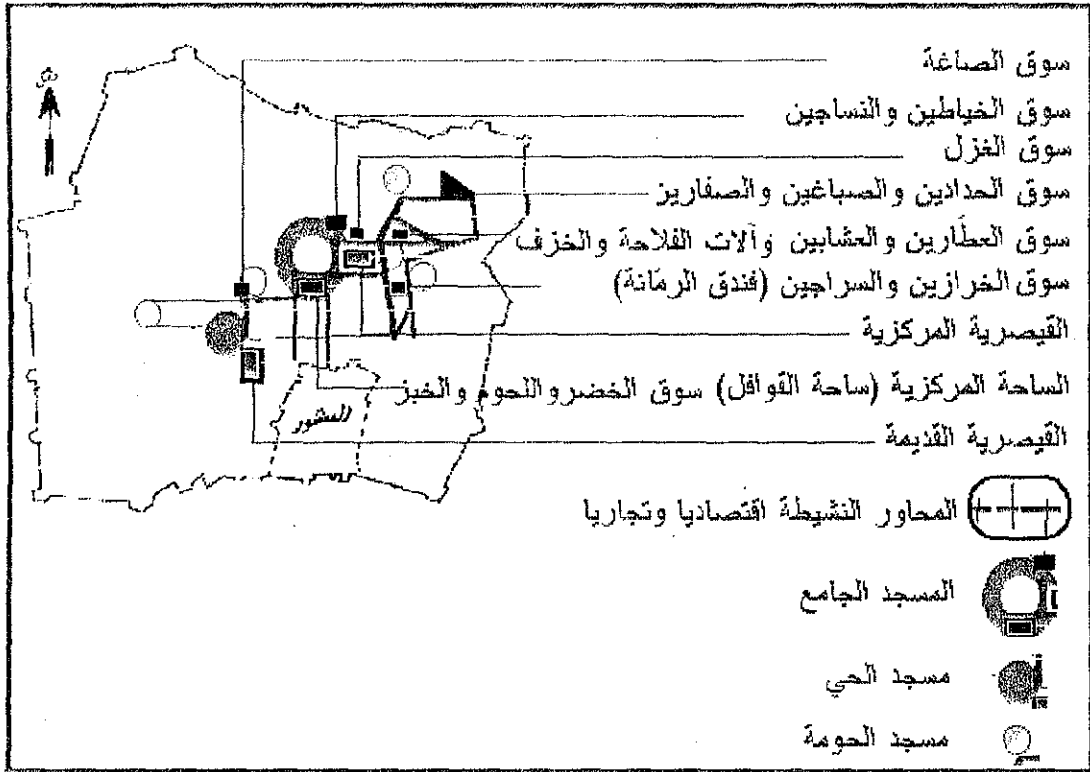
➤ الأسواق الخطية والقطعية :

إنها عبارة عن محاور نشيطة تجاريا متكونة من دروب حرفية (rues-corporations) متخصصة في أنشطة معينة ومرتبطة ببعضها البعض بصفة عضوية¹.

(3) ترجمة: ساحة - مناوبة بـ Placette-Relais

¹ Jaouad MSEFER, cités islamiques et croissance urbaine

Cité par : Mounir BOUNEKHLA : Revalorisation d'un Tissu Ancien, Cas à Tlemcen, Mémoire pour l'obtention du grade d'Architecte, Institut d'Architectue, USTO Oran, 1992 ; p : 28



ربط أطراف (أو أجزاء) المدينة بالوظيفة التجارية والإقتصادية
إنجاز: حسين رجوي

لنا على الخصوص ¹ :

- درب الغساليين (بالحي المركزي)
- رأس الصاغة (بجانب مسجد أبي الحسن)
- درب البلاغجية
- درب الحدادين
- درب الصباعين
- درب العشابين
- درب الحجامين

¹ طالع :

➤ سيدي محمد نقادي: التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية،

رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1991، ص: 69-70

➤ محمد بن عمرو التمار: تلمسان عبر العصور - المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985

- درب الصنعة
- درب السويقة
- إلخ

إن كل هذه الدروب، وغيرها من اللواتي لم نجد لها ذكرا في قراءتنا، لها نظامها التجاري والاجتماعي الخاص، الذي يظهر عبر التسلسل للأنشطة المتماسكة، المأمورة من طرف (رئيس، أمين) يتصل بالسلطة فيما يخص دفع الضريبة، وطرح وحل المسائل المهنية والحرفية، كما يحدد الأسعار، حسب معطيات السوق واستشارة كبار الحرفيين والصناع.

التركيبة البشرية للحرفة تتكون غالبا من *المعلم، و الصناع و المتعلمين*¹ ولكل مكانته ضمن الحرفة التي هي عبارة عن ورشة صغيرة. نشير هنا إلى أن تسجيل المتعلم يتم حسب اعتبارات أخلاقية وعائلية باعتبار أن المتعلم يصبح صانعا وربما معلم وحاملا لأسرار الحرفة {الصنعة} كما يحمل على عاتقه المشعل من جيل إلى جيل.

تؤدي هذه الدروب التجارية السالفة الذكر طبيعيا إلى الفنادق والمخازن التي تعتبر العناصر الرئيسية لتموينها بشتى البضائع والمواد الضرورية لنشاطاتها

➤ *الفنادق، المخازن والبيوت المخصصة للأنشطة التجارية :*

■ *الفنادق :*

تستقبل الفنادق التجار بسلعهم ومطيتهم، حيث يجدون هناك الراحة والأمن، والمكان الملائم لتقديم سلعهم للبيع، كما يمكن لهم الإقامة بها قدر ما يريدون، بدون قلق حتى يقضوا

¹ حسين نمور : مقياس التراث العمراني والمعماري في المدن العتيقة المغربية

معهد الهندسة المعمارية، جامعة قسنطينة، 1990

أشغالهم في طمأنينة.

فالفندق ليس المكان المألوف للإقامة بالسلع فقط، ولكن هو كذلك المكان المفضل للصفقات التجارية مع أهم وأكبر التجار الذين يتكفون بترويج السلع والبضائع (ترويج وتوزيع).

■ المخزن :

هو أدنى درجة من الفندق، حيث يقتصر على تخزين البضائع فقط. يحتوي على عدد من البيوت للكرءاء. هو المكان الذي توضع وتخزن فيه البضائع والسلع المختلفة، قبل تسويقها فهو لا يستقبل المسافرين¹.

■ البيوت المخصصة للأنشطة :

هي مساحات مغطاة، صغيرة الحجم، لا تتعدى الحجرة الواحدة² يتم فيها إنتاج وتحويل بعض المواد بطريقة تقليدية (منسوجات، آلات خشبية وحديدية، أواني منزلية، صناعات تقليدية... إلخ).

تتميز هذه الفنادق والمخزن والبيوت بكونها متخصصة في نشاطاته، أي في أصناف البضائع والمواد التي تستقبلها تعرضها على الزبائن.

وتدعى هذه المساحات المتخصصة عند العامة "أسواق". لا يزال البعض منها قائما في حين قضى الزمن على البعض الآخر، واحتفظت باسمها الذاكرة الجماعية. ونذكر أهمها:

¹ معاينة لفندق الرمانة ، والتحدث مع أصحاب بعض المخازن

² سيدي محمد نقادي:التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية،

رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1991، ص: 71- 73

- سوق الخرازين و السراجين
 - سوق العطارين {والعشايبين} وآلات الفلاحة والخزف
 - سوق الغزل
 - سوق الحدادين و الصباغين والصفارين
 - سوق الخياطين و النساجين
 - سوق الصاغة
- (أنظر إلى الخريطة في الصفحة: 155 ، عن محمد بن عمر التمار، تلمسان عبر العصور)

■ القيصرية :

هي السوق المركزية الراقية التي نجد فيها مختلف السلع والأدوات المصنوعة في المدينة وأحاء المملكة عامة، ومنتجات الترف (Produits de luxe...) المستوردة من الخارج كالحلل الثمينة والعطور والأقمشة والأحذية... إلخ، خاصة.

فهي تعادل -إن صحت المقارنة- المساحات الكبرى التجارية المغطاة الموجودة حاليا في المدن الحديثة. فهي تؤدي وظيفتها التجارية على مستوى القطب الرئيسي ولكن بارتباط وثيق مع أحياء المدينة.

• ساحات المناوبة (Places-Relais):

إن الوظيفة التجارية والإقتصادية منظمة كبنية متماسكة مكونة من العناصر المادية التي سلف ذكرها. وتلعب هذه الساحات المتواجدة في ملتقى الطرق التجارية وبالقرب من الأسواق والمساجد دورا أساسيا في ربط أجزاء هذه الشبكة بضبط مدّ le flux (أو الفيض) الحركة البشرية والحيوانية ومختلف السلع والبضائع.

وتدعى هذه الساحات بـ"ساحات المناوبة" لأن كل واحدة منها تنوب عن التي تسبقها في مسار المدينة عامة ومسار الشبكة التجارية خاصة. وقد استعمل لفظ "المجال الانتقالي" ولفظ "حلقة وصل" للتعبير عن هذا الواقع الملحوظ في مجالات المناوبة للمدينة¹.

زيادة عن المكان المميز الذي تحتله هذه الساحات في المجال العمراني، فإنها موزعة بانتظام بين الأحياء السكنية. ونذكر على الخصوص بعض الساحات التي لا يزال البعض منها يلعب الدور المنوط بها إلى يومنا هذا :

- ساحة القافلات (بالقرب من الجامع الكبير)
- ساحة تافراطة
- ساحة المدرس
- ساحة الموقف (ملئقى أسفل القيصرية و درب سيدي حامد)
- ساحة الخادم (بلاص الخادم)

ج . الترابط بالوظيفة السياسية - الإدارية :

إن هذه الوظيفة اتسمت بالمركزية، إذ لم تتوزع على مستوى الأقطاب الثانوية. كان التسيير الإداري للمواطنين يتم في مراكز السلطة الحاكمة التي كانت تقع بالقصر البالي، فالمشور أو بمقربة منه.

أما عن القرارات والإعلانات، كانت تلقى على المواطنين عن طريق التجمعات التي كانت تقام في المسجد الكبير { في مواقيت الصلاة }، و التي تناوبه فيها المساجد والمصليات على مستوى الأحياء والحومات.

وكان الإعلام يتم كذلك عن طريق "البراح" الذي كان يلقي الأخبار، ويقرى القرارات في الساحات العمومية وفي الشوارع والطرق.

¹ سيدي محمد نقادي : التصميم العمراني لمدينة تلمسان و دلالاته الاجتماعية

رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1991، ص: 43 و 71

إن هذا الشكل من التنظيم للمجال العمراني يوافق شكل التنظيم الاجتماعي - الجمعي للمجتمع العربي - الإسلامي في قيمه وسلوكه حيث نجد علاقة وطيدة بين الوظائف التي تطرقنا إليها والعناصر المادية التي فحصناها إلى حد الآن.

ويظهر هذا خاصة في العلاقة التي تربط العناصر المبنية (الإطار المشيد) مع بعضها البعض، كتمركز المساجد، والأسواق، والمساحات المخصصة لمختلف النشاطات.

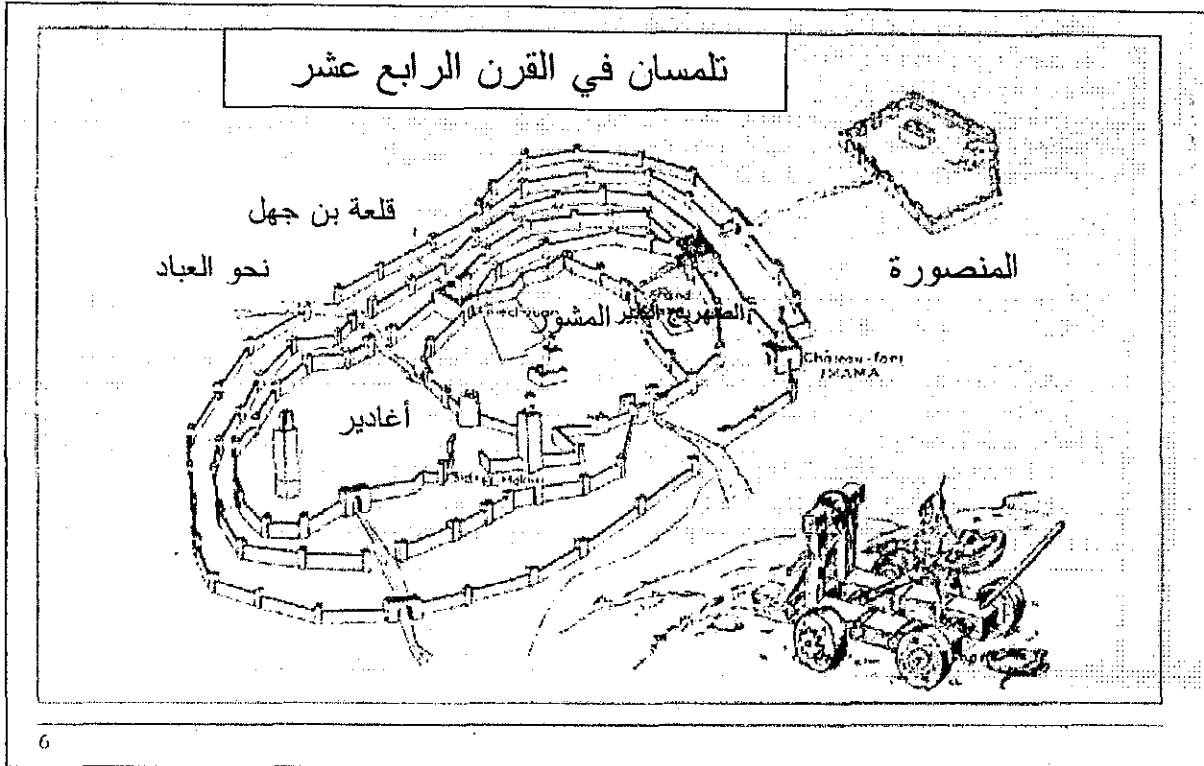
بالنسبة للدروب الحرفية والمساحات وتمفصلها الجيد، فإن الوظيفة السكنية "La fonction habitat" تندمج طبيعياً ويتدرج ضمن العناصر الأخرى المكونة للمجال العمراني، وفق مقاييس تراعي الألفة، الحياء، واحترام الجار... إلخ. كما سوف نراه عند دراسة هذا الجانب.

2 . المستوى المجهري :

في هذا المستوى التحليلي سنتطرق إلى فحص العناصر المكونة للمجال العمراني لمدينة تلمسان العتيقة . هذه العناصر البنيوية التي تشكل المدينة ككل متكامل هي:

- أسوار المدينة
- أبواب المدينة
- الطرق والمساحات الفارغة
- العمارات العمومية
- المنازل و الدور

1.2 . أسوار المدينة :



6

عرفت مدينة تلمسان تشييد أسوار كثيرة للإحاطة وتحديد مجالها العمراني . هناك أسوار بوماريا، وأقادير، وأسوار تغزرات وتلمسان وأسوار المنصورة ، وغيرها .

في كل مرحلة من مراحل تطورها وسعت المدينة مجالها العمراني وشيدت أسوار جديدة. و يبين لنا هذا أن الأسوار تؤدي دور حاجز واق ضد الهجمات المحتملة والمفاجئة من الخارج، وليست عبارة عن خط عمراني حاد لمجال المدينة فقط (عكس المدينة الرومانية).

أبوابها التي تفتح في الصباح الباكر وتغلق عند غروب الشمس، هي خير دليل عن مدى الحاجة إلى أمن المواطنين والمحافظة على المدينة، التي هي عبارة عن مأوى جماعي.

هذه الأسوار هي أول عنصر فيزيقي الذي من خلال إحاطته بالمدينة يحدد ويفصل بين "المجال العمراني" و "المجال غير عمراني".

أمّا السور المشيد من قبل الفرنسيين في القرن التاسع عشر {1852}، فإنّ مشيديه حاولوا تحديد مجالهم العمراني للمدينة عن طريق المعالم الفيزيائية القديمة: كالأسوار {أو ما تبقى منها}، والأبواب، والمنجزات المختلفة {مساجد - مرافق جماعية - نور...}، وساحات وطرق مواصلات عمرانية رئيسية.

كذلك، إنّ انزلاق المجال العمراني في اتجاه الغرب، وكثافة النسيج العمراني لـ : تفرّرت على حساب أغادير، كان حاسما في تحديد وتوحيد مسار الأسوار التي كانت تحيط بمدينة تفرّرت في أغلبها.

لذا، نعتبر المجال الكائن داخل " أسوار 1852 " حقل الدراسة الأساسي بالنسبة لهذه المرحلة التاريخية، لأنه يحتوي على جميع خصائص مدينة القرون الوسطى. يتم الدخول إلى هذا المجال عن طريق الأبواب التي توجد على مستوى الأسوار.

2.2. أبواب المدينة :

مثل المدن القديمة الرومانية والمدن الإسلامية التقليدية التي سبقت

أن قدمناها، فإنّ تلمسان ، كذلك ، هي مدينة ندخل إليها عن طريق أبواب.

إن عدد الأبواب يختلف من مرجع إلى آخر، ويصعب إعطاء العدد الصحيح لها والتحديد بدقة لجل الأماكن التي كانت تقع فيها هذه الأخيرة. لهذا، سوف نقصر على تقديم الأبواب المذكورة في المراجع التي تمكنا من الحصول عليها، مع النقيب عن بعضها. ولتسهيل المهمة لمن يهّمه هذا الموضوع سنحاول إعطاء أسماء الأبواب مع المراجع التي ذكرتها، في الجدول التالي :

ص	المرجع	الأبواب
136	إسماعيل العربي : المدن المغربية	ذكر أبو الفدا {إسماعيل بن علي} عدد ثلاثة وثلاثون بابا
76	أبو عبيد الله البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب	باب الحمام، باب هب، باب الخوخة، باب العقبة باب أبي قرّة
ج 1	يحيى بن خلدون : بغية الرواد	هناك أبواب أخرى، زيادة عن أبواب أغادير، ذكرها يحيى بن خلدون وهي: باب إيلان، باب عمران، باب البنود، باب كشوطة، باب علي، باب التوية، باب الجياد، باب القرمادين، باب الحلوي، باب الملعب، باب زير، باب إيمان تجمي
104	Rachd BOUROUBA: Architecture militaire de l'Algérie médiévale	باب السكة
153	L'Abbé BARGES : Tlemcen, Ancienne Capitale du royaume de ce nom	باب درب السمار
15	سيدي محمد نقادي: التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية رسالة ماجستير، جامعة تلمسان، 1991	باب البرادعي، باب سور الحمام، باب تازة، باب الزاوية، باب الربط، باب سيدي أبي جمعة، باب رواح، باب الجغيلة

❖ عدد الأبواب :

يذكر أبو الفدا : ثلاثة عشر بابا { 13 }

أما أبو عبيد الله البكري الجغرافي العربي فإنه ذكر خمسة أبواب {05} هي:
باب الحمام، وباب هب، وباب الخوخة { في اتجاه القبلة } ، وباب العقبة { في الشرق } ،
وباب أبي قرّة { في الغرب }.

وقد ذكر يحيى بن خلدون، مؤرخ سلالة بني زيان، اثني عشر بابا { 12 } .
إذا أخذنا في الحسبان ما جاء به البكري ويحيى بن خلدون، يكون عدد الأبواب سبعة
عشر بابا { 17 = 12 + 05 } .

وإذا أضفنا لها أسماء الأبواب التي فتحها الفرنسيون، وعددها خمسة {05}، في السور
الجديد وهي: باب وهران، باب الجنوب، باب فاس، باب سيدي أبي مدين {أو باب معسكر}،
وباب الشمال، يكون العدد الإجمالي الذي عرفته مدينة تلمسان خلال العصر الإسلامي :
 $35 = 05 + 17 + 13$ بابا .

لهذا، ونظرا للإلتباسات التي وقعت في تسميات الأبواب والأماكن، وإتلاف البصمات
المادية، والخلط الذي وقع في الذاكرة الجماعية، فإنه من الصعب جدًا معرفة العدد والمكان
الحقيقيين لهذه الأبواب. ويخبرنا سيدي محمد نقادي¹ أن باب الزاوية وباب سيدي الحلوي،
هما في الواقع باب واحد أسمه : باب زاوية سيدي الحلوي – وباب علي هو: باب زير²
– وباب الرواح هو: باب أبي قرّة .

ومهما كان من أمر، فإنّ العدد العقلاني للأبواب التي ذكرها كل من أبي عبيد الله
البكري ويحيى بن خلدون³ هو خمسة أبواب { 05 } . أما يحيى بن خلدون الذي ذكر في
مؤلفاته خمسة عشر بابا، فإنه لم يذكر منها إلا خمسة لما وصف المدينة، إذ قال : ((لها

1 نقادي سيدي محمد : التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية

رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 1991، ص: 15

2 يحيى بن خلدون : بغية الرواد – ج1 ، ص: 68

3 يحيى بن خلدون : بغية الرواد – ج1 ، ص: 19

خمسة أبواب : قبلة باب الجياد، وشرقاً باب العقبة، وشمالاً باب الحلوي وباب القرمدين،
وغرباً باب كشوطة))¹ .

أمّا محمد بن عمرو التمار، فإنّه يظهر سبعة أبواب (07) في المخطط المقترح في كتابه². هذا العدد الفردي الوحدوي له دلالة رمزية : مدينة بسبعة أبواب نسبة إلى السماوات السبع، والكواكب السبع {أسطورة}، والجنات السبع، وأبواب الجنة السبع ... الخ. لكن، في الواقع هذه الأبواب تقع في أغلبها على مستوى السور الذي بناه المستعمر الفرنسي. ولهذا هناك خلط بين ما أنجز في العصر الوسيط وما أضافه الفرنسيون، والذي اتخذ أسماء حسب الاتجاه الذي يؤدي إليه (باب وهران، باب فاس، باب معسكر...) ، أو احتفظ بالاسم الأصلي مثل: باب الجياد، باب زير...

أما المعاينة الميدانية التي قمنا بها في المجال العمراني للمدينة والمقابلات مع إطارات مصلحة المحافظة على الإطار المبني لولاية تلمسان، أظهرت أكثر من سبعة أبواب، وهذا راجع إلى عدد الأسوار التي شيدت حول المدينة في المراحل التاريخية المتعاقبة، التي عرفت توسع المدينة.

ونظراً لعدم وجود أثر مادي لمعظمها، ولا حتى خرائط ولا رسومات بيانية في هذا الموضوع، فإنّه يستعصي علينا إظهار هذه الأبواب في مخطط محكم. ولهذا، نكتفي بتقيح وتقديم مخطط محمد بن عمرو التمار (المخطط السالف الذكر) ، كمثال فقط.

1 يحيى بن خلدون. نفس المصدر ، ج1، ص : 19

2 محمد بن عمرو التمار : مصدر سابق، مخطط ملحق { آخر صفحة }.

الأبواب السبع هي :

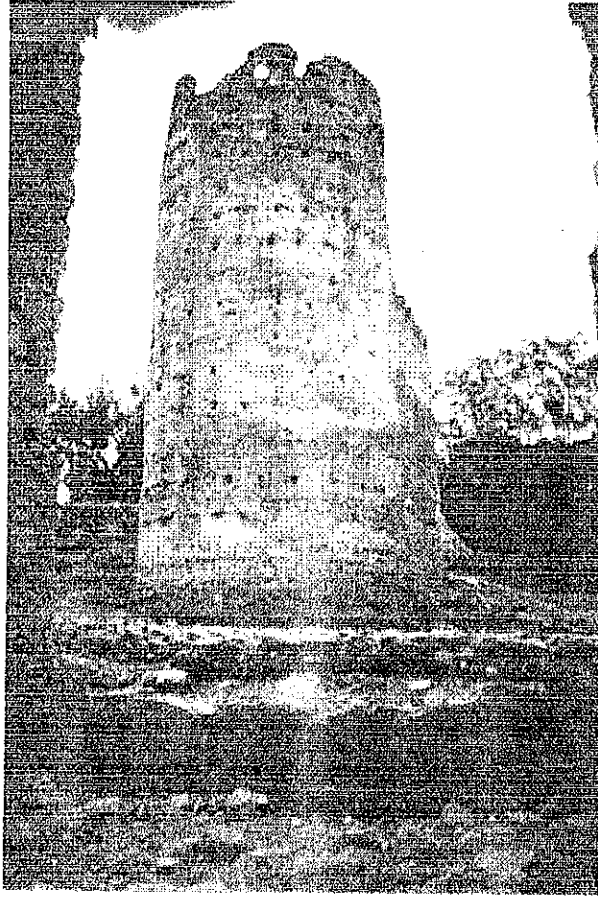
- في الناحية الشرقية : باب زير (1) وباب الجياد (2).
- في الجنوب : باب الجنوب (باب المشور) (3) وباب الحديد (4).
- في الغرب : باب فاس (5) وباب وهران (6).
- في الناحية الشمالية : باب سيدي البرادعي (7).

وداخل هذه الأسوار، بالقرب من باب فاس نجد إشارة إلى الباب المسماة «باب كشوطة».
خارج الأسوار، نجد «باب القرمدين» في الشمال و«باب الخميس» في الناحية الغربية، على الطريق الوطني رقم : 07، بالقرب من المستشفى الجامعي لتلمسان.
هذه الأبواب هي نقاط لمراقبة وحراسة الحركة الأدمية، والحيوانية والآلية.

باب القرمدين التي ما زالت في حالة جيدة، تسمح بالملاحظات التالية :

أ- إن ارتفاعها وعرضها يجبران القوافل، والفرسان، ومختلف الآليات على التخفيض من سرعتها عند اجتياز الأبواب. و هذا من أجل تجنب كل دخول سريع وغير مرتقب (هجوم مفاجئ).

ب- إن وجود البروج المرتفعة على الأسوار الداخلية تستخدم كمرصد للمراقبة.



ملاحظة:

1. في المدن الرومانية كانت الأبواب تفتح على الطريقين المحوريين : « الكاردو ودوكيمانيس » (Le cardo et le Décumanus) حسب الإتجاهات المقررة عند تأسيس المدينة.
2. في المدن الإسلامية عامة، و في مدينة تلمسان خاصة، الأبواب تفتح على الطرق التجارية. و هناك منافذ أقل اهمية توصل المدينة بالأحواز المحيطة بها (حقول - بساتين).
3. من بين الأبواب السبع، التي نشاهدها في الخريطة الملحقة للنص، نجد أن « باب الجنوب » الملتصقة بقصر المشور تستعمل بصفة مانعة (Exclusivement) كمدخل لقصر المشور، مقر السلطة السياسية للمملكة الزيانية.

2. 3 . الطرق، المجالات الفارغة و المفردات :

هذه العناصر المكوّنة للمجال « الغير مشيّد » للمدينة تشارك جميعا - لكن كل واحد حسب قواعد معيّنة - في تنظيم شبكتها عن طريق المدّ والحركة المختلفة الأشكال التي تعرفها المدينة في جميع أجزائها.

➤ الطرق :

تتشكّل شبكة تلمسان العمرانية من مجموعة طرق تراتيبيه ، مترتبة وظيفيا واجتماعيا ، حسب خصائصها التقنية وغاياتها كالتالي :

يذكر الدكتور ندير معروف¹

1. الحومة

2. الزنقة (وقد تكتسي عنده معنى الحومة)

3. الزنيقة

أمّا دونيس غراندي (Denis GRANDET)²، المختص في العمران الإسلامي ، فإنه يوزّع

هذه الطرق، أو الممرات كما يلي:

1. الطريق الرئيسي.

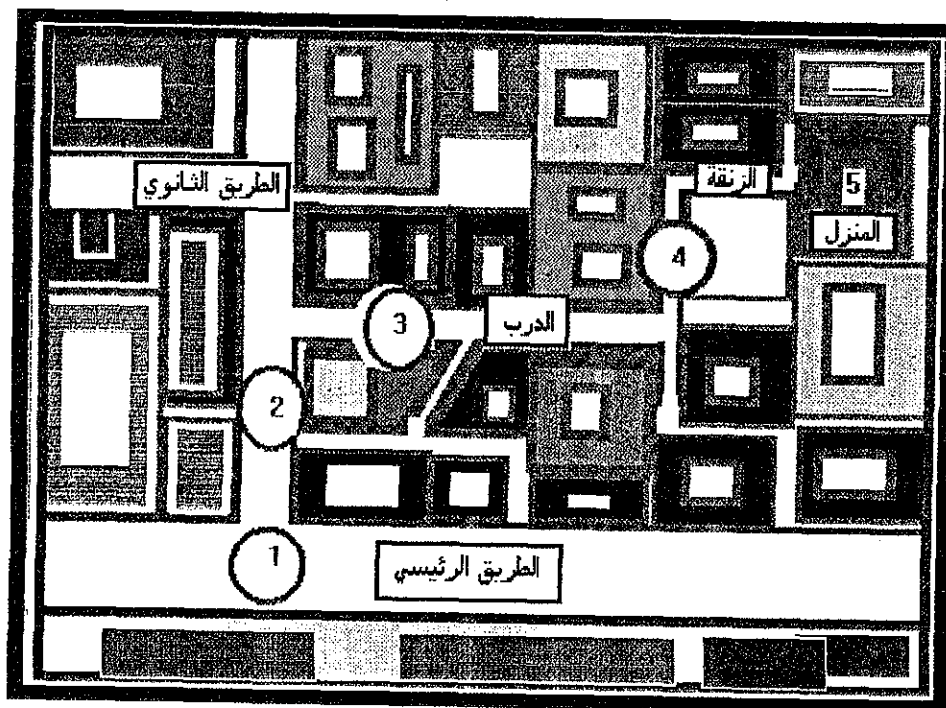
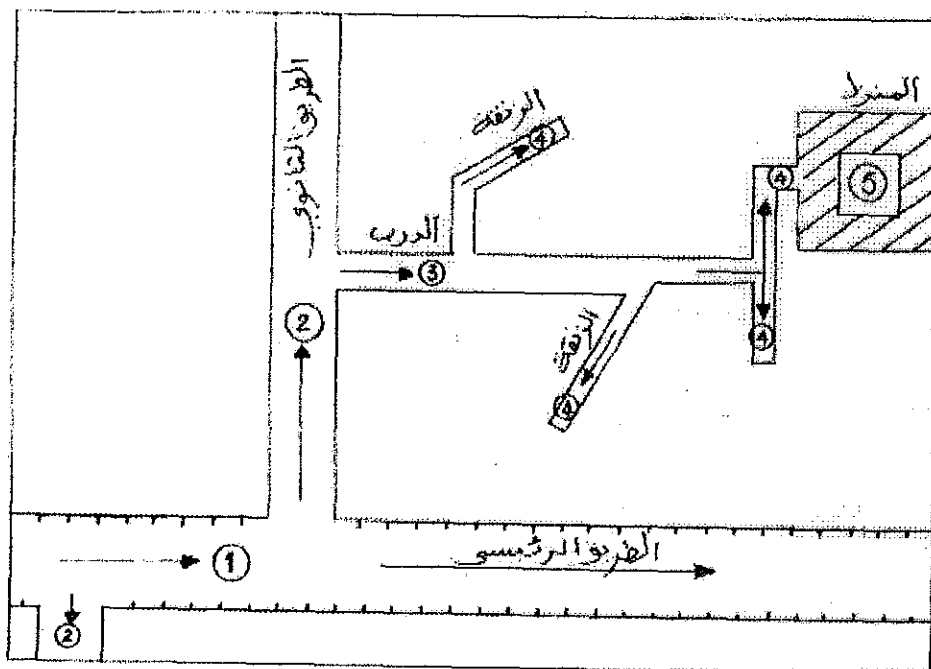
2. الطريق الثانوي.

3. الدرب.

4. الزقاق (زنقة).

¹ Nadir MAAROUF : Quelques réflexions méthodologiques sur la ville africaine, Histoire sociale et vocation actuelle de la Médina – In :Premier Séminaire maghrébin sur les Médinas – Tlemcen : Journées des 27-28-29/septembre 1988, p:22.

² Denis GRANDET : In , Architecture et Urbanisme Islamiques, O.P.U., Alger, 1988.



تراتب الطرق في المدينة العتيقة

رسم، رقم:

إنجاز: حسين رحوي

أ. الطرق الرئيسية :

هي التي تربط وسط المدينة بمخارجها (أبوابها) و تتميز بعرضها الواسع وانتظامها (Régularité) الذي يسمح بمرور (سيول) الحركة المتعددة الأنواع (بشر، حيوان، آليات ... الخ). كما يظهر في مخطط دوسولمس (المشار إليها)، هذه الطرق تؤدي إلى الأبواب الرئيسية للمدينة ك: باب الحمام شمالا، و باب سيدي بوجمعة غربا، و باب سيدي بومدين شرقا.

○ الطريق الشمالي يؤدي إلى ندرومة وهنين.

○ الطريق الغربي يقود إلى تاسلة (سيدي بلعباس) و وهران مرورا بتاقبالت.

في المخطط المقترح من قبل محمد بن عمرو التمار¹، الأبواب التي تمر بها هذه الطرق تأخذ أسماء المدن والمجمعات العمرانية التي تؤدي إليها، مثل : باب تازة، باب فاس، باب الخميس، باب وهران، باب سيدي أبو مدين ... الخ.

هذه الطرق التي تلتقي في وسط المدينة حيث تتجمع التجهيزات المركزية حول ساحات عمومية واسعة المساحة ، تخدم على وجه الخصوص المشور، المسجد الكبير، المدرسة التاشفينية ، القصر البالي، القيصرية و محاور التجارة ومساحات التخزين.

ومن الخصائص التقنية لهذه الطرق، فإنها قليلة الاعوجاج وغير مغطاة (حتى لا تحد من الارتفاع) .

((تعتبر هذه الطرق مجالا عموميا مفتوحا لجميع الناس (سكان المدينة والأجانب).))

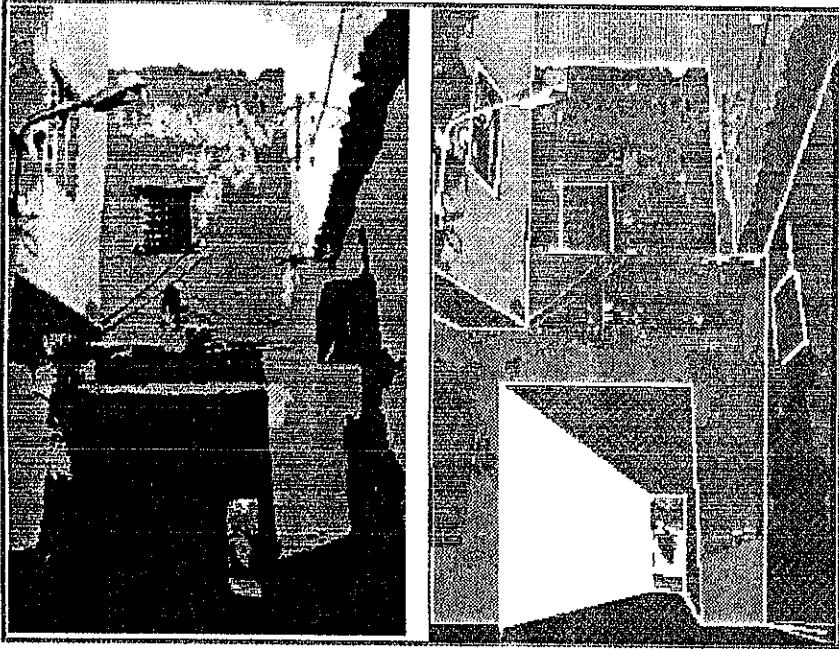
¹ - تلمسان عبر العصور - مصدر سابق، آخر صفحة

ب . الطرق الثانوية :

تأخذ دور مناوب للطرق الرئيسية داخل المجال العمراني للمدينة، يربط الأحياء فيما بينها و بين مركز المدينة، و بهذا تساعد على تقصير المسافات، في الاتصال بالطرق الرئيسية و وسط المدينة، وكذلك الأجزاء المكونة لها.
كما تخدم هذه الطرق بعض التجهيزات المهمة على مستوى المدينة والأحياء.

هذه الطرق، وإن كانت أقل عرضا في بعض المسارات، بالقياس مع الطرق الرئيسية، فإنها تعرف نشاطا غير منقطع للمارة، نظرا للدور المنوط بها.

((تعتبر هذه الطرق مجالا لسكان الأحياء و المدينة .))¹



¹ معاينة ميدانية

ج . الدروب (ج درب) :

تنظم هذه الدروب شبكة الحي السكني وتوصل مجموعة مساكن. تتميز بعرضها المتواضع، بحيث لا يتعدى المترين (02م). كما تتميز بالإلتواءات المتكررة في الاتجاهين. هذه الدروب لا تعرف نفس المد (Flux) للمارة، حيث لا يسير فيها إلا سكان الحي والحومة.

((وبهذا هي مرتبة كمجال لسكان الحي والحومة.))

د . الزقاق (الزنقة) :

الزنقة هي عبارة عن طريق مسدود، أو بلفظ أصح ممر مسدود، ضيق، يوصل بعدد جد محدود من المساكن (منازل) و ينتهي عند أحد مداخل هذه المنازل. بعض المسارات من هذه الدروب مغطاة، مشكلة أروقة تقي من حرارة الشمس ومن الأمطار، كما تكيف الهواء.

((وهذا المجال يعتبر مجال الحومة أو الزنقة.))

إذا كانت الطرق الرئيسية تعتبر مجالات عمومية ، فإن الأزقة مجالات خصوصية.

إن بعض الأجانب من اهتموا العمران، يرون أن هذه الطرق التي تسري كالعروق (شرايين) في جميع الاتجاهات ما هي إلا نتيجة حتمية لعمليات البناء التي كانت تتم بصفة عفوية، أي غير مخططة¹.

لهذا ، يصرحون أن هذه الطرق، ما هي إلا مجموعة مسالك نتجت عن عمليات بناء عشوائية وفوضوية.

¹ Service du Génie responsable des Travaux Urbains :

Le tracé des villes et les Ingénieurs du Génie – Algérie :1830 –1870 ; pp: 9 et 15.

لكن الذين عاشوا المدينة، ونظروا إليها من الداخل، تمكنوا من فهم المنطق الباطني الذي كان وراء تخطيط وتشبيد كل فصيلة من عمرانها، ولمسوا أن العمران العربي - الإسلامي ليس مجرد مجموعة من الجدران ملتصقة ببعضها.

ولهذا، فإن المدينة هي نتاج الممارسات الاجتماعية، وكل عنصر من عناصرها يستجيب لمتطلبات سوسولوجية وثقافية، ولكل عنصر بعده ودلالته.

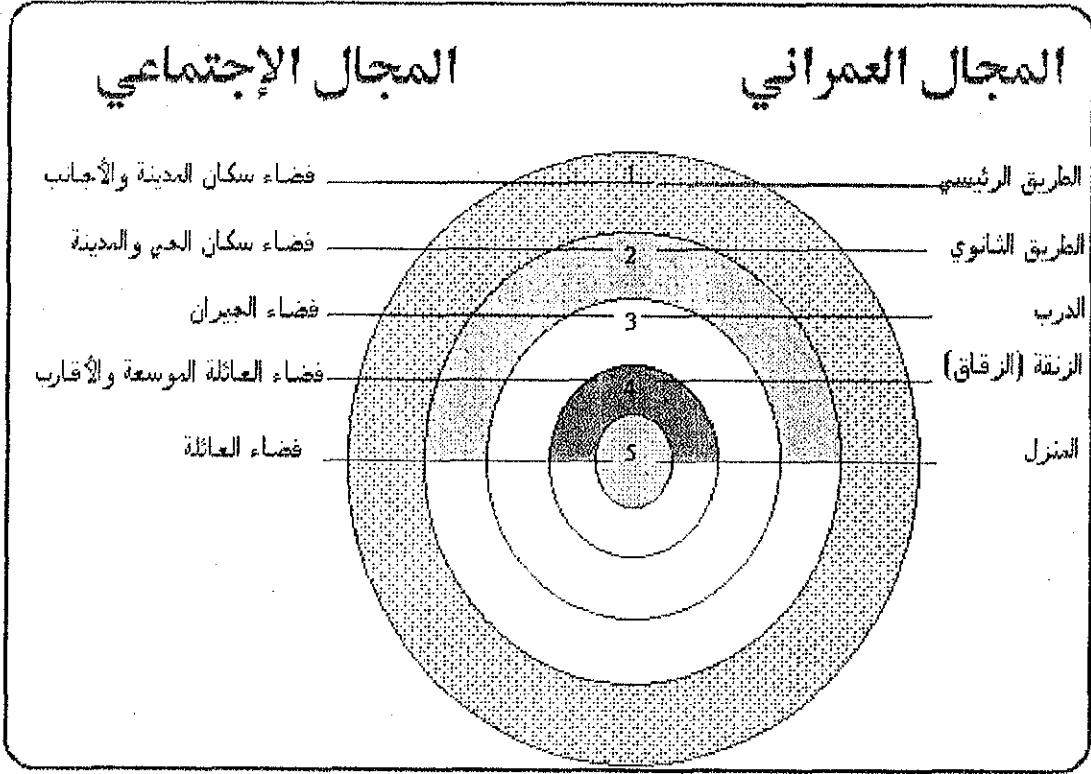
وأنطلاقاً من هنا، نلاحظ أن الطرق، بمختلف أشكالها، منظمة بتراتب وفقاً لوظائفها، ومرتبطة ببعضها البعض إرتباطاً عضوياً.

تمكّن هذه الطرق من الانتقال التدريجي من المجال العام (عتبة رقم : 01) إلى المجال الخاص (عتبة رقم : 05). هذا الانتقال يتم بصفة طبيعية، أي بدون قطيعة، كما يلعب دور مصفاة بالنسبة للمارة.

هذا يبيّن أن مجال المدينة في مساراته العديدة يتبع منطقاً واضحاً في التنظيم الاجتماعي لسكان المدينة والمقيمين بها.

(أنظر الرسم في الصفحة الموالية) .

هذا التناسق نظهره بوضوح في الرسم البياني المبسط، التالي :



تبيان التناسق بين المجال العمراني والمجال الاجتماعي في مدينة تلمسان العتيقة

هذا التنظيم المتكرر على مستوى جميع الأحياء ، المرتبطة مع بعضها البعض ، هو موضوع ، كذلك بتراتب مع وسط المدينة : المجال العام والعمومي للمدينة .

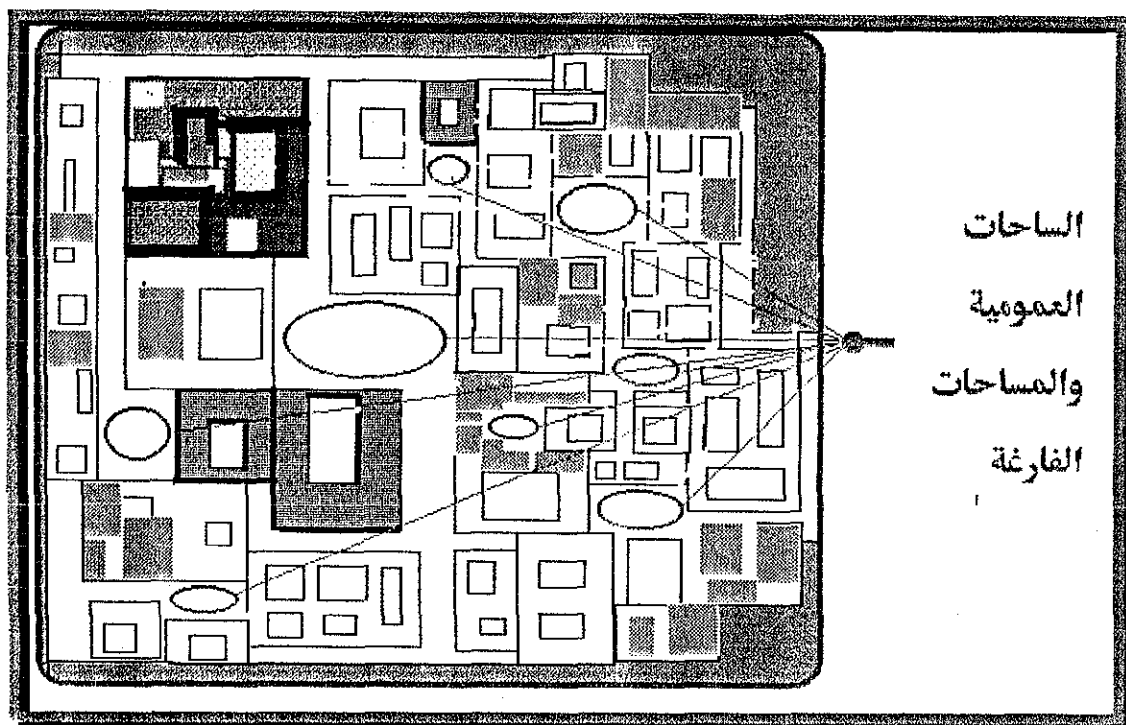
((إن ترابية الوظائف العمرانية (أو تدرجها) في هذا النطاق ، تقابلها وتتناسق معها ترابية الوظائف الاجتماعية - الثقافية .))

إذن، هناك وفاق بين البنية والوظيفة ، أي أن هناك علاقة وطيدة بين الفضاء الفيزيقي (العمراني) والفضاء الاجتماعي في مدينة تلمسان العتيقة.

وبهذا، إنّ الانتقال من العتبة "1" (SEUIL n°1) - وهي المجال الجماعي العمومي - إلى العتبة "5" - (SEUIL n° 5) وهي المجال العائلي الحميم (Espace intime) - يتم بدون أن نلمس حواجز مادية. أي أنّ الحواجز هنا اجتماعية وأخلاقية .
وتعتبر كل عتبة مجال عبور إنتقالي إلى العتبة التي تليها .
هذا التنظيم الخاص بالمدينة العربية - الإسلامية، يبرز شمولية الرؤية في إنجاز المجال العمراني.

د . المساحات الحرة و المفردات :

هي المجالات العمرانية الغير مشيدة ، سواء كانت عمومية أو خاصة.



د.1. المجالات العمومية :

هي الساحات التي تمر بها - أو تقطعها - طرق المواصلات العمومية وأماكن التجمعات الجماهيرية بوسط المدينة مثل الساحة المحادية للمسجد الكبير و المدرسة التشفينية (ساحة القوافل) ، والساحة المحادية للمشور، والساحة المسماة حاليا "ساحة ابن باديس" (بلاص الخادم) و ساحة " تافراطة " المسماة حاليا "ساحة الشهداء".

هناك كذلك المجالات الكبرى الواقعة في الناحية الغربية للمدينة (تغرارت) والتي شيد فيها " الصهريج الكبير" ، (le Grand Bassin) ¹ والذي كانت تجري فيه ومن حوله التظاهرات الرسمية للمملكة ، كما كان يستعمل لري البساتين ² .

د.2. المجالات الخاصة :

هي المجالات التي تنتمي- من حيث وضعها القانوني- إلى قبائل معروفة ، وعائلات، وأشخاص، هذه المجالات تنتهي عند أسوار المدينة، حيث يبدأ ميدان الحوز.

وهناك مجالات متكوّنة من مساحات لمعالجة المنتوجات الفلاحية : « المطمر » أو للصناعة التقليدية : « الفخارين » ، أو مستودعات مختلفة.

نجد كذلك مساحات خضراء (بساتين) بضواحي أقادير.

¹ وكان يدعى كذلك : الصهريج الأعظم

² Amar DHINA : Cités Musulmanes d'Orient et d'Occident, ENAL, Alger, 1986, p : 86.

+ Atallah Dhina : le royaume Abdelouadide à l'époque d'Abou Hammou Moussa 1^{er} et d'Abou Tachfin 1^{er} OPU-ENAL, Alger, 1985, pp : 34-35

+ AL TANISI : Histoire des Bani Zeiyân, Traduction de Bargès, p : 46

الفصل السادس :

وظائف ودلالات بعض الوحدات العمرانية والعناصر المعمارية المميّزة

- ❖ الوحدات العمرانية ذات القيمة الجمالية والتاريخية
- ❖ بعض العناصر المعمارية المميّزة

الفصل السادس : وظائف ودلالات بعض الوحدات العمرانية والعناصر المعمارية المميزة

بعدما قدّمنا التّصوّر العام للعمران العربي الإسلامي، ودرسنا الخصوصيات العمرانية لمدينة تلمسان العتيقة في مستوياتها العامة (Macroscopique) والخاصة (Microscopique) وبيننا العلاقة الوطيدة بين الإطار المشيد للمدينة والفضاء الاجتماعي الثقافي ، سنحاول في آخر المطاف أن نزيد تأكيدا فيما صرّحنا به.

لذا ، سنفحص بعض الوحدات المعمارية ذات القيمة الجمالية والتاريخية وبعض العناصر المميزة ، معتمدين على المعاينة الميدانية ومقابلة السكان للإستفادة من ذكرتهم الجماعية وآرائهم ، وأخذ صور إبراز وتأكيد صحة ما قدّمناه وكذلك تدعيما لما سنقدمه الآن.

• الوحدات المعمارية ذات القيمة الجمالية والتاريخية

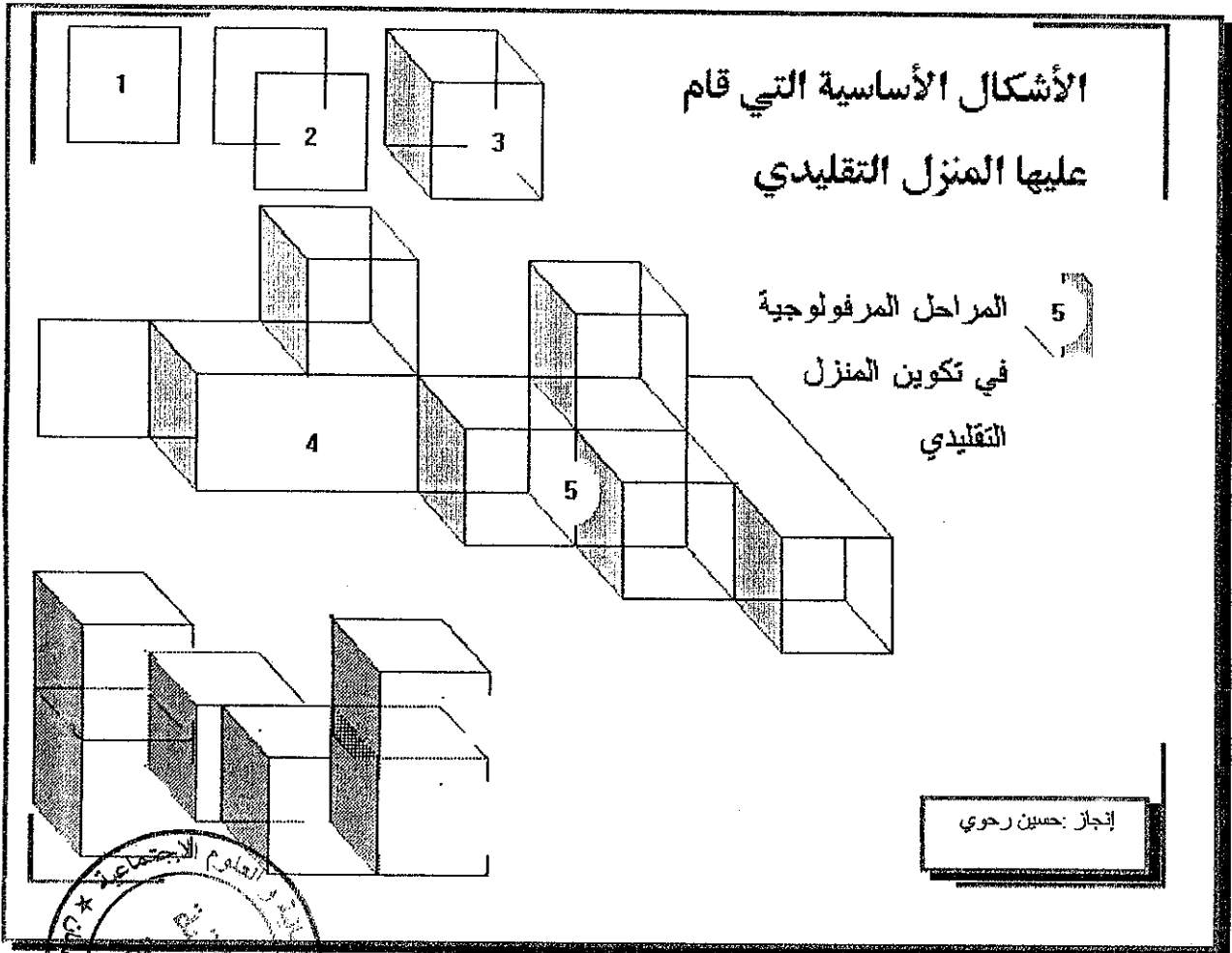
1 - المنزل التقليدي

❖ الشكل :

أخذ المنزل التقليدي شكلا بسيطا ، إذ تشكل على أساس مربع أو مستطيل

مسطط في الفضاء، فأعطى مكعبا أو متوازي السطوح (Parallélépipède) .
إن امتزاج المكعبات ومتوازيات السطوح أدى إلى تركيب معماري في شكل وحجم أفي غاية الانسجام .

إن نفس هذا التركيب يعاد إنتاجه على المستوى العمراني " أنظر إلى الرسم التالي :



❖ الطراز:

يأخذ بعين الاعتبار سلسلة من المقاييس والتي يمكن حصرها في ما يلي:
المناخ-الموقع-الأمن-الألفة-والبساطة.

ومن هنا تظهر بساطة العمارة العربية الإسلامية عندما تلاحظ من الخارج.
لقد تمّ رسم الواجهات الخارجية ومحيط المنزل بطريقة عادية ؛ الارتفاعات تتراوح ما بين 4م و 8م عموماً ، بطابق واحد أو اثنين على الأقصى.

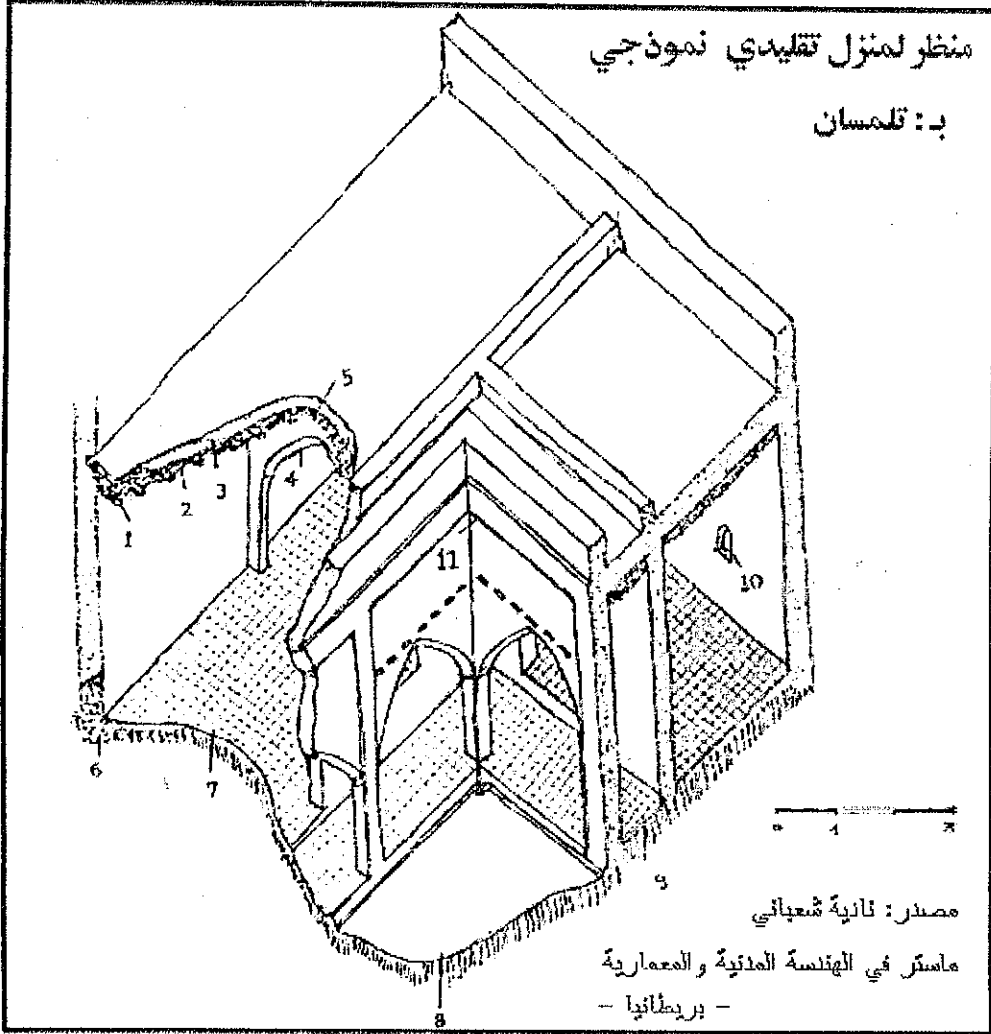
في الطابق الأرضي، باستثناء باب الدخول، فإنه لا يوجد منفذاً آخر.
في الطابق الثاني لا نجد إلاّ، فتوحات قليلة وضيقة (الحد الأدنى الذي يسمح بمرور الهواء والضوء) . وذلك لحجب المنزل ومن يسكنه عن الأنظار، تبعاً لتعاليم الدين الإسلامي، إذ يقول الله جل جلاله :

(يا أيها النبيء قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً).

سورة الأحزاب، الآية 59 .

وبما أن نمط الحياة الإسلامي يفرض حياة موجهة الى الداخل ، فإن الفتوحات وكلّ التحليات المعمارية والفنية توجد محشوة داخل السكن والذي يفتح في الداخل على الفناء الذي يعدّ مكاناً مركزياً مفتوحاً تتمفصل حوله قاعات المنزل.

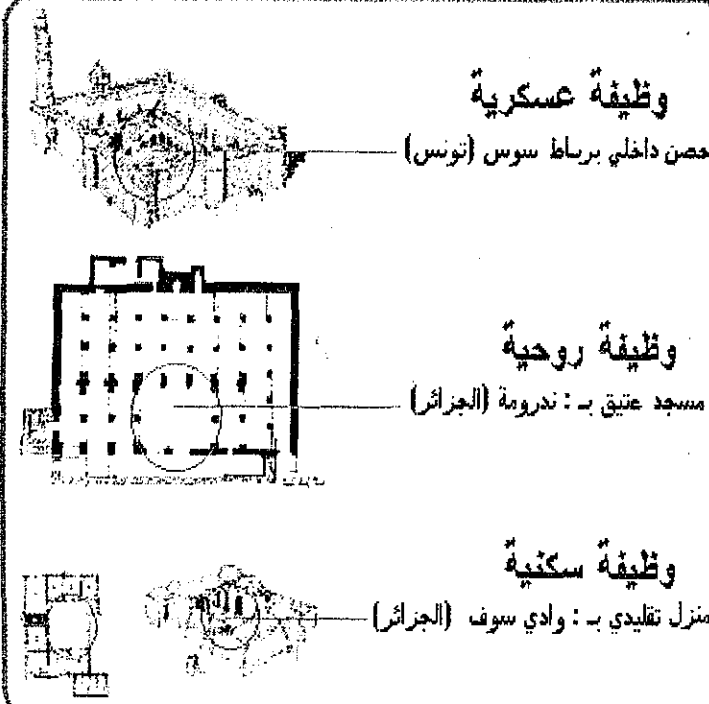
أنظر إلى المخطط التالي :



إن الفناء يعدّ منبع الضوء لكل القاعات (البيوت) المنظم المناخي والصوتي، وكذلك
منظم العلاقات الاجتماعية للعائلة.

إن هذه البنية متواجدة باستمرار في فن العمارة والعمران في المغرب وأرض الإسلام، ويُعاد إنتاجه على المستويين:

➤ على مستوى المباني العمومية والمنازل (أنظر الرسم التالي)



وظيفة عسكرية
حصن داخلي برباط سوس (تونس)

وظيفة روحية
مسجد عتيق بـ : ندرومة (الجزائر)

وظيفة سكنية
منزل تقليدي بـ : وادي سوف (الجزائر)

مبدأ التوجه الى الداخل
في العمارة العربية الإسلامية

ملاحظة هامة:

مهما كانت وظيفة البناية ، ومهما كان موقعها الجغرافي ، فإننا نجد نفس التصور والتصميم للفناء ، الذي يقع داخل البناية وفق مبدأ مركزي ثابت .

المصدر : ضمن مداخلة للأستاذ مارك كوت في الملتقى الدولي حول " التنظيم العمراني بالجزائر " المدة أيام 19 ، 20 و 21 نوفمبر 1985م

➤ على مستوى المدينة (أنظر الرسم رقم :) .



ويؤدي بنا هذا إلى القول بأن إنتاج البناء يسيره مبدء ثابت: مبدء المركزية = الكل يتوجه إلى فتحة مركزية (إلى الأعلى) والتي تصبح رمزا سواء على مستوى المنزل أو على مستوى المدينة.

إن الخبراء يقفون مذهولين أمام وحدة التفكير المجسدة في العمران ويتساءلون : هل المدينة هي التي تنتج المنزل أو المنزل هو الذي ينتج المدينة ؟

التوزيع والوظيفة:

يتكون المنزل من التكرار للبيوت المتقابلة والمحيطة بالفناء المركزي. إن الدخول إلى المنزل يتم عن طريق " السقيفة " والتي تعتبر المنفذ الوحيد للمنزل بقرب دورة المياه "بيت الماء" وهي دائما مخفية بعنصر من عناصر المنزل (قاعة ، مطبخ ، أو الدرج) .

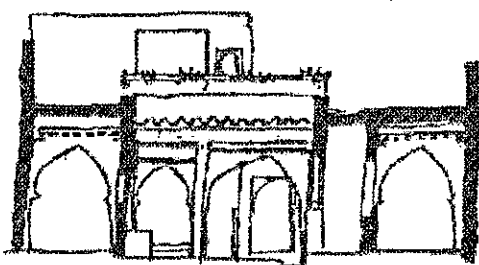
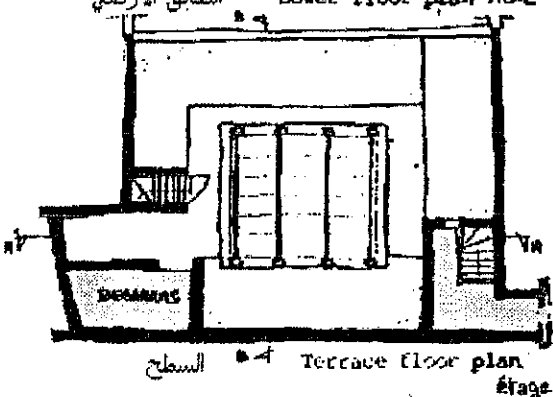
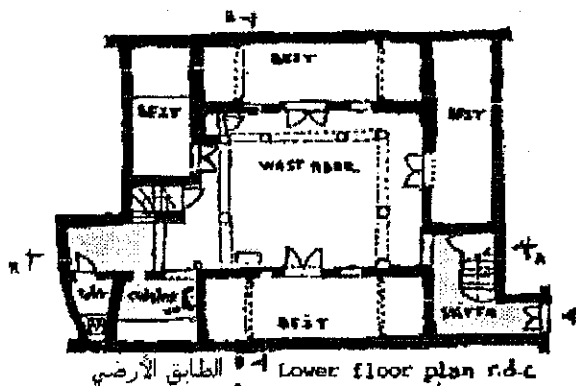
- الإقامة حيث يجتمع الآباء والأجداد.
- إقامة الوالدين وهو المكان العادي للغذاء والصلاة " والحكايات " والنوم
- بيت الإبن المتزوج (أوبيت الأبناء المتزوجين) .
- بيت الأولاد.
- بيت البنات.

وعندما يتوفر في المنزل طابق ثاني ، فإن الوالدين والعزّاب يستغلّون الطابق الأرضي والأبناء المتزوجون الطابق العلوي . (في بعض الحالات الأبناء هم الذين يبنون الطابق العلوي إذا أرادوا الزواج) .

• السطح مفتوح للجميع

- تستخدم بعض البيوت للعمل في المنزل (الزرابي، الخياطة التقليدية كالمجبود...إلخ).
- وفي حالة عدم توفر ذلك، يصبح الفناء (وسط الدار) مكانا للنشاطات .
- صرف المياه القذرة يتم عن طريق حفرة تقنية .
- أما التزويد بالمياه الصالحة للشرب، فيتم عن طريق البئر الذي يوجد بالمنزل أو عن طريق ينبوع عمومي يقع في الحي .

مخطط وإسقاط
ل: منزل تلمساني تقليدي



مقطع ب . ب .

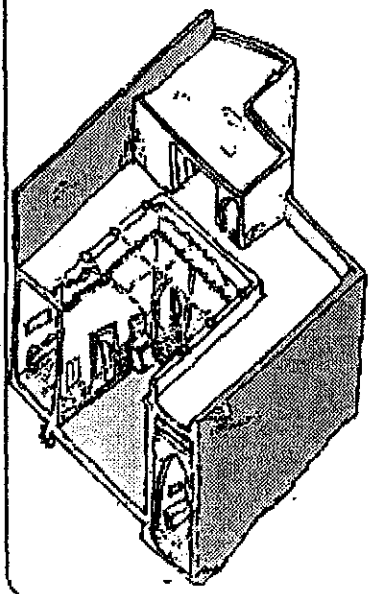


مقطع أ . أ .

مصدر: نادية شجياتي
ماستر - بريطانيا -

توضيب: حسين رحوي

منظر بالبعد الثالث
(زاوية : 45 °)



❖ مواد البناء والتزيين

لقد ربطنا بين كلمتي البناء والتزيين لأنهما مرتبطتان إرتباطا وثيقا في المنزل التقليدي ويساهمان في وظيفة الحمل والطابع الجمالي .

إن المواد بمختلف أشكالها ، والأقواس والأعمدة لا تعتبر دعامة للبناء فقط ، بل تساهم كذلك في تشكيل لونا موحدا لا يضر العين ويعطي طابعا جماليا هائلا. (أنظر إلى الرسم رقم : 5)

➤ المواد المستعملة في :

○ السقف :

يستخدم الخشب في السقف ، وقد عوض تدريجيا بالحديد (السيكة) ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر (18م) والأجور المصنوع من الطين المطهي .

○ الجدران :

استمرار الحواجز من الطين والحجارة (التأفزة) والتي لا زالت مستعملة حاليا في الجهات الصحراوية .

○ الأرض :

إما أن تكون مغطاة بالحجارة المنحوتة أو الآجر المملوء .
○ الأبواب والنوافذ : فإنها غالبا من الخشب ، وناذرا من النحاس .

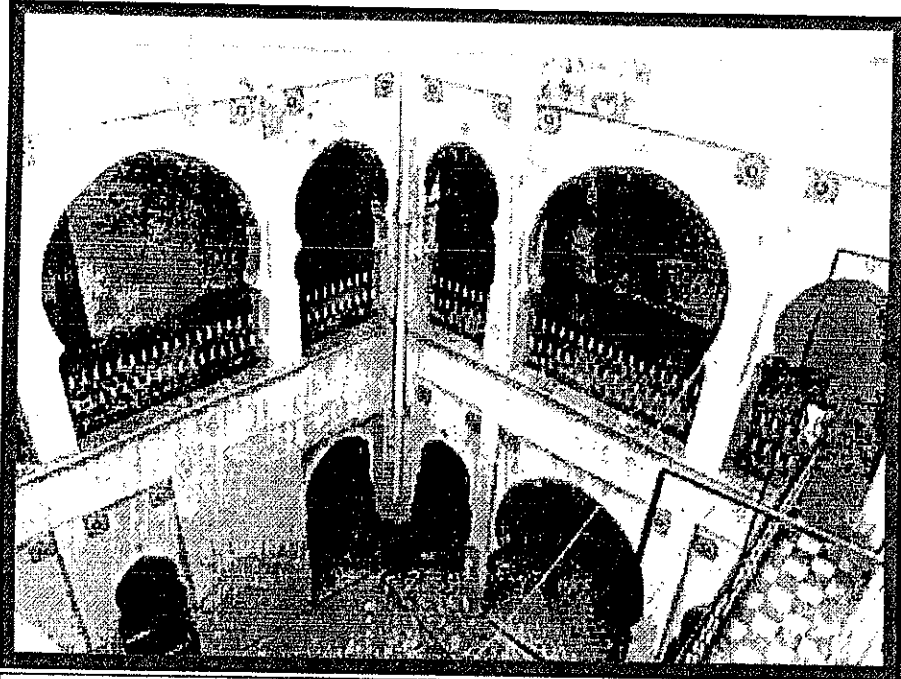
➤ التزيين (التمسيق) :

○ السقف :

ينعدم في الغالب التزيين في السقف ما عدا ظهور الأعمدة من الخشب الموضوعة في توازي ، والتي تستعمل كدعامة تقليدية مطلاة بالكلس الأبيض .

○ الجدران:

فهي أما مغطاة بزرابي حائطية (النصف أو الثلث الأسفل للحائط) مصنوعة في المنزل أو مشتراة من السوق . بالنسبة للمالكين الأغنياء، إن هذا القسم يعبأ إما بالرخام أو الخزف الذي يمثل رسوما (أشكال هندسية) أو نباتات وناذرا آيات قرآنية كما هو موجود في المساجد والزوايا والمدارس ، وهذا احتراما للقرآن الكريم وتعاليم ديننا الحنيف .



منزل تقليدي بتلمسان منظر على "وسط الدار"
صورة ل: منير بونخلة - مهندس معماري

○ الأرض:

هي مشكلة إما من الحجارة المنحوتة أو من الآجر الأحمر المملوء والمسطح ذي شكل مستطيل أو مسدس بكيفية تمكن من إبراز شكل هندسي مكرر وفني .
وأخيرا ، حسب طوبوغرافية الأرض وموقع البيوت بالنسبة للمنحدرات فيكون الوصول إلى البيوت إما بنزول درج أو بصعوده الشيء الذي يزيد من أناقة المنزل في نفس الوقت الذي يبين فيه الانتقال التدريجي من مجال إلى مجال آخر .

يتواجد البئر كعنصر للتزيين أو صهريج . وفي بعض المنازل نجد "الخصّة أو الفوارة" في مركز الفناء .

من بين النباتات التقليدية توجد الكرمة، والتي إضافة إلى الثمار التي تعطيها، فإنها تعدّ وقاء ضد حرارة الشمس وفي نفس الوقت تمتصّ غاز ثاني أكسيد الكربون وتطرح الأكسجين .

وإذا كان الفناء فسيحا، فإننا نجد شجرة التين أو الليمون ومزهريات (الحبق والسيسان) والتي هي في الغالب مرتبة في الزوايا (الأركان) .

إن هذا الميل إلى بعض أنواع النباتات ليس وليد الصدفة وإنما يخضع للوظيفة التي يؤديها النبات (وظيفة جمالية ، أو مناخية ، أو رمزية) أو الثلاثة كلها .

ويمكن القول (ملاحظة) أن تعايش المغاربة ، وعرب الشرق الأوسط ، والأندلس واليهود ، بدلا من أن يعطي خليطا من العمارات ، فقد أدى إلى توحيد نمطها والذي تغذى من الحضارة المسيطرة : الحضارة الإسلامية .

وخلاصة القول ، يجب التأكيد على أن هذه المرحلة إمتازت بالانسجام بين الإطار المبنى والذين أنتجوه . أي كما قال "حسين فتحي" بغض النظر عن التحكم في التقنيات ، فإن هذه الشعوب قد شيّدت مبانيها ليس بالعقل فقط ولكن بالقلب أيضا .

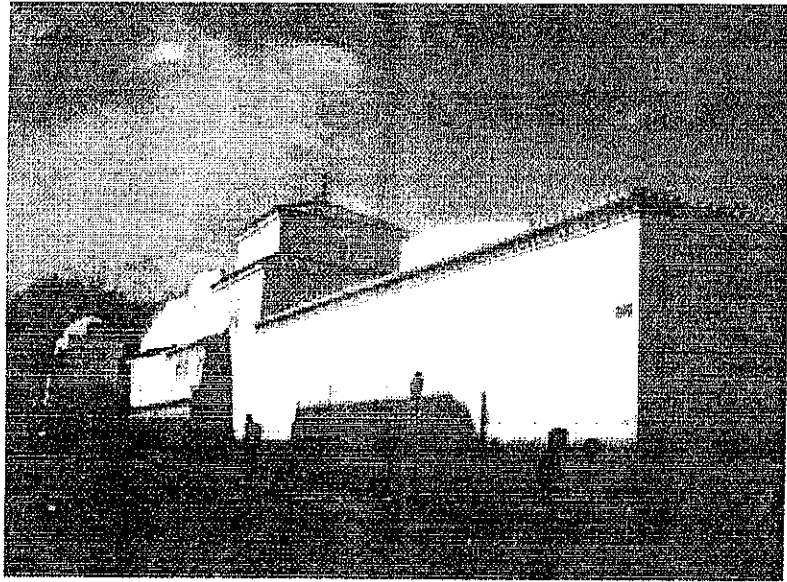
لذا، فإن المنزل في هذه الحقبة من الزمن، كان يتلاءم مع الموقع والمناخ باستعماله للمواد المحتاجة في الطبيعة . كما استطاع مشيديه التقرب من الطبيعة وإلى الله سبحانه عز وجل .

2 . المسجد الجامع :

يقع المسجد الكبير ، أو المسجد الأعظم كما يسمونه أيضا ، وسط المدينة العتيقة محاطا بالتجهيزات البنيوية للمدينة .

يحاذيه غربا القصر البالي، وجنوبا تقابله ساحة القوافل والتي تحيطها المدرسة التاشفينية ومسجد سيدي أبي الحسن ، أما شرقا فكانت توجد القيصرية والأنهج التجارية ، وشمالا المباني السكنية الفردية .

وبهذا يبرز المسجد الكبير كإنجاز مركزي تتمفصل من حوله المباني ذات الوظائف المختلفة والمتكاملة (الوظائف الروحية والإقتصادية-التجارية والسكنية) .



منظر من الجهة الغربية لواجهة ومئذنة
المسجد الكبير (المسجد الجامع)-تلمسان
الصورتين لـ : حسين رحوي

ولقد شُيّد المسجد من طرف المرابطين يوسف بن تاشفين و علي ابن يوسف في بداية القرن السادس من ذي الهجرة (1) الموافق للقرن الثاني عشر ميلادي (استكمل بنيانه

سنة 1135م) . ولقد تم بناء المئذنة ، التي يبلغ علوها 35 مترا ، وتوسيع مساحة المسجد (60م x 50م) على يدي يغمراسن . ورغم أن عمر المسجد ثمانية قرون ونصف ، فإنه لا يزال ، إلى يومنا هذا ، في حالة تقنية جيدة ، ويقوم بوظيفة " المسجد الجامع " على أحسن وجه .

يتكون المسجد من العناصر المعمارية التالية :

قاعة الصلاة : ذات الشكل المستطيل ، بطول 50م وعرض 25م ، تنقسم إلى ثلاث عشرة صحناً (Nef) وستة أروقة (Travée) . تتراصف فيها أعمدة غليظة ومرصصة ، حاملة أقواسا متجاوزة ، منها المتقطعة والملولبة ، في تراتب وتناسق هائلين .
توجد الزخرفة المكثفة والأعمدة الملولبة عند المحراب ، وتبدء في التلاشي والنقش ، شيئاً فشيئاً ، حتى تصل إلى الصحن المركزي (Patio Central) حيث تتموضع تحت السماء ، بدون غطاء ، " الخصّة " أين يتوضأ المصلون .

الصحن المركزي : زيادة عن الضوء الذي يستقطبه ويوزعه داخل المسجد ، فإنه يلعب دور المكيف الهوائي ، في فصل الصيف .

أما المحراب ، فإنه يتميز بدقة النقوش ذات الأشكال الهندسية والنباتية ، وبتزيين ذو طابع ثري .

أما الأسقف التي استخدمت فيها الأخشاب ذات الجودة الرفيعة ¹ ، فإنها تبيّن مدى مهارة الصناع ومن عاصرهم .

أما المئذنة ، فهي تشبه إلى حد بعيد مئذنة مسجد قرطبة الأندلسي . وذهب رشيد بورويبة إلى أن هذه المئذنة تماثل مئذنة مسجد قرطبة ، وهذا التماثل يكمن في الهيكل والحجم والقياسات والأشكال الهندسية والزخرفة ²

¹ معاينة ميدانية

² Rachid BOUROUBA : Apports de l'Algérie à l'Architecture Religieuse Arabo-Islamique , ENAL – OPU, Alger, 1987, in : Chapitre 5.

أما بيوت الخلاء ، فإنها تقع في الناحية الشمالية السفلى للمسجد (أي في مؤخرة البناية) وليس هناك اتصال مباشر بينها وبين أطراف المسجد الأخرى ، ما عدى ، رواق ضيق يقع غرب المبنى ، يوصل بين المجال الذكور وقاعة الصلاة . كما يوجد باب عمومي على الواجهة الشمالية ، مفتوح على الدرب (نهج السلام حاليا) .

مكتبة المسجد : وهو عنصر بالغ الأهمية أضافه كملحقة بالمسجد ، السلطان أبو حمو موسى الثاني ، لمطلعة العامة من الناس والخاصة من الأئمة والعلماء والطلبة ؛ علما بأن كنت هناك مدارس مخصصة للتعليم وحفظ القرآن الكريم ، ونذكر منها المدرسة اليعقوبية والمدرسة التاشفينية ، بضواحي المسجد الأعظم .

القيمة الجمالية للمسجد : يعد المسجد الأعظم تحفة معمارية فريدة من نوعها في المغرب الأوسط ، حتى وإن شيدت مساجد في نفس المرحلة وبطراز وتقنيات مشابهة له . نذكر على سبيل المثال مسجد الجزائر ومسجد ندرومة .

بدون الدخول في تفاصيل التصميم المعماري وتقنيات ومحتوى الزخرفة وأنواع وأشكال التزيين، والتي تتطلب بحثا خاصا ، سنكتفي بتقديم هذه الشهادة الدالة : " وإذا رجعنا إلى مسجد تلمسان نجده صورة ناطقة لهذا الفن (الفن المعماري الإسلامي الغربي-الأندلسي) من حيث فنه المعماري وزخرفته . وإذا لاحظنا التصاميم وجدنا ان رسم مسجد تلمسان يشبه الى حد بعيد تصميم مسجد قرطبة بقاعة الصلاة وبالقبتين الموجودتين فوق الجناح الأوسط ... هذا ونضيف إلى ما سبق ان هندسة الجامع على العموم تماثل في كل شئ هندسة جامع قرطبة من عقود مقبولة ثم محراب بما فيه من زخرفة بديعة ثم قبة راسية على حنايا مضمفورة ... " ¹ .

¹ تلمسان : سلسلة الفن والثقافة

وزارة الثقافة، الجزائر، ص: 33

وإذا أمعنا النظر في المئذنة الواقفة شامخة على طول 35 مترا ، على كونها العنصر البارز الذي يبين مكان المسجد، واتجاه القبلة، وتواجد التجهيزات الحيوية للمدينة ، فإننا لا نلقت نظرتنا عنه ببساطة لأنه جذاب جدا ويرجع هذا ، حسب البروفيسور ميشال لوراي المختص في الفيزياء وعلم الاتصال المرئي (Communication Visuelle) ، إلى هندسة العناصر المكونة للمئذنة وكيفية ترتيبها وفق أحجام وزوايا معينة .

وسر هذا ، في رأينا ، يوجد في مقاييس وقياسات (Modules et Mesures) تكمن في مخ الإنسان الذي يعكسها ماديا الى صور جمالية ، حسب عبقريته وإمكانياته التعبيرية الشخصية، كما هو الشأن في التعبير الأدبي عامة ، والشعر خاصة . وهذا ما يؤكد أصول العلاقة الطيدة بين ما يخزنه المرؤ ، وما يتصوره ، وما ينجزه ماديا في عملية إسقاط لأسمى الصور الجمالية .

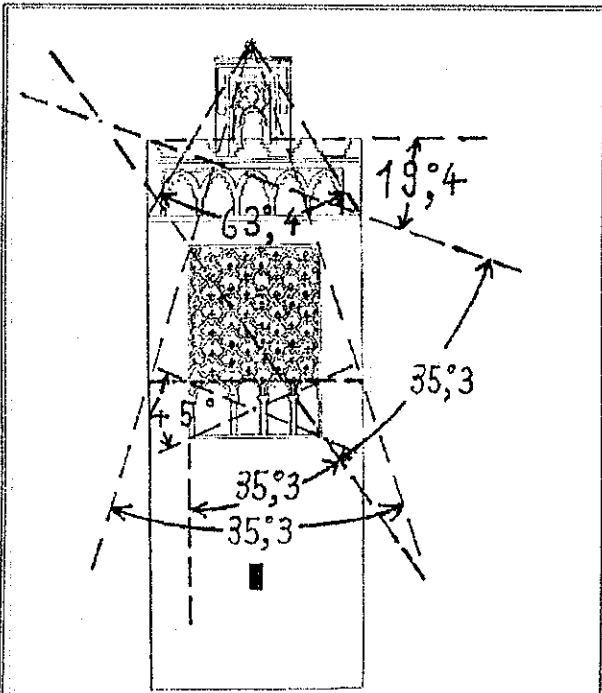


Fig. 199. — Face Sud du Minaret de la Grande Mosquée de Tlemcen.

Fig. 1

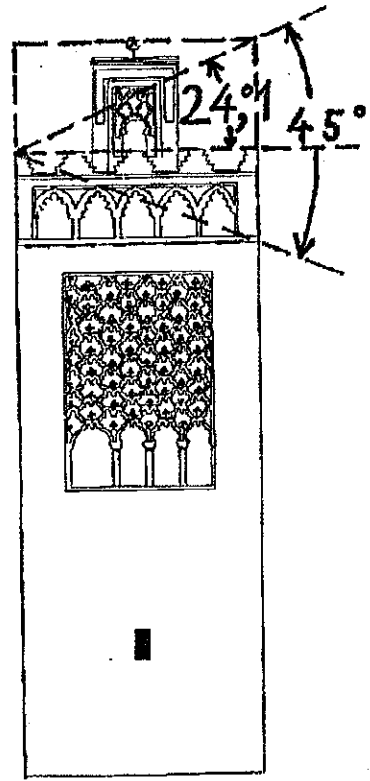


Fig. 210. — Face Sud du Minaret de la Grande Mosquée de Tlemcen.

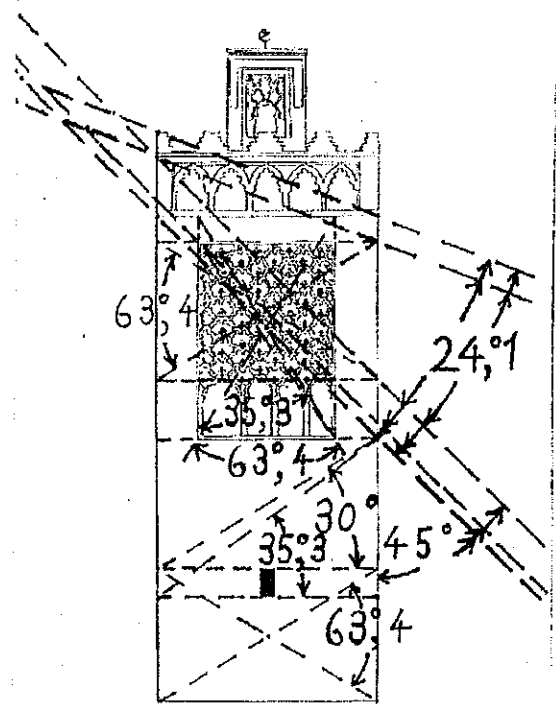


Fig. 210. — Face Sud de Minaret de la Grande Mosquée de Tlemcen.

المصدر :

Nature Dipolaire Angulairement Remarquable
 et fonctionnant suivant un Ordre Quantique
 à Longue Distance des Cortex et de la Mémoire dans
 le Cerveau Humain .

Conséquences Esthétiques
 Architecturales et Décoratives Fondamentales,
 en particulier dans l'Art Hispano-Musulman
 par M. LE RAY

Professeur à l'Université de Valenciennes
 Directeur du Laboratoire d'Hydrodynamique,
 d'Aérodynamique et d'Energétique

ص : 12 ، 13 و 14 (رسوم رقم : 7 ،
 8 و 9)

3 . المشور :

لازال المشور يحتفظ إلى يومنا هذا بأسراره . فلا نعرف عنه ، رغم الدراسات العديدة التي تمت حوله وداخل أسواره ، إلا القليل .
هناك فوارق شاسعة بين ما نراه ونلمسه من عناصره المعمارية المادية القائمة، وأوصاف تداولتها الأجيال عبر الزمن . لذا ، مهما كان من أمر ، كل ما أعطي ، من معلومات ثرية ، يبقى فرضيات ، ما لم يحظى المشور باهتمام متواصل ودعم وفعال للقيام بحفريات جادة ، حتى تكشف أهم الحقائق التاريخية ونفصل بين واقع الأحداث ، والأسطورة ، وما حاول معمرو المشور إتلافه خلال الأحقاب الزمنية السالفة ، خاصة في العهد العثماني وعهد الإستعمار الفرنسي أين حُول المكان إلى ثكنة عسكرية ، ثم إلى مدرسة لأبناء الشهداء (رحمهم الله) بعد الإستقلال ، قبل أن تُسَلَّم مفاتيحه إلى المجتمع المدني في سنة 1986م .

تصرّح المهندسة مريم تابتي¹ ، المكلفة بدراسة ومتابعة أشغال ترميم المشور، بأن الموقع الذي يقوم عليه المشور ، دخل إلى التاريخ في القرن الحادي عشر ميلادي -11م- إذ ، تتفق المصادر التاريخية على أن هذا المكان هو نفسه الذي أقام فيه خيمته يوسف ابن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية ، أثناء قيامه بحصار مدينة غادير⁽²⁾ .
وبالرغم من أن الأب بارجس⁽³⁾ يصر على أن المشور كان في أول الأمر عبارة عن نزل يقيم فيه الحكام المرابطون وبعدهم الموحدون إلا أنه لا توجد مصادر موثقة بها تشهد على تشييد المشور قبل قيام الدولة الزيانية (مملكة بني عبد الواد) التي قام مؤسسها يغموراسن بتشيد المشور ، بعد الإقامة المؤقتة في القصر البالي⁽⁴⁾ .

¹ مقابلة مع السيدة مريم تابتي ،مهندسة دولة مختصة في ترميم المباني الأثرية والبتاريخية

(2) مكتب الدراسات التقنية " B.T.M " : دراسة ترميم المشور- تقرير المرحلة الأولى - تلمسان ، ديسمبر 1995 م.

(3) القسّ بارجس: ذكرى سفر الى تلمسان ص: & 326 pp: Souvenir d'un Voyage à Tlemcen , J.J.BARGES : 361

(4) طالع : أ. بال و ج. مارسي (Alfred BEL et Georges MARCAIS) يزعمان أن يغموراسن ، لما لاحظ

الرؤية المباشرة على قصره من أعلى منارة المسجد الجامع ، اضطر الى تشييد قصر المشور والإقامة فيه .

يقع المشور في الناحية الجنوبية للمدينة العتيقة ، حيث يحد عمرانها من هذه الجهة المرتفعة ، والقريبة في نفس الوقت من : المدرسة النشيفية ، والمدرسة اليعقوبية ، والمسجد الجامع ، ومسجد أبي الحسن ، ومسجد اولاد الامام ، والقيصرية ، وحي اليهود الذي وضع تحت حماية ورعاية القصر، كما تمليه أخلاقيات دين الإسلام الحنيف .

يتربع المشور على مساحة 43.750 متر مربع (250م x 175م) ولم يتبقى من العمران العتيق (أي عمران العصر الوسيط) إلا وحدة معمارية فريدة : صومعة مسجد المشور وبعض المخلفات القليلة جدا (قطع بلاطية كشفتها حفريات 1990م، كتل من جدران منتصبة ومنتلفة مع الأسوار التي شيدها المعمر الفرنسي على وجه الخصوص ، ...إلخ) .

لهذا ، لازالت إعادة تركيب الاماكن ، حتى عند الأخصائيين ، تتركز على القراءات الوصفية لمعاصري سكان القصر من العلماء الأجلاء الذين أقاموا بالمشور آنذاك، وكذا الأدباء ، والمسافرون ، والتجار ، وغيرهم . نظيف الى هؤلاء، المستشرقون ، من كل الأصناف ، الذين " تكلموا وكتبوا " عن التراث العربي-الإسلامي بنلمسان.

تكون، على هذا الأساس ، الصورة المركبة للمشور مزيج من الشهادات الحية الصادقة ، والأوصاف الأدبية المغرية (التكسب والتقرب من الملوك) وسرد لأساطير تتداول عبر الزمن حتى تكاد أن تصبح في الذاكرة الجماعية ، حقيقة مؤكدة .

إن المعاينة الميدانية التي قمنا بها والمصادر التي اطلعنا عليها تفرز ما يلي :

• فيما يخص عمران المشور :

يقول عمرو نهينة¹ أن المشور كان يحتوي على قصر السلطان ومنازل الأمراء ومسجدهم ومخازنهم وحمّاماتهم .

(1) Amar DHINA : Cités Musulmanes d'Orient et d'Occident

Entreprise Nationale du Livre , Alger , 1985 - p:86

كما يتفق الشقيقان يحيى وعبد الرحمان ابن خلدون¹ على أن أبا حمو موسى الأول جعل من القلعة مقرا لرهانته من القبائل ليضمن ولاءها وسمح لرهانته ببناء مساكنهم داخل المشور واتخذ المسجد بها .

أما أبو تاشفين فيقال عنه أنه زينها بقصور فخمة ومنها "قصر أبي فهر"² .

• وفيما يخص مساحاته الخضراء

يقول يحيى ابن خلدون³ معاصر أبا حمو موسى الثاني أن ملوك تلمسان يمتلكون قصرا مزينا ببساتين مجلية ببساط أخضر مزركش بمختلف الورود والنباتات المفروشة في تخطيطات وأشكال رائعة .

أما حسن الوزان، فإنه يقول واصفا المشور ما يلي: « والقصر الملكي الواقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة الى حد كبير على شكل قلعة ، ويضم قصورا أخرى ، صغيرة بساطينها وساقياتها ، كلها مبنية بكامل العناية وأسلوب فني رائع »⁴ .

• فيما يخص النشاطات الثقافية وغيرها التي عرفها المشور :

يفيدنا يحيى ابن خلدون أنه كانت تقام حفلات وسهرات بهيجة ، يجتمع فيها العلماء والأدباء والشعراء وغيرهم بالمشور حتى مطلع الفجر . وكان فيها الإحتفال بالمولد النبوي الشريف من المناسبات المميزة⁵ .

(¹) يحيى ابن خلدون : بغية الرواد - الجزء الأول - الصفحة : 130

عبد للرحمان ابن خلدون : العبر - الجزء السابع - الصفحة : 104

(²) Alfred BEL : Note sur une Inscription de 1846

In : Revue Africaine , Année 1911

(³) مكتب الدراسات التقنية " B.T.M " : دراسة ترميم المشور - تقرير المرحلة الأولى - تلمسان، ديسمبر 1995م، ص: 4

(⁴) حسن الوزان : وصف إفريقيا - الجزء الثاني - ص: 20

(⁵) يحيى ابن خلدون : بغية الرواد - الجزء الثاني - ص: 218

• ومن الكنوز النادرة التي ذُكرت

1. المصحف الشريف المخطوط بيدي الصحابي الجليل والخليفة الأمين ، سيدنا عثمان ، رضي الله عنه ¹ .
2. والمنجنة الآلية (أو المنكأنة) ²
3. والشجرة الفضية الشاغلة ميكانيكيا ³ .
والتي وصفها ، وصفا دقيقا للتنسي
4. والعقد الفريد (أو اليتيم) وهو عقد من الأحجار الكريمة وسمي أيضا ب: الثعبان ⁴

• ومن المنجزات التي لا زالت في نفق الأسطورات:

نذكر النفق ⁵ الذي يربط المشور بالمدرسة التاشفينية ، والذي أُشير إليه في بعض الكتابات ذات الطابع الأدبي.

¹ يحيى بن خلدون : بغية الرواد ، ج1،ص: 114

² التنسي : نظم الدر، ورقة 156/ظ و157/و

³ نفس المصدر : ورقة 146/ظ

⁴ يحيى بن خلدون : بغية الرواد ، ج1،ص: 114

⁵ إنَّ المختصين ، الذين عاينا رفقتهم مجال المشور، لم يعثروا على أي منخل نفق أو على إشارة مادية تدل على وجوده ، أو بالأحرى توجه الأبحاث ، ما عدى فتحة موجهة عموديا على شكل بئر ، تقع بجانب السور، من الدخل ، في الجهة الشمالية-الغربية للمشور والتي تحضى باهتمام مسؤولي دائرة الآثار لولاية تلمسان .

4 . الصهريج الكبير :

كما استعمل التنسي لفظ " الصهريج الأعظم " .

عرف عهد أبو تاشفين الأول عددا هائلا من الإنجازات المعمارية الفخمة والتجهيزات الكبرى .

ومن هذه التجهيزات الكبرى نذكر الصهريج الأعظم الذي يحد غربا ، محيط دراستنا . قياسات الصهريج تبين عظمة هذا الإنجاز الذي يبلغ 200 مترا طولا ، و100 مترا عرضا ، و3 أمتار عمقا .

لقد اختلف المؤرخون في استعمال هذا الخزان الهائل للمياه : هناك من رأى في ذلك حوضا لري الحقول والبساتين التي تقع في الجهة الشمالية السفلى للمدينة (الهلال الخصب)¹ ، وهناك من رأى فيه خاصيات حوض للسباحة والألعاب المائية والتدريبات على الفنون القتالية ، كما ورد في ترجمة بارجس (Bargès) لتاريخ بني زيان ، لصاحبه التنسي² .

¹ Amar DHINA : même source ; p :86

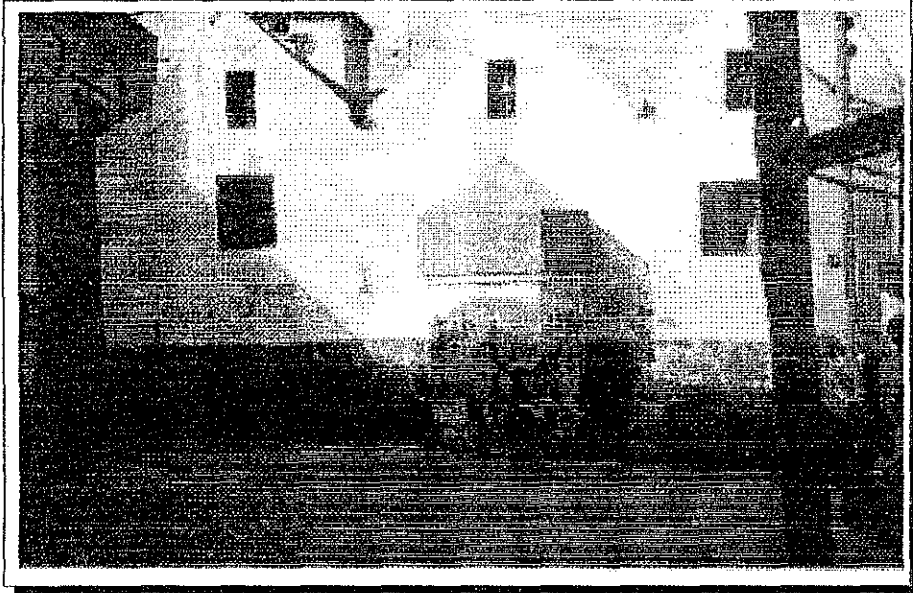
² AL TANASI : Histoire des Béni Zeiyân , Traduction de Bargès , p : 46

• بعض العناصر المعمارية المميزة

❖ مسجد الحومة :

تقد عاينا مسجد سيدي الجبار ولاحظنا مايلي:

- حجم المسجد متواضع لأن وظيفته تقتصر على جلب سكان الحومة (حومة سيدي الجبار) وضواحيها فقط.
 - طرازه المعماري ، وإن كان من الداخل يفرز طابعه الديني ، فإنه من الخارج يندمج اندماجا عاديا مع البنيات السكنية التي يلتصق بها وينسجم معها .
 - إن توجيهه نحو القبلة يبدو طبيعيا لأن الدرب الذي يطل عليه موجه كذلك نحو القبلة.
 - لولا خروج المحراب كعنصر بارز على رأس الدرب ، لما علمنا أن هناك مسجد بالحومة.
 - بروز المحراب وخروجه عن الخط المستقيم المكون من جدار القبلة ، يعبر عن نية مشيد المسجد في إبراز هذا العنصر ، الذي هو بمثابة نداء ضامت إلى الصلاة ، من جهة ، وإلى احترام قدوسية المكان ، من جهة أخرى .
- يمكننا إدراج نفس الملاحظات لمسجد سيدي اليّدون ومصلى القرآن الصغير.



❖ الحمام :

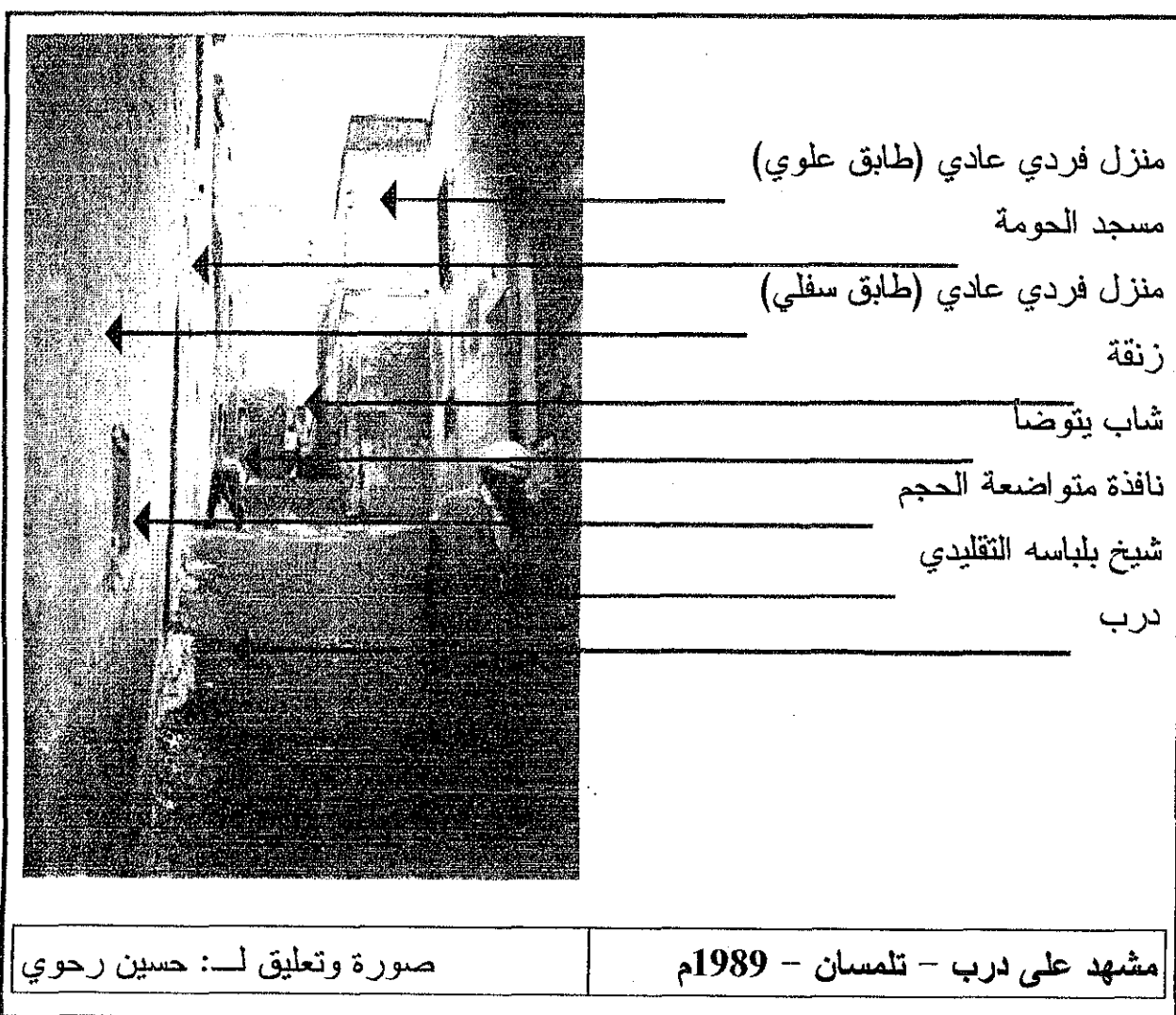
نظرا لوظيفته العمومية ، يشكل الحمام وحدة معمارية مميزة من حيث تموقعه وطراره.

نلاحظ أن باب الحمام يبقى دائما مفتوحا على مصراعيه ومزيننا بالأجر والزليج ، الذان غالبا ما يغطيان مدخل الحمام والسقيفة التي تمنع الرؤية المباشرة للمارة، وتستعمل كمجال الإنتظار الذي يسبق وقت فتح الحمام للزبائن.



❖ واجهات البنايات

إن واجهات البنايات بمختلف أشكالها ووظائفها ، تبرز (من الخارج) صورة متواضعة من حيث مواد البناء المستعملة وتشكيلة العناصر المكونة للمدينة ؛ كما نلاحظ غياب الفتحات المطلة على الخارج (النوافذ) ، ما عدا الباب الذي يشكل المنفذ الوحيد للمنزل ، ونادرا ما نرى فتحات ضيقة ، والتي تسمح بدخول الحد الأدنى من الضوء والهواء ، كما تسمح بالرؤية في بعض زوايا الدرب أو الزنقة التي تطل عليها النافذة .
(انظر للصورة الموائية)



❖ الأقواس :

إن الأقواس على مختلف أشكالها وأحجامها تؤدي وظائف شتى نذكر منها:

- **الوظيفة البنوية** : أي وظيفة دعم تماسك عناصر البناية (توزيع قوى النقل وامتصاص قوى الحمولة والضغط) .
- **الوظيفة الجمالية** : وكما أن للأقواس وظيفة جمالية فهي تعبر عن عبقرية مشيديها وعن هويتهم (طراز شرقي- مغاربي- أندلسي... إلخ) ، كما أنها تبين المقاطع المعمارية وتحدد من ملل التكرار.



- **الوظيفة العمرانية** : تلعب الأقواس دوراً أساسياً في تقسيم النسيج العمراني إلى أحياء وحوامات مثلاً : حومة باب زير وحي باب الجياد... إلخ . وتمكن من قراءة تسلسل البنيات عبر الزمن (تطور وانتشار البنايات) أي الإضافات المتتالية التي تمت عبر الزمن عبر الزمن في النسيج العمراني للمدينة .
- **الوظيفة العملية** : تمكن من الإضاءة الليلية بتعليق الفوانيس¹ .

¹ سيدي محمد نقادي : المصدر السابق ، ص : 120

الأقواس ووظائفها صور لـ : حسين رحوي



❖ الدرب :

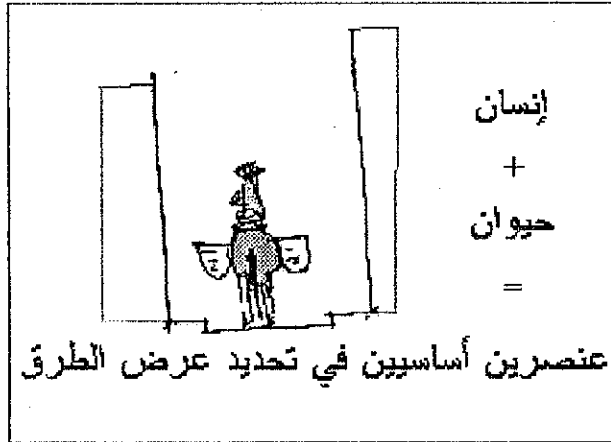
إن عرض الدرب لم يأتي نتيجة التصاق المساكن والبنيات بصفة عفوية كما يبدو ذلك لأول وهلة لكن يخضع لمقاييس عديدة نذكر منها :

- غالبا ما تكون الأرض التي تشيد فوقها البناية ملك لفرد أو جماعة فالتنازل عن مساحة تخدم جميع سكان الدرب أو الزنقة أو الحومة يتم بالتراض بين الأطراف المعنية (الملاكين) كما أفادنا بهذا الماوردي رحمه الله ¹ .

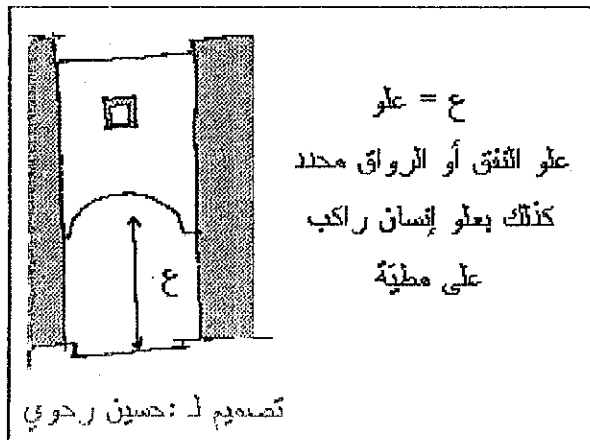
أما العرض، فيحدد بقياس عرض المطية + الإنسان علما بأن المطية (حصان - حمار - بغل) كانت أساسية في حياة الإنسان آنذاك ، فهو وسيلة للنقل والتنقل وسحب وجر الأثقال ، وحمل النفايات ، إلخ...

¹ انظر ، أبو الحسن علي الماوردي

(أنظر الرسم التالي)



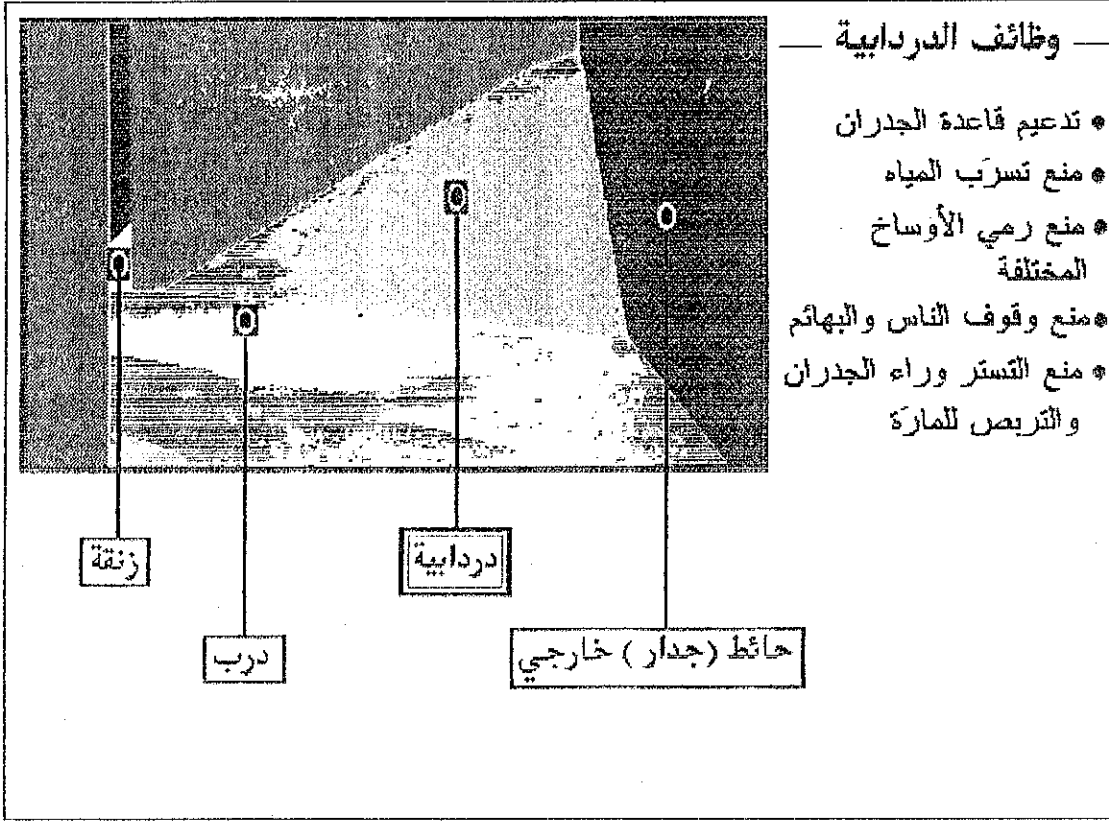
- ❖ الأروقة والمقاطع المغطاة من الدروب والأزقة :
وهي ناتجة عن الملكية الخاصة . يعتبر الرواق ممر مسموح به من طرف مالك المنزل أو البناية للمارة (تتازل تمليه أخلاقية الدين الإسلامي) ، وغالبا ما يشيد بيت من البيوت فوق الرواق .
- في حالة ما يتحتم تمديد درب أو زقاق ، نتيجة التوسع العمراني ، تفتح غرفة كنفق يسمح للمارة باختراق مجال المنزل الذي تغلق فتحاته على النفق .
- يلعب الرواق دور المكيف الهوائي للدرب وكمخبا ضد الحرارة في القبلولة ومن الأمطار الغزيرة في الشتاء .



الأروقة ووظائفها صور لـ: حسين رحوي



❖ الدردابية :

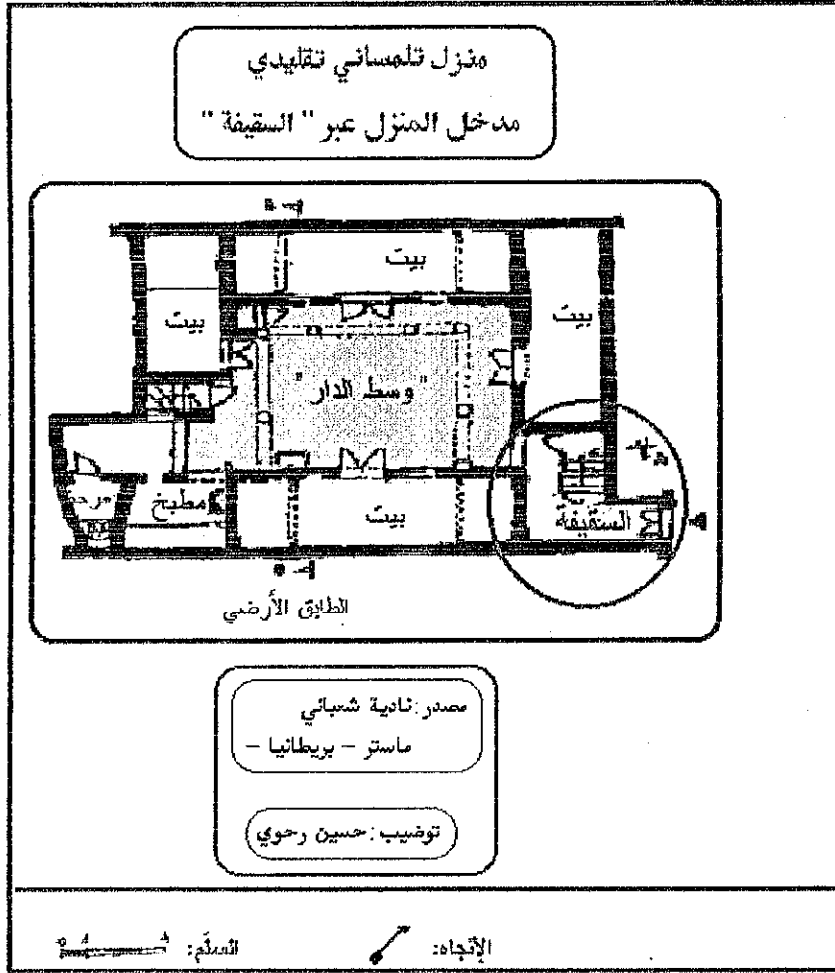


الدردابية ووظائفها

صورة ، رسم وتعليق لـ ، حسين رحوي

للدردابية وظائف معينة ذكرت في التعليق على الصورة نفسها . ونلمس من هذا ، أن كل عنصر ، معماري كان أو غيره ، إلا ووضع استجابة لوظائف يؤديها ؛ ولهذا كل عنصر شيد إلا وله دلالاته .

❖ السقيفة (Chicane) :



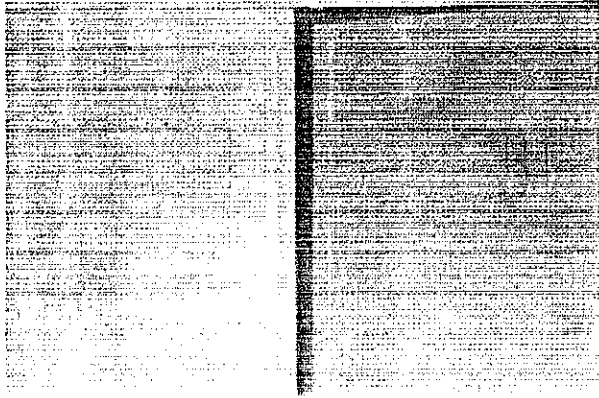
نلاحظ في هذا المخطط ، أن السقيفة تشكل عنصرا أساسيا في البناية ، حيث تتواجد دائما عند مدخل المنزل . لها ثلاثة وظائف على الأقل :

- حجب المنزل عن الرؤية المباشرة من الخارج ، ومن الداخل.
- استعمال مجالها كقاعة انتظار ، حتى يؤذن للضيف أو الزائر بالدخول
- تسمح بفتح الباب على مصرعيه في فصل الصيف لتكييف الهواء ، دون كشف حرمة المنزل .

❖ الأبواب :

تستعمل الأبواب بصفة عامة وممانعة لغلق وفتح مداخل (أو منافذ) البنايات لأسباب أمنية وثقافية ، ولضرورة مناخية .

هذا ، مسلم به ، لكن لاحظنا في مدينة تلمسان العتيقة ، ان الأبواب ، على اختلاف أشكالها ، وزيادة عن وظائفها التقليدية ، تعد إشارة ثقافية بارزة للمنزل ، إذ تدل على هوية صاحبه (أو ساكنه) من جهة ، وعلى التركيبة البشرية لسكان الأحياء والحومات وحتى الأزقة ، من جهة أخرى.

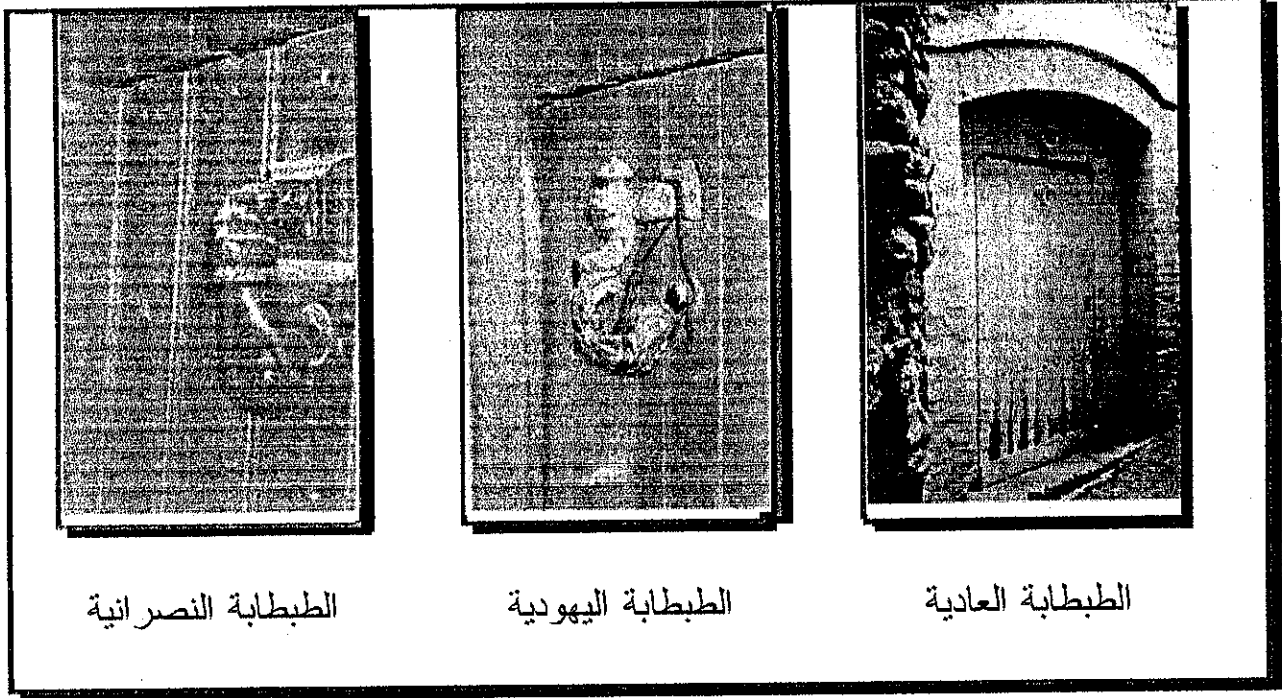


إن هذه الأبواب تشير إلى هوية أصحابها .
إن الطراز والرموز والكتابات تبيّن بوضوح
إن اصحاب هذه الديار مسلمون .

صور وتعليق لـ: حسين رحوي

❖ الطبّاطبات :

تعتبر **الطبّاطبة** إشارة ثقافية أخرى .



الطبّاطبة النصرانية

الطبّاطبة اليهودية

الطبّاطبة العادية

هناك **الطبّاطبة العادية** والكثيرة الإنتشار ، في العمران العربي-الإسلامي ، والتي هي عبارة عن حلقة من مادة معدنية (حديد ، برونز ، نحاس ، إلخ...) يتم بواسطتها الدق أو الطرق على الباب .

وهناك **الطبّاطبة النصرانية** التي تمثل يدا سوداء تحمل كرة حديدية يتم بواسطتها الدق أو الطرق على صفيحة حديدية مثبتة على الباب . هذا النوع من الطبّاطبات ربما كانت تستورد من بلاد الأندلس أو بلاد النصارى ، وهذه اليد يطلق عليها حاليا اسم " **يد فاطمة** " " La main de fatma " ، وتستعمل كذلك في التصدي لعين الحسود (طقوس ومعتقدات) . ولا زلنا نجد إلى يومنا هذا ، نفس اليد بالون الأسود ، مفتوحة تتوسطها عين سوداء ، تدعى بـ: **الخامسة** ، كُتِبَ في أسفلها " **عين الحسود لا تسود** " .

وهناك طبطابة وجدناها أكثر انتشارا في أبواب منازل اليهود والتي هي عبارة عن نوع نباتي ، وذلك يرجع ربما لكون الديانة اليهودية ، مثل الديانة الإسلامية ، لا ترتبط بكل ما هو تمثالي ، أي كل ما يعبر عن روح حية لإنسان أو حيوان .

• إستنتاج جزئي :

في الوقت الذي نجد فيه البنايات المكونة للحى أو الحومة ملتصقة ومنسجمة مع بعضها البعض ، مشكلة وحدات عمرانية متجانسة ، نلاحظ أيضا توزيعا بشريا حسب الفئات العرقية لسكان هذه البنايات ، والتي تتميز عن بعضها البعض بالرموز والإشارات عند مداخلها وفي أبوابها : كالأقواس ، والأعمدة المتواضعة ، والنجوم ، والطبطات ، التي لاحظها في الصور التي شاهدناها .

فإذا وجدنا لإقامة اليهود بتلمسان ، بصمات مادية بارزة ، فإن التواجد المسيحي بالمدينة ، يبدو محتشما ، حتى وإن أمر يغمراسن بتخصيص مجال سكني وتجاري للنصارى الذين كانوا يقيمون بتلمسان منذ القدم ؛ مثل ما فعل بالنسبة لليهود الذين اتخذوا حيا بالقرب من المشور ، وكذلك القيصرية (القيصرية القديمة) .

أما عن آثار المسيحيين بتلمسان : فقد جاء في كتاب " تلمسان " ، ما يلي : " حتى في القرن الحادي عشر ، فإننا نجد الجغرافي المعروف "البكري" يشير إلى وجود طائفة تدين بالمسيحية ، وهذا الخبر يمثل البرهان القاطع على التسامح الذي يُقره الإسلام ، ويخبرنا "البكري" كذلك ، بوجود بعض السكان المسيحيين ووجود كنيسة يرتادها أبناء هذه الطائفة هناك " ¹.

¹ تلمسان : سلسلة الفن والثقافة - وزارة الأبناء والثقافة، الجزائر ، 1971، ص: 12.

حتى وإن كانت هناك أحياء مخصصة للأقليات والجاليات اليهودية والنصرانية لمدينة
تلمسان العتيقة (حي اليهود بمقربة من المشور ، ودرج اليهود ، وحي النصارى) فإن هذا
لم يكن أبداً ليمنع صلات الجورة والاندماج والتماسك الاجتماعي ، كما لاحظناه بين مختلف
الفصائل العرقية المتواجدة بالمدينة .

الخلاصة :

- ❖ إستنتاجات عامة
- ❖ توصيات
- ❖ خاتمة

إستنتاجات عامة ، توصيات وخاتمة

◆ الاستنتاجات

لقد اعتدنا على قراءة بعض المؤلفات التي كانت تقدم المجتمع الجزائري على أنه مجموعة من البدو الرحل والأعراب ، أي سكان الريف والبوادي .

تفنن أصحاب هذه المؤلفات في أوصاف وتحليلات تركز على المعطيات البيئية والمناخية ، وعلى إحصائيات ، من صنعهم .

لذا ، زعموا أن الهضاب العليا والصحراء الكبرى ، بطبيعتها القاسية، لا يقطنها سوى العرب الرحالة ، بخيامهم ومواشيهم وجمالهم ، وأن لا أثر لعمران مدني هناك .

أما الإحصائيات ، عشية الاستعمار الفرنسي (1830م)، كانت تؤكد على أن سكان الأرياف والبوادي كانوا يمثلون 87% من مجموع سكان الجزائر ، أي 13% فقط كانوا يسكنون المدن ، الواقعة في أغلبيتها الساحقة ، في شمال البلاد .

هذه التصريحات ، وإن كان ظاهرها لا يبتعد عن الحقيقة ، فإن باطنها كان يحمل تبرير التنخل الاستعماري ، التنخل الذي قُدم كواجب إنساني ، يسعى إلى تبليغ رسالة حضرية إلى شعوب تخلفت ...

لكن إذا رجعنا إلى قراءة كتب أبناء جلدتنا ك:عبد الرحمان ابن خلدون وأخوه ، والمقري ، والإدريسي ، والبكري ، والتتسي وغيرهم... وإذا رجعنا إلى تاريخ العرب المسلمين بشرق بلاد الإسلام وغربها ، فإننا نلمس أن **الفعل الحضري** كان دائما موجودا في هذه الأرض الطيبة .

لو تحدثنا عن سلفنا الصالح ، ببغداد ودمشق والقاهرة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، والقدس الشريف ، فإننا نجد للعرب المسلمين حضارة عمرانية عريقة القدم . وإذا انتقلنا من الشرق إلى الغرب ، فيمكننا ، على سبيل المثال ، ذكر الشبكة العمرانية الهائلة التي تركها الرومان ، والبيزنطيون ، ومن تبعهم ، والتي قامت عليها المدن العربية الإسلامية ، خاصة ، المدن التي كانت تقع في ملتقى الطرق التجارية الرئيسية ، والمواقع المميزة إستراتيجيا وطبيعيًا ومناخيا . حتى وإن أُعيد تشكيلها ، في السهول الداخلية والهضاب العليا ، واتجاهها في محور جنوب - شمال (أنظر إلى شبكة الطرق التجارية) ، لقد عرفت أرض المغرب عامة ، وأرض الجزائر خاصة ، مرور موجات عديدة لأقوام وشعوب أسسوا مدنا وإنجازات ، لازال البعض منها قائما ، وشاهدا ، إلى يومنا هذا .

وكان للعهد الإسلامي الأثر البالغ لمرور الفاطميين ، والرستميين ، والموحديين والمرابطين ، وغيرهم ، من الذين أسسوا المدن . نذكر منها: القاهرة ، وتونس والقيروان ، وفاس ، ومراكش ، وغرناطة ، وقرطبة ، وغيرها ...

وكانت تلمسان من أوائل المدن التي انبثقت ثانية تحت راية الإسلام ؛ إذ قامت على أنقاض مدينة "بوماريا" ، بـ: *أغادير* ، على يدي "أبي المهاجر" و"أبي قرّة الخارجي" ، ثم نمت بجانبها *تاغرارت* على يدي بن تاشفين ، وكون التصاق تغرارت بأغادير ، مدينة "تلمسان" التي درسنا خصوصيات عمرانها¹ ، الذي أوجد التجانس الكامل مع المقومات الحضارية للمجتمع الذي أنجزه . هذا المجتمع الذي التفّ تحت لواء الإسلام ، والمتكون من الأمازيغ ، والقبائل المختلفة الآفاق ، والعرب المسلمون الفاتحون ، والعائدون من بلاد الأندلس ، وغيرهم ...

كل هذا وُظفَ توظيفا حسنا ليجعل من *تلمسان* تحفة عمرانية فريدة من نوعها ، في عصرها الذهبي .

¹ Amar DHINA : Cités musulmanes d'Orient et d'Occident, ENAL-Alger, 1986 ; p :83.

لقد استنتجنا ، بعد هذه الدراسة الوجيزة والمتواضعة ، لعمرن تلمسان العتيق ،
في العصر الوسيط ، ما يلي :

1. إختيار مكان تأسيس مدينة تلمسان يرجع إلى خصوصيات الموقع ، الإستراتيجية والطبيعية والمناخية ، والذي أدمج ضمن الشبكة العمرانية الرومانية ، في العصر القديم . وهذه الأسباب التي أدخلت تلمسان (بوماريا) ضمن شبكة المواصلات البرية والبحرية ، جعلتها محل الأنظار عند مجيء العرب المسلمين بالمنطقة ، والذين انتخبوها مقراً لإقامتهم ، ثم مدينة مناوبة لتنقلاتهم وقوافلهم التجارية ، فعاصمة لسلالة بني زيان .

2. لم يأت تأسيس تلمسان بغتة ، تطبيقاً لقرار سياسي ، كما هو الشأن بالنسبة للمدن أو المناطق السكنية الجديدة، التي نشأت تحت ضغوطات الاستعجالات وأقلام المهندسين اللامعين (مدينة برازيليا بالبرازيل ، وقرية القصور بمصر) ، بل في عملية بطيئة، تجانست فيها الأنماط العمرانية والتصاميم المعمارية ، مثلما تجانست فيها الفئات الاجتماعية ، والعرقية ، والعائلية .

فجاء عمران مدينة تلمسان نتيجة هذا الامتزاج الذي صقل ، بمرور الزمن والأحداث ، الأحياء والأشياء .

هكذا شيدت المدينة ، حجارة... حجارة ، وحدثا... حدثا ، وكل حجارة تشهد على حدث . فبقدر ما تكونت الذاكرة الجماعية ، لسكان المدينة ، بتوحيد أفكارهم ومصيرهم المشترك ، توحد نمطهم المعيشي ، ونمط عمرانهم الذي كان أحسن تعبيراً عن ممارستهم الاجتماعية-الثقافية وتصوراتهم .

3. إن توحيد الأنماط والأشكال والقياسات في الإنجاز العمراني عامة ، وفن العمارة خاصة ، والذي يُبرز خاتم الشخصية العربية الإسلامية في عمران تلمسان العتيق ، يبين جلياً أن النظام الفضائي لم يستوح من عدم ، بل جاء ليحقق التصور العام للمجتمع الحضري ، حسب مقاييس تخدم المصلحة العامة ، دون التناقض مع

القوانين السماوية ، والديوية ، والعادات ، والتقاليد ، والأعراف ؛ وهذا من شأنه أن يُوطد العلاقة بين الفضاء المشيد والفضاء الاجتماعي-الثقافي لسكان المدينة .

4. إن مطالعتنا لمؤلفات أبي الحسن علي ماوردي والونشريسي (1) وابن عبدون الإشبيلي زيادة عن بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، تبين أن الإنتاج العمراني، في جميع مستوياته ، يخضع لضوابط مبدئية، واجتهاد علماء أجلاء.

إذ نجد في كتاب *الماوردي* (2) قوانين مسطرة تحدد وظائف المؤسسات ، والأشخاص ، والمراتب (Statuts) ، وتنظيم العلاقات بين الأشخاص والمؤسسات ، مع تفصيل استعمالات العقار، والطرق، والمياه، والأراضي الفلاحية، والضرائب ، إلخ...

كما يشير الونشريسي إلى هذه الأمور كذلك وغيرها من التي يتم ضبطها عن طريق النوازل . كما نذكر مؤلفات كتاب " البنيان والأشجار " لعبد الملك بن حبيب ، وابن عبدون الإشبيلي الذي يؤكد على وجود كتب ونصوص قانونية تتضمن عدة أحكام تنظم عملية البناء وتضبط كيفية إنجازها (3).

(1) الونشريسي : كتاب المعيار - الجزء : 8

(2) أبو الحسن علي ماوردي : " Règles de Droit Public et Administratif " ou " Les Statuts Gouvernementaux " Traduit par : E. FAGNAN - Office des Presses Universitaires - Alger , 1984

(3) مصادر أُشير إليها في رسالة " التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الاجتماعية "

معهد الثقافة الشعبية - تلمسان - للأستاذ سيدي محمد نقادي - ص : 244

♦ التوصيات :

رغم أن إطار تلمسان العتيقة المشيد في حالة اهتراء جد متقدم ، فإنها لا تزال تعجّ بالسكان ، نتيجة ارتباط السكان الأصليين بها من جهة ، واستمرار أزمة السكن من جهة أخرى . علاوة على هذا ، فإن المدينة العتيقة تقع في قلب المدينة الحالية وتؤدي بهذا ، وظائفها التجارية والروحية والثقافية على أكمل وجه .

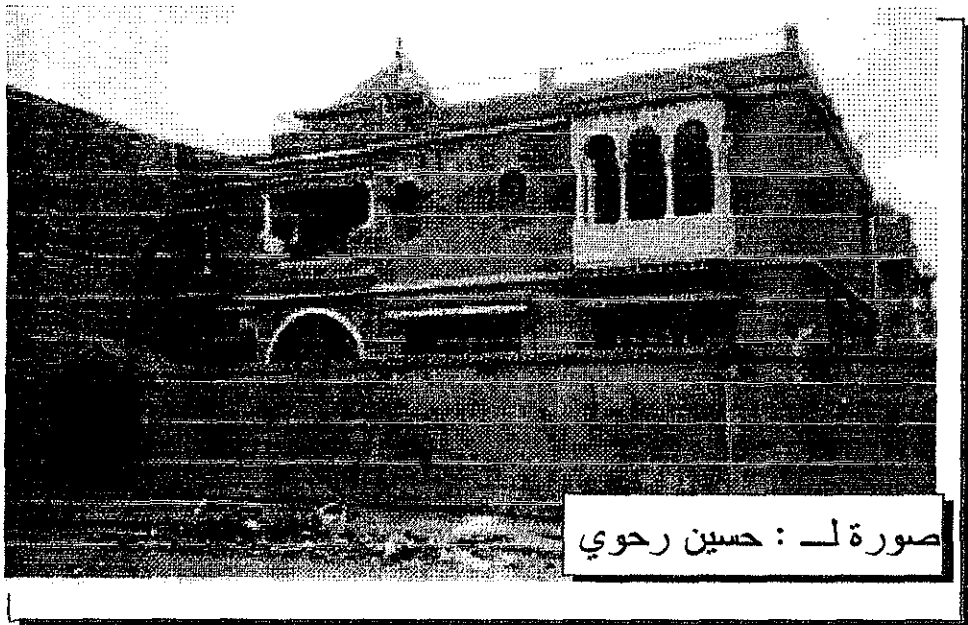


صورة لـ : حسين رحوي

1. لهذا فإننا نوصي بحمايتها ، لا عن طريق الدراسات الظرفية الجامعية والتقنية العلمية لمكاتب الدراسات المختلفة التخصص فقط ، والتي أظهرت حدودها في الميدان ، لكن كذلك بإجراءات قانونية صارمة ، ومتابعة مستمرة من طرف المصالح المعنية ، لمنع العمليات الغير مرخص لها ، والمتمثلة في الهدم والتوسعات وإعادة البناء، ... إلخ ، والتي تؤثر سلبا على محيط المدينة الجمالي والمرجعي .

2. ونظرا لتراكم الأنماط العمرانية والتصاميم والمخططات العمرانية المستوردة من شتى الآفاق ، والتي تبدو غريبة ، إلى حد بعيد ، من مقومات شخصيتنا القاعدية ،

وذاكرتنا الجماعية ، ونمطنا المعيشي ، فإننا نوصي بترقية تصاميم المنازل والإنجازات المعمارية لما فيها من قيم دلالية وجمالية في تراثنا العمراني والمعماري.



3. إن المبادرات التي أدت إلى بناء إنجازات عمومية كثانوية ياغمراسن بسيدي أبو إسحاق ، وفندق الزيانين ، ومقر بلدية الكيفان ، ومعهد التكوين المهني (الذي هو في طريق الإنجاز) ، وكذلك بعض المساجد ، تبين أنه من الممكن جدا إطفاء الطابع العربي-الإسلامي على المدينة الحديثة ؛ لهذا نوصي بتعميم هذه المبادرة الحميدة ، ليس على مستوى الإنجازات الكبرى فحسب ، بل حتى في البرامج السكنية الفردية والجماعية كذلك . ونظن ، أن هذا ممكن جدًا ، إذا ما وفقنا بين الجوانب الوظيفية والجوانب الجمالية ، في التخطيط وفي الإنجاز .

الخاتمة :

إن المحيط العمراني لمدينة تلمسان ، وضواحيها المشيدة ، أوسع بكثير من المحيط الذي درسناه في هذه الرسالة المتواضعة ؛ إذ أننا لم نتطرق إلى ما تبقى من العمران العتيق بحي أغادير ، وسيدي الحلوي ، وقرية العباد ، وسيدي أبي مدين ، وسيدي أبي إسحاق ، وسيدي يعقوب ، ومحيط المنصورة ، وغيرها .

لكن المحيط العمراني الواقع داخل الأسوار (Intra Muros) ، والذي انتخبناه كعينة دالة على العمران العربي-الإسلامي بتلمسان في العصر الوسيط جد كاف ، لأن المجال الواقع داخل الأسوار يشكل ويحوي جميع وضائف المدينة ومنجزاتها البنيوية الكبرى (القصر-المساجد-الأسواق-الدروب التجارية-المساكن-الأسوار-الأبواب... إلخ) .

ولقد لمسنا من خلال هذه الدراسة أن المدينة ، كإطار مشيد مادي ، ما هي إلا انعكاس المقومات الحضارية والممارسات الإجتماعية والثقافية للمجتمع الذي أنتجها . ولهذا لايمكننا الفصل بين الإطار الفيزيقي المادي والفضاء الإجتماعي الذي ساد آنذاك .

وكدليل على ذلك يمكننا ذكر قرية القصور (Louxor) ، بجمهورية مصر العربية ، حيث أن المهندس المعماري اللاحق حسن فتحي⁽¹⁾ أراد استرجاع الماضي المجيد ببناء قرية القصور ، بخصائصها وتفصيلها المعمارية ، وبالمواد والتقنيات التقليدية . ولقد نجح في هذا الإنجاز المادي ، لكن لم تستقطب هذه القرية الجميلة السكان ، كما كان منتظرا . والسبب في ذلك يرجع ، في رأينا ، إلى أن البعد الزمني لم يؤخذ بعين الاعتبار ، لأن حاجة الناس ونمطهم المعيشي في العصر الوسيط ليس هو نفسه في القرن العشرين . فإن كان ذلك هو المكان الملائم لتشييد القرية ، فإن الزمن

(1) طالع كتاب التشييد مع الشعب للمهندس المعماري حسن فتحي

ليس هو الزمن المناسب لتشييدها ، بالمواصفات الوظيفية للقرون السالفة . ومن هنا نستخلص أنه من المستحيل تشييد (أو بناء) وحدة عمرانية خارج البعد الزمني .

هناك مثل آخر ، يتمثل في قرار سياسي كان يقضي ببناء مدينة برازيليا بالبرازيل . وبالفعل ، لقد شُيِّدَت المدينة على أساس مخططات وتصاميم حديثة الطراز . حُدِّت فيها المجالات ، ووزعت فيها الوظائف الملائمة ، لتكون المدينة عاصمة للبلاد . فانتُخِبَت مجالات للإقامات الدبلوماسية ، ومركز السلطة ، والمديريات والمصالح ، والمراكز المالية والتجارية ، والأحياء السكنية ، والطرق السريعة المتصلة بالمطارات ووسائل النقل الثقيلة (المحطات) ، وربطها ربطا عقلانيا ضمن الشبكة العمرانية الوطنية (Réseau inter urbain National) ، ورغم كل هذا لم تستقبل ، في أول الأمر ، حشود المستثمرين والمواطنين كما كان منتظرا .

فبدت المدينة وكأنها هيكل مهجور وهذا راجع ، في رأينا ، إلى أن البعد المكاني لم تضعه الدراسات ولا عمليات البناء في الحسبان .

إذا كان هذا الزمن ، زمن القرن العشرين ، ومخطط المدينة ، مخطط القرن العشرين ، فإن المكان لم يكن ليتوافق مع ذلك ، لأن نجاح المدينة ، في جميع مستوياتها ، يكمن في الإرادة الجماعية الواعية والعفوية في تشييدها . فبقدر ما تُبنى المدينة ماديا ، تتجانس الأفكار والأنماط المعيشية لسكان هذه المدينة ، التي تجمعهم فيها العلاقات الإجتماعية والأحداث التاريخية ، بما تتضمنه من أفراح ومآسي وشعور بمصير مشترك . وبهذا نستنتج أنه لا يمكننا تشييد المدينة خارج البعد المكاني .

أما تلمسان العتيقة التي عرفت تطورا بطيئا ومستمرًا ، يتمشى ويتكيف مع التغيرات التي طرأت في بوابة الأحداث ، والتي وفقت بين البعدين المكاني والزمني ، استطاعت رغم كل الأحداث التي عاشتها ، والظروف التي مرت بها ، أن تبقى قائمة بذاتها وعمرانها إلى يومنا هذا .

ومنيتنا في ختام هذه الرسالة أن يكون قد وفقنا الله عز وجل فيما قمنا به من مساهمة ، ويساعدنا على مواصلة المشوار ، مستقبلا ، في دراسة المراحل اللاحقة

في عمران مدينة تلمسان ، والذي لا يقل أهمية عن المرحلة التي درسناها ، في فهم جميع فصائل تاريخها العمراني ، وحتى تكتمل الصورة في رؤية شاملة لهذه " المدينة-المنارة " التي لا يزال نورها ساطعا منذ القرون الغابرة .

والله ولي التوفيق .

المصادر والمراجع

❖ المراجع باللغة العربية

❖ المراجع باللغة الفرنسية

المراجع العربية

إبن سينا : كتاب السياسة

إبن سينا : الشفاء - تقديم ومراجعة: إبراهيم مذكور
الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة ، 1960

أفلاطون : المدينة الفاضلة

روبير أوزيل : فن تخطيط المدن - ترجمة: بهيج شعبان
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

قبادي محمد إسماعيل : قضايا علم الاجتماع المعاصر
دار المعارف، الإسكندرية، مصر 1976

خالص الأشعب : المدينة العربية
معهد البحوث والدراسات العربية ' بغداد
مؤسسة الخليج للطبع والتوزيع ' الكويت

مصطفى الأشرف : الجزائر الأمة و المجتمع
المؤسسة الوطنية 1983

الأب بارجس: ذكرى سفر إلى تلمسان

أندي برنيان، أندي نوشي، إيف لاکوست : الجزائر بين الماضي والحاضر
ترجمة : اسطنبولي رابح ومنصف عاشور
مؤسسة المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1984

محمد لخضر بن حسين: دراستان في الفكر الاقتصادي

عند عبد الرحمان بن خلدون في المقدمة

سلسلة : الأديب، الشهاب، (الأوراس) مطابع عمار قرفي، بانتنة

عبد الرحمان بن خلدون : العبر

عبد الرحمان بن خلدون : مقممة ابن خلدون

دار إحياء التراث العربي - بيروت ، لبنان

طبع بدار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان

يحيى بن خلدون : بغية الرواد - الجزءان الأول والثاني

محمود بوعياد: جوانب من الحياة في المغرب الأوسط،

في القرن التاسع الهجري (15م)

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982

الطيب تيزيني : حول مشكلات الثورة والثقافة في العالم الثالث

دار الطباعة دمشق

محمد بن عمرو التمار : تلمسان عبر العصور

المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر - 1985.

محمد بن عبد الله التنسي : تاريخ بني زيان

منجد الجيب : فرنسي-عربي . دار المشرق ، بيروت، لبنان، 1989

عبد القادر جفلول: مقياس علم الاجتماع العام (علاج 101)

معهد علم الاجتماع جامعة وهران ، سنة 1974

نجوة قصاب حسن : التفكير الاجتماعي عند العرب

مطبوعات جامعة دمشق ، سوريا ، 1989

فوزية دياب : القيم و العادات الاجتماعية

دار النهضة بيروت 1980

جاسم الدباغ : العمارة وتخطيط المدن في المناطق الحارة (ص: 331-339)

ضمن الملتقى الدولي بعنوان : تعليم وممارسة الفن المعماري، أيّ آفاق؟

المدرسة المتعددة التقنيات في الفن المعماري والعمران

الجزائر، من 23 إلى 26 أبريل 2001

محمد رمعون : مقياس تاريخ الجزائر السوسولوجي (عالج : 122)

معهد علم الاجتماع ، جامعة وهران ، سنة 1975.

علي الزين : العادات والتقاليد في العهود الإقطاعية

دار الكاتب بيروت 1976

سامية حسن الساعاتي : الثقافة والشخصية (بحث في علم الاجتماع الثقافي)

دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ، 1983

أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي الجزأين الأول و الثاني

المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985

محمد البشير شنييتي: احتلال الرومان لبلاد المغرب

المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985

محمد البشير شنييتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب

أثناء الاحتلال الروماني المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984

محمد البشير شنييتي : دراسة في أصول ونظم الملكة النوميديّة،
المؤسسة الوطنيّة للكتاب

مرمول محمد الصالح: السياسة الداخليّة للخلافة الفاطميّة في بلاد المغرب الإسلامي
ديوان المطبوعات الجامعيّة ، الجزائر، 1983

الفارابي : كتاب الجمع بين آراء الحكيمين - دار المشرق ، بيروت ، لبنان

الفارابي: آراء اهل المدينة الفاضلة

تحقيق: د. ألبير نصري نادر، الطبعة الكاثوليكيّة، بيروت، لبنان :

الفارابي : كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين

دار المشرق ، بيروت ، لبنان

الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة

تحقيق : ألبير نصري نادر - المطبعة الكاثوليكيّة ، بيروت ، لبنان

صلاح مصطفى الفوال : مناهج البحث في العلوم الاجتماعيّة

مكتبة نجريس - العجالة

محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث

دار المعارف، الإسكندرية، مصر 1968

يوحنا قمير : الفارابي - الجزء الأول - سلسلة : فلاسفة العرب (9)

دار المشرق (المطبعة الكاثوليكيّة) ، بيروت ، لبنان، 1968

يوحنا قمير : ابن سينا - الجزء الأول - سلسلة : فلاسفة العرب (10)

دار المشرق (المطبعة الكاثوليكيّة) ، بيروت ، لبنان، 1968

مبارك بن محمد الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث - الجزء الأول
المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989

سيدي محمد نقادي: التصميم العمراني لمدينة تلمسان و دلالاته الاجتماعية
رسالة ماجستير - معهد الثقافة الشعبية - جامعة تلمسان - 1991

حسين نمور : مقياس التراث العمراني والمعماري لمدن المغرب العتيقة
معهد الهندسة المعمارية ، جامعة قسنطينة، 1991.

حسن الوزان : وصف إفريقيا - الجزء الثاني

الونشريسي : كتاب المعيار - الجزء الثامن

فئة من الأساتذة الجامعيين : دراسات في علم الاجتماع العربي

دمشق 1968 / 1969

مكتب الهندسة لولاية تلمسان [] : المخطط العمراني التوجيهي لتلمسان
تقرير المرحلة الثانية-تلمسان

مكتب الهندسة لولاية تلمسان : المخطط العمراني التوجيهي لبلدية تلمسان.

تقرير المرحلة الأولى - تلمسان، سنة 1976

مكتب الهندسة لولاية تلمسان : المخطط العمراني التوجيهي لتلمسان

تقرير المرحلة الثانية لتلمسان 1977

مكتب الدراسات التقنية " B.T.M " : دراسة ترميم المشور

- تقرير المرحلة الأولى - تلمسان ، ديسمبر 1995 م.

Références en Langues Etrangères

• OUVRAGES

• *A*

- Louis ABADIE** : Tlemcen au passé retrouvé
Editions Jacques Grandini-Nice , France , 1994
- LAHOUARI ADDI**: De l'Algérie pré-coloniale à l'Algérie coloniale
Ed : ENAC -Alger-
- Mariérizza ANDREOLA, Ali BENDJELIL**
Pietro LAUREANO, Houcine RAHOUI :
Le Vieux Ksar de Béchar: Historique et Caractéristiques Socio-Spatiales
In : Revue « FORUM 95 », n° 2 , - Décembre 1995, Tlemcen, Algérie
- ANUCHIN V.A.** : Theory of Geography, - Richard J. CHORLEY Editions
Directions in Geography, Methuen, London, 1973
- Nurthan Atasoy, Afif BAHNASSI, Michael ROGERS** :
L'Art de l'Islam
Série Album d'Art, UNESCO-FLAMMARION, 1990

• *B*

- Norbert BANDIER, Danielle DEHOUX-FANGET et Y. GRAFMEYER** :
La VILLE
Collection Profil, Edition HATIER, Paris, 1979
- J.J. BARGES** : Souvenir d'un Voyage à Tlemcen
- Roland BARTHES** : l'Empire des Signes, Paris, 1970
- Alfred BEL** : Note sur une Inscription de 1846
In : Revue Africaine , Année 1911
- Rachid BOUROUIBA** :
• Les Inscriptions commémoratives des Mosquées d'Algérie
Office des Publications Universitaires, Alger, 1984
• Apport de l'Algérie à l'Architecture religieuse Arabo-Islamique
O.P.U.- Alger / ENAL- Alger, 1986
- TITUS BURCKHARDT**: L'art de l'Islam : Langage et Signification
Ed : Sindbad, Bourges, 1985
- W. BUCKLEY** : Sociology and Modern Systems Théory , 1967

•C

- Paul-Louis CAMBUZAT** : L'évolution des Cités du Tell en Ifrikya du VII^e au XI^e Siècle
Tome 1 et Tome 2 - Office des Publications Universitaires, Alger, 1986
- J. CANAL** : POMARIA: Tlemcen sous la Domination Romaine
(Contribution à l'Histoire de Tlemcen)
Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran, 1929
- Ildefonso CERDA** : La Théorie Générale de l'Urbanisation
Coll. Espacements
Editions du Seuil, Paris, 1979
- Howard P. CHUDACOFF** : The Evolution of American Urban Society
Prentice - Hall, inc, Englewood Cliffs, New - Jersey, 1975 Manille,
Trad: L'Urbanisation à la Mesure de la Société -Nouveaux Horizons - Philippines, 1977

- Christian-Norbberg CHULTZ** : La signification dans l'architecture occidentale.
Ed : Mardaga, Liège, 1977.
- CEVECCATI / SCANNAVINI** : La nouvelle culture urbaine :Bologne face à son patrimoine
- HENRI COING** : Révolution et changement social - Ed : Ouvrières.
- Marc COTE** : Espace Bâti précolonial et devenir de l'Habitat en Algérie
In: Les Systèmes Urbains en Algérie (p:59-65)
Séminaire International: Médéa 19-21 Novembre 1985
- Ministère del'Urbanisme, de la Construction et de l'Habitat - Algérie
 - Ministère de l'Urbanisme, du Logement et des Transports - France
- Marc COTE** : l'Espace Algérien,
SNED, Alger, 1984

•D

- Charles DARWIN** :Théorie de la Sélection Naturelle et Origine des Espèces, G.B., 1859
In : Mémo Larousse Encyclopédique, 1304 pages, Librairie Larousse, Paris, 1990
- Amar DHINA** : Cités Musulmanes d'Orient et d'Occident
Entreprise Nationale du Livre, Alger, 1986
- Attallah DHINA** : Le Royaume Abdelouadide à l'époque d'Abou Hammou Moussa 1^{er}
et d'Abou Tachfin 1^{er}
O.P.U.- Alger / ENAL- Alger, 1985
- Donnadieu / DIDILON** : Habiter le désert :Les maisons mozabites - Ed : P. Mardaga.
- Paul DUFOURNET** : Les Plans d'Organisation de l'Espace
Tomes : 1,2 & 3 - Centre de Recherche d'Urbanisme
C.R.U. Editeur, Paris XVI^e, 1968 & 1969
- A. DUPIRE /B. HAMBURGER/J.-C. PAUL / J.M. SAVIGNAT & A. THIEBAUT** :
Deux Essais sur la Construction - Collection: L'Architecte - OPU, 1983
- Emile DURKHEIM**, Morphologie Sociale, l'Année Sociologique, 2^o Année, Alcan, Paris, 1899
- Emile DURKHEIM** :the ruler of Sociological Method, the Free Press of Glencoe, 1895, 1962

• **E**

Wolf Von ECKARDT : Pour une nouvelle civilisation urbaine - Exemple n°46-
(offert par le Service Culturel Américain, Alger, à H.RAHOUI,)
Coll: Tendances Actuelles, Editions : France-Empire, Paris, 1975, 645p

EPAU : Actes du Séminaire International :

Enseignement et Pratique de l'Architecture, Quelles Perspectives ?
Alger du 23 au 26 Avril 2001 , Edition EPAU Avril 2001

• **F**

Mhamed FANTAR et François DECRET : l'Histoire de l'Afrique du Nord,
des Origines au 6° Siècle, Editions Payot, Paris

Hassan FETHI : Construire avec le peuple
Ed : Sindbad - Paris -

Ronald FLETCHER : The making of Sociologie ,
London ,Nelson , 2 t. ,1554 p.

• **G**

J.GAGE : Les classes sociales dans l'Empire romain,
Editions Payot, Paris, 1964.

Denis GRANDET : Architecture et Urbanisme Islamiques
Office des Publications Universitaires, Alger, 1985

• **H**

Edward T. HALL : La Dimension Cachée-Traduit de l'Américain par: Amélie PETITA
Coll: Points - Editions du Seuil, Paris 6, France, 1978

Jacques HERMAN : Les Langues de la Sociologie - Coll. Que Sais-Je ?
Presses Universitaires de France -Vendôme, France, 1983

• **I**

Abderrahmane IBN KHALDOUN : Les Prolégomènes
- Première Partie (1934)
- Deuxième Partie (1936)
- Troisième Partie (1938)

Traduit et Commenté (en Français) par : A. DE SLANE
Librairie Orientaliste Paul GEUTHNER,
Paris VI° , (1934,1936,1938)

I.F.A Ville-forme symbolique -pouvoir- projets -Ed : Mardaga.

• *J*

- Charles-André JULIEN**: Histoire de l'Afrique du Nord
(de la Conquête Arabe à 1830) - Editions Payot, Paris, 1966
- Charles André JUILEN** : Histoire de l'Afrique du Nord,
2° Edition, Paris, 1951.

• *K*

- Mahfoud KADDACHE** : l'Algérie Médiévale – ENAL, Alger, 1992
- M. KHANSARI / M.YAYARI** : Espace Persan - Architecture traditionnelle
Ed : P. Mardaga – liège, 1977

• *L*

- J. LAMARCK** : Théorie Générale de l'Evolution, France, 1809
- FERNAND LECLERC** : Anthropologie et colonialisme
Ed : Fayard
- C. LEVY-STRAUSS** : Structural Analysis = Analyse Structurale
- C. LEVY-STRAUSS** : La Pensée Sauvage, 1962
- Henri LEFEVBRE** : La révolution urbaine - Ed : Gallimard
- Henri LEFEBVRE**: la Production de l'Espace
Editions Anthropos, Paris, 1978
- C. LEVY-STRAUSS** : Structural Analysis (Analyse Structurale)
La Pensée Sauvage, 1962
- Herman LEY** : Société Bedouine et Société Citadine dans l'Oeuvre d'Ibn KHALDOUN
In : Colloque International Sur IBN KHALDOUN
Alger : 21-26 juin 1978 - SNED, Alger, 1984.

• *M*

- B. MALINOVSKI** : Freedom and Civilization, 1942
- Georges MARCAIS**: les villes d'art célèbres : Tlemcen,
Librairie Renouar, Paris, 1950
- Nadir MAROUF** : La Relation Ville - Campagne dans la théorie et la pratique
(Contribution à une sociologie rurale des pays dominés)
O.P.U., Alger, 1981
- Nadir MAROUF** : Quelques réflexions méthodologiques sur la Ville Africaine.
Histoire Sociale et vocation actuelle de la Médina
In : Premier Séminaire Maghrébin sur les Médinas
Tlemcen : Journées des 27-28-29 Septembre 1988
- Gustave MASSIAH et Jean-François TRIBILLON** : Villes en développement
Coll: Cahiers Libres -Editions La Découverte- Paris, 1982
- I. MAWERDI**: Les Statuts Gouvernementaux
ou "Règles de Droit Public et Administratif"
Traduit par : E. FAGNAN - Office des Presses Universitaires- Alger, 1984
- Margaret MEAD, Radcliff BROWN et autres**
(Cours d'Anthropologie Sociale et Culturelle)
INES-Culture Populaire -Tlemcen, 1988-1989

- Abdelghani MEGHERBI** : la Pensée Sociologique d'IBN KHALDOUN
 Entreprise Nationale du Livre , (ENAL), Alger, 1971, 1977 & 1983
- Mekteb Hendasset Tilmcen (MHT)** : P.U.D de Tlemcen. - Phase I - Tlemcen, 1977
- MEMO Larousse** : (Encyclopédie), Paris, 1990
- Pierre MERLIN** : Méthodes Quantitatives et Espace Urbain
 Collection de Géographie Applicable
 Edition: Masson et C^{ie} Editeurs, Paris VI^e, 1973
- Guy MICHAUD** : Identités collectives et relations inter-culturelles
 Ed : Complexe Bruxelles
- Lewis MUMFORD** : La Cité à travers l'Histoire,
 Editions du Seuil, Paris, 1961

• N, O, P

- Talcotti PARSONS** : Le Système des Sociétés Modernes (1971),
 Dunod, Paris , 1975 .
- Jean PELLETIER et Charles DELFANTE** : « Villes et Urbanisme dans le Monde »
 Collection I.E.G., Editions Masson, Paris.
- Gilbert PICARD**: L'Empire Romain
 collection : Architecture Universelle, Paris et Rome , 1967
- PIESSE et CANAL** : in Bulletin Géographique et Archéologique d'Oran , 1929
- PLATON** : La Cité Idéale

• Q, R

- Houcine RAHOUI** : Sur la formation des Villes et leur Evolution (Approche Epistémologique)
 In Revue « FORUM 95 », n° 1, Janv 1995, Tlemcen, Algérie
- Houcine RAHOUI** : quelques caractéristiques de l'urbanisme romain
 In : Revue Forum 95, n°1, Janv.95, CERU-URBAT, Tlemcen
- Houcine RAHOUI** : La Dimension Ecologique dans l'Espace Urbain Algérien
 In Actes du Séminaire International : Enseignement et Pratique de l'Architecture, Quelles Perspectives? Alger du 23 au 26 Avril 2001 , Edition EPAU Avril 2001, pp :355-365
- Houcine RAHOUI** : l'Habitat Traditionnel dans le Sud Algérien,
 (Confort Climatique et Caractéristiques Architecturales)
 in Actes du Séminaire International sur le secteur du Bâtiment (SIBO 2001)
 Ouargla, Algérie, du 04 au 08/ 02/2001
- André RAVERAU** : Le M'ZAB : Une leçon d'architecture - Ed : Sindbad Paris.
- M.REMAOUN** : Histoire Sociologique de l'Algérie
 (Module: I.L.J. 122) Université Es Sénia, Oran, 1974
- L.RINN** : les premiers royaumes berbères, Revue Africaine, 1885

• S

- Nadji SAFIR** : Essais d'analyse sociologique
 Tome I : Culture et Développement – OPU / ENAL, Alger, 1985
- P. SALAMA** : Les voies romaines en Afrique du Nord,
 Alger, 1951
- Milton SANTOS** : Pour une Géographie Nouvelle
 OPU - Alger , Publisud - Paris , 1984

• T

R. THOUVINO : Rome et les Berbères africains,
Revue Africaine, 1955

Y. THEBERT : Romanisation et *Déromanisation* en Afrique,
Histoire décolonisée ou Histoire inversée, Annales E.S.C., 33, 1978

• U, V

M. Juan VERNET : Ce que la culture doit aux arabes d'Espagne
Ed : Sindbad, Paris, 1985

Paul VIEILLE : l'Espace Global du Capitalisme d'Organisation, in revue « Espaces et Sociétés »,
n°12, Mai 1974, , pp : 3-32, Editions Anthropos, Paris V

• W

W. Montgomery WATT: L'influence de l'Islam dans l'Europe Médiévale
Ed : Geutner - Paris

Max WEBER : l'Ethique du Protestantisme et le Capitalisme

Max WEBER : Essais sur la Théorie de la Science (1922),
Plon, Paris 1965, 537 p.

Daniel WIECZOREC : Camillo SITTE et les Débuts de l'Urbanisme Moderne
Collection: L'Architecte - OPU, 1984

C. WRIGHT MILLS : L'Imagination Sociologique
Petite Collection Maspéro - Editions François MASPERO -Paris, 1977

• X, Y, Z

Jean ZEITOUN : Modèles en Urbanisme (Etude Critique)
Centre de Recherche d'Urbanisme - C.R.U. Editeur, Paris XVI^e, 1971

Brahim ZERROUKI : les institutions politiques dans l'œuvre d'Ibn Khaldoun
et l'exemple de l'imamat de Tahart , pp : 241 à 254.

In : Actes du Colloque International sur Ibn Khaldoun, Alger 21-26 Juin 1978 ; pp : 250-251.
Alger : 21-26 juin 1978 - SNED , Alger , 1984

Alberto ZUCHELLI : Introduction à l'Urbanisme Opérationnel et à la Composition Urbaine
URB-1-EPAU, Volume :1 (1983)
URB-1-EPAU, Volume :2 (1983)
URB-1-EPAU, Volume :3 (1984)
URB-1-EPAU, Volume :4 (1984)
Office des Publications Universitaires, Alger, 1983-1984

• **REVUES**

CAHIERS GEOGRAPHIQUES DE L'OUEST : n° 9-10 , Année 1987, Université d'Oran
Croissance Urbaine et Planification Spatiale (Algérie, Tunisie, Mauritanie)

ESPACES et SOCIETES : N°1 - Novembre 1970

Revue Critique Internationale de l'Aménagement, de l'Architecture et de l'Urbanisme
Editions Anthropos, Paris 6°, 1970

FORUM 95 : N° 1, Janvier 1995,

Périodique Edité par: le Centre d'Etudes et de Réalisations en Urbanisme,
Département et Aménagement, URBAT- Tlemcen, Algérie, 1995

FORUM 95 : N° 2, Décembre 1995,

Périodique Edité par, le Centre d'Etudes et de Réalisations en Urbanisme,
Département et Aménagement, URBAT- Tlemcen, Algérie, 1995

LES CAHIERS DE L'EPAU : n°5/6-10/96 – Patrimoine.

Ecole Polytechnique d'Architecture et d'Urbanisme, Alger, 1996

MAJALLAT ET-TARIKH : Actes du Colloque sur IBN KHALDOUN

Alger: 21-26 Juin 1978 Centre National d'Etudes Historiques

S.N.E.D. Alger, 1982.

METROPOLIS : Urbanisme-Planification Régionale-Environnement

Métropolis, N°75 -3° Trimestre 1986, 75001,Paris, 1986

URBANISME : URBA- N°214, Juillet 1986

Revue Bimensuelle - 75015, Paris, 1986

ملحقات

❖ صور

❖ رسومات

❖ نصوص

المدينة العتيقة :
الحالة التقنية للإطار المشيد
Etat Technique du Cadre Bâti

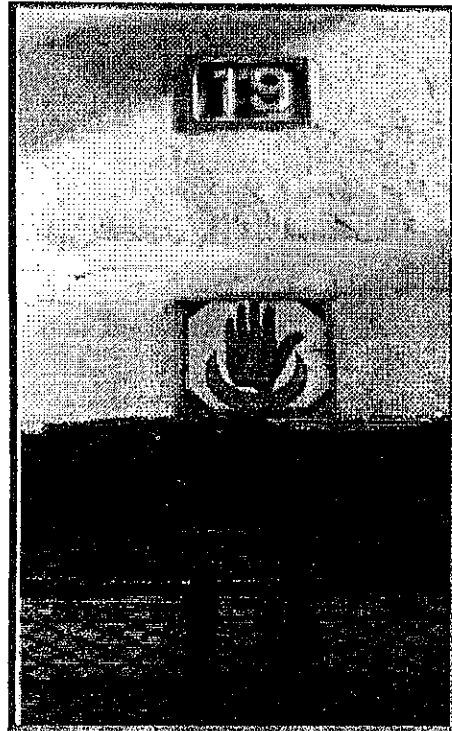
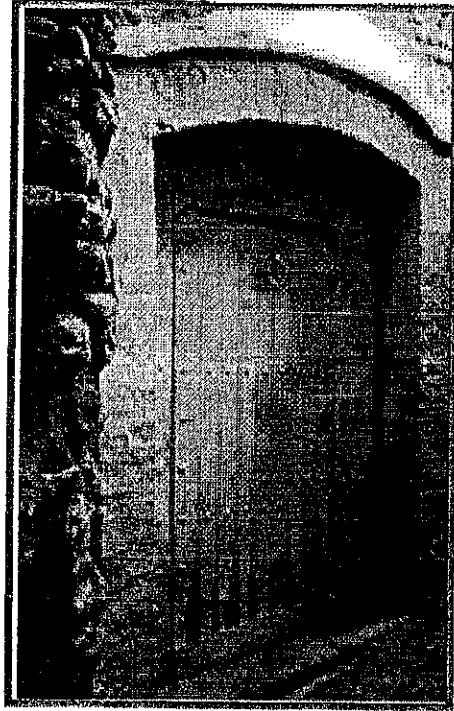
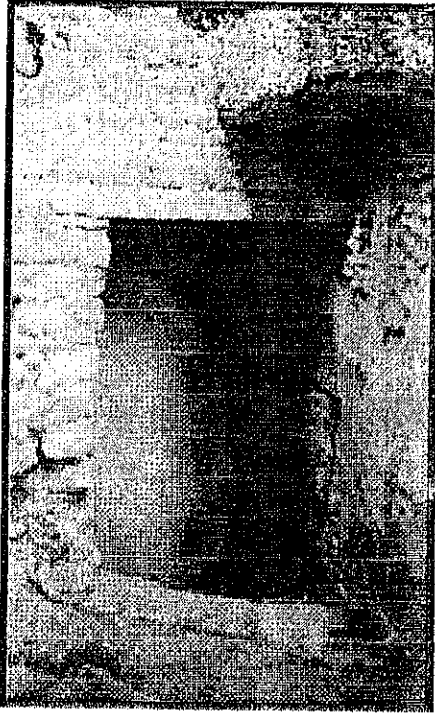


رغم اهتراء بنيانها، لازالت أحياء المدينة العتيقة
مكتضة بالسكان. لهذا يجب ترميم البنايات
المتصدعة في أقرب الآجال ، حفاظا على سلامة
السكان ، والبنايات ذات الطابع الأثري.

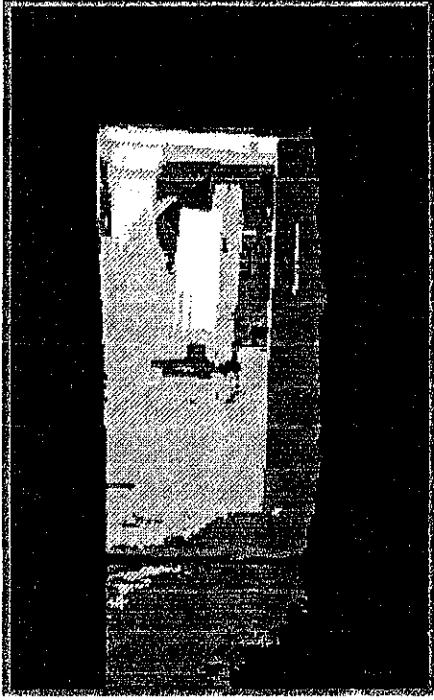
المدينة العتيقة :

أنواع الأبواب الأكثر انتشارا

Les Types de Portes les plus répandues



الحوش: المجال المركزي
Le Patio: Espace Central



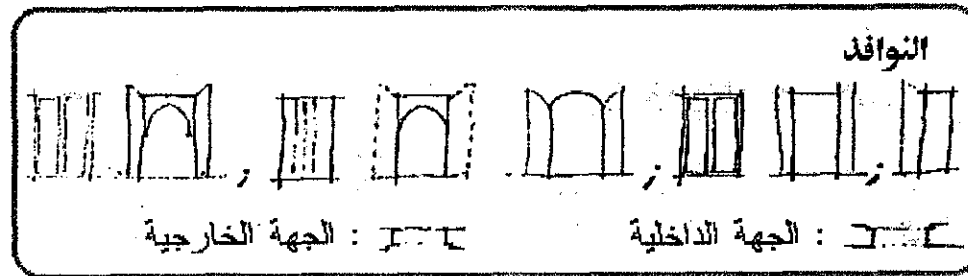
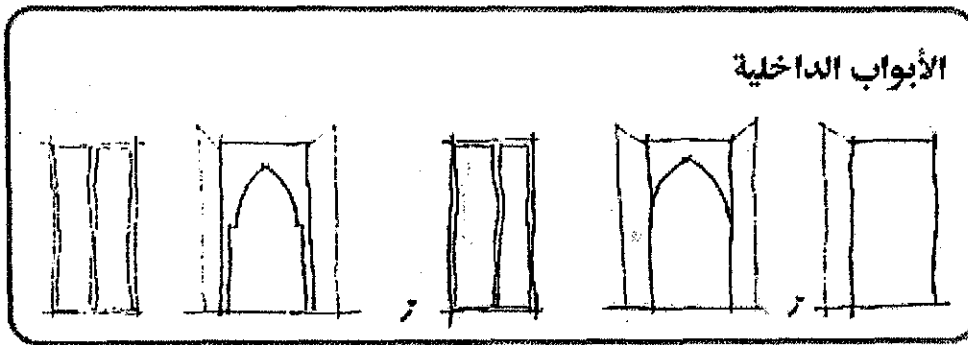
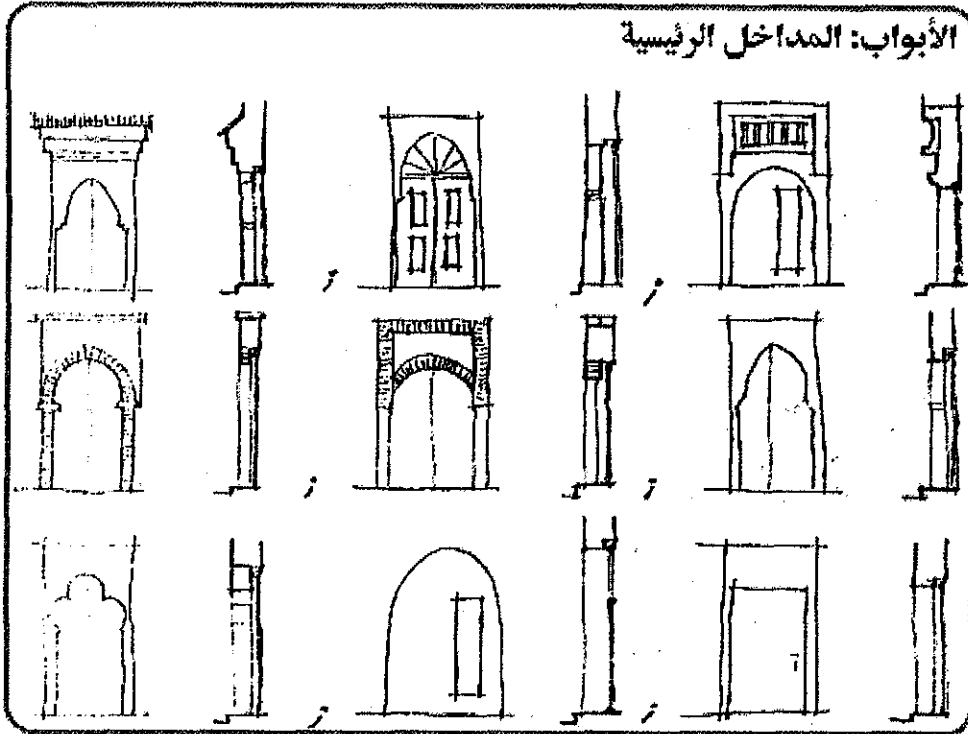
منزل تقليدي بـ: حي سيدي الجبار، تلمسان



منزل عائلة حسين رحوي
أنظر إلى الدربوز المغطى
وإلى الفناء المركزي

أنواع وأشكال الأبواب والنوافذ المتواجدة

في مدينة تلمسان العتيقة (1)

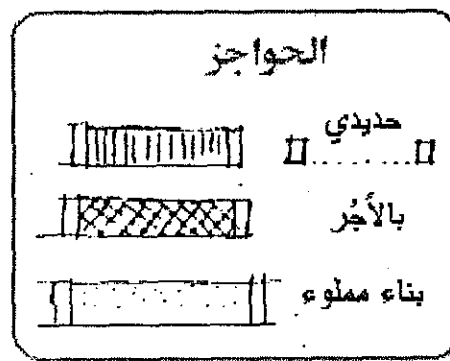
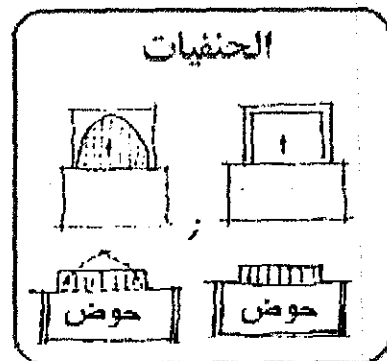
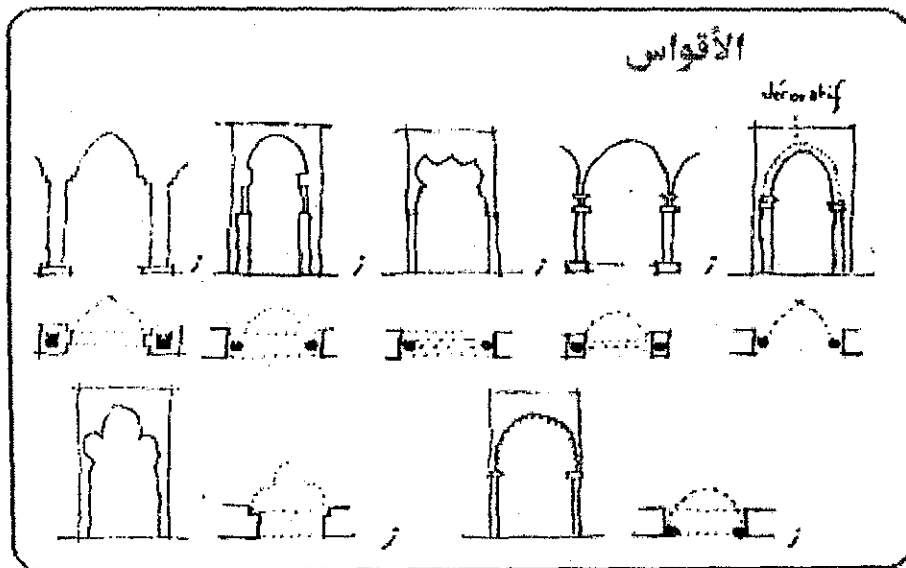
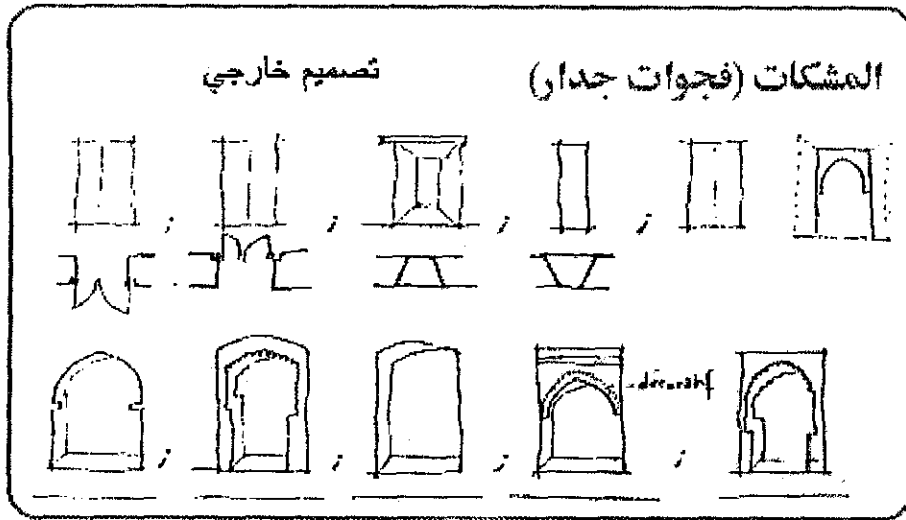


(1) منير بونخلة : إعادة تقييم لحي باب زير بمدينة تلمسان العتيقة

مذكرة لنيل درجة مهندس معماري - معهد الهندسة المعمارية، وهران

المشكوات (الفجوات)، الأقواس، الحواجز والنفقات
المتواجدة بالمدينة العتيقة

Les Niches, les Arcs, les Gardes-Corps et les Fontaines



قال العلامة عبد الرحمان ابن خلدون :

مقدّمة ابن خلدون

دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان

الصفحة: 35

إعلم أنّه لمّا كانت حقيقة التاريخ أنّه خبر عن الاجتماع
الإنساني الذي هو عمران العالم .

الصفحة : 38

المدينة هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى
الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه
حفظ النوع وبقاؤه .

الصفحة : 41

الاجتماع الإنساني ضروري ويعبر الحكماء عن هذا
بقولهم الإنسان مدني بالطبع، أي لا بدّ له من الاجتماع الذي
هو المدينة في اصطلاحهم، وهو معنى العمران .

ما هي المدينة ؟

Qu'est ce que la Ville?

Edward T. HALL, *La Dimension Cachée*
Editions du Seuil, Paris 6, 1971

page: 219

« La Ville existe sous des formes diverses, depuis plus de cinq mille ans, et il semble peu probable qu'on puisse jamais lui trouver un substitut intégral. Sans aucun doute une ville, en plus de tout ce qu'elle représente, est une expression de la culture du peuple qui l'a créée, ainsi qu'un prolongement de la société destinée à remplir un réseau complexe de fonctions, dont nous ne sommes d'ailleurs souvent pas entièrement conscients ».

en Couverture:

« La Dimension Cachée est celle du territoire de tout être vivant, animal ou humain, de l'espace nécessaire à son équilibre. Mais chez l'homme, cette dimension devient culturelle. Ainsi, chaque civilisation a sa manière de concevoir les déplacements du corps, l'agencement des maisons, les conditions de la conversation, les frontières de l'intimité ».

Raymond LEDRUT, *l'Image de la Ville,*
Espaces et Sociétés n°1, Novembre 1970,
Editions Anthropos, 1970

page: 93

« L'image de la ville est une unité symbolique. Elle n'appréhende pas directement son objet; mais elle ne le vise pas non plus à travers une règle d'utilisation ou un principe d'intellection. Elle met en oeuvre les moyens d'évoquer et de manifester la réalité urbaine. Elle atteint et saisit cette réalité pour autant qu'elle la figure. Tous les éléments que conjugue cette image, et qui la constituent, n'ont de valeur imageante que dans la mesure où ils concourent à l'expression de leur objet ».

**N. BANDIER, D. DEHOUX-FANGET et Y.
GRAFMEYER:
La Ville
Editions HATIER, Paris, 1979**

Page: 18

« Qu'est- ce qu'une Ville? Tout le monde sait ce qu'est une ville. Mais les définitions qui prétendent à quelque rigueur sont autant d'approches partielles et complémentaires d'une réalité sociale et spatiale complexe, qui doit être appréhendée par de multiples facettes. Les critères de nombre et de densité semblent aller de soi: pas de ville sans concentration de population d'une certaine ampleur ».

Page: 26

Une définition sociologique de la ville: « Localisation permanente, relativement large et dense, d'individus socialement hétérogènes ».

**J. PELLETIER et Ch. DELFANTE:
Villes et Urbanisme dans le Monde
Chapitre V: Les Villes Islamiques, Editions Masson**

Page: 119, § 1

« La naissance des cités islamiques a obéi aux règles générales de création des villes (situations naturelle, économique ou politique, sécurité...) auxquelles s'ajoutent des critères spécifiques qui ressortent des conditions climatiques, ethniques, propres à ces parties du monde, et surtout religieuses ».

Page: 119, § 2

« La tradition urbaine arabe fondée sur le trafic caravanier ou pastoral est très ancienne, et des cités telles que Albatra (Petra), capitale des Nabateens du VI^e siècle A.C.N. au II^e siècle R.C.N., en sont une illustration très partielle ».

Page: 119, § 3

« Mais c'est de l'association durable et réciproquement profitable des sédentaires, des bédouins caravaniers et des pasteurs nomades, qu'ont résulté la création et l'enrichissement des cités ».

Milton SANTOS, Pour une géographie nouvelle
O.P.U., Alger - Publisud, Paris, 1984

page: 119

« Il ne faut pas confondre les qualités fonctionnelles et les qualités systémiques des phénomènes. Par ses qualités fonctionnelles, l'espace, comme n'importe autre structure sociale (ou niveau de la société si l'on préfère) est, par sa structure bien plus que par sa forme, un reflet de la société globale dans sa scission sur le territoire. L'espace, dans ce cas, serait à considérer comme un fait social dans la mesure où il s'impose à tout le monde. Mais si nous considérons les qualités systémiques de l'espace, d'autres attributs viennent s'ajouter, comme celui de conditionner, de façon déterminante parfois, - une détermination conditionnée - l'évolution des autres structures de la société ».

الفهرس

محتويات الرسالة

الفهرس

1	الفصل الأول : مدخل عام
2	مقدمة
4	طرح الإشكالية وتحديد إطار البحث
9	الخطّة المنهجية المتّبعة.....
23	أقسام البحث
25	الفصل الثاني : المدينة ظاهرة ومفهوم (مقاربة مفاهيمية
26	عن التجمع السكاني للمجتمع البشري
28	تصور المدينة عند العرب
37	عن تكوين المدن وتطورها
44	الفصل الثالث : عن نشأة مدينة تلمسان (بوماريا)
	ومكانتها ضمن الشبكة العمرانية الجزائرية قديما
45	المرحلة الفينيقية
51	المرحلة الرومانية
53	بعض مميزات العمران الروماني ودلالاته
63	بوماريا المدينة الرومانية

79..... الفصل الرابع : العصر الإسلامي

مفهوم المجال المتحرك عند العرب

وتأسيس المدن العربية - الإسلامية بالمغرب الأوسط

80..... من سقوط روما إلى عشية الفتوحات الإسلامية

87..... عند الفتح الإسلامي

98..... العرب ومفهوم المجال المتحرك

105..... بنية ووظيفة المدينة العربية الإسلامية بالمغرب

128..... الفصل الخامس : تلمسان عاصمة الزيانيين

فضاءها الإجتماعي-الثقافي وعمرانها

129..... كلمة عن تاريخ تلمسان

133..... أسباب اختبار مدينة تلمسان كعاصمة لسلالة بني زيان

136..... التحليل الإجتماعي-الثقافي والعمراني لمدينة تلمسان

143..... على المستوى العمراني الشامل (Niveau Macroscopique Global)

161..... على المستوى المجهرى (Niveau Microscopique de Détail)

179..... الفصل السادس : وظائف ودلالات

بعض الوحدات العمرانية والعناصر المعمارية المميزة

180..... الوحدات العمرانية ذات القيمة الجمالية والتاريخية

200..... بعض العناصر المعمارية المميزة

214..... : الخلاصة
215..... استنتاجات عامة
219..... توصيات
221..... خاتمة

224..... : المراجع
225..... المراجع العربية
230..... المراجع باللغات الأجنبية

237..... : الملحقات

247..... : الفهرس